THE AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
3 8534 00601 5907

98B3525 pat 919
(SH)

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

al-Ibrāshī, Muḥammad ʿAṭiyah
al-Ādāb al-Sāmiyah
PJ
6074
I2
1946

الآداب السامية

مع

بحث مستفيض عن اللغة العربية وخصائصها وثروتها وأسرار جمالها

تأليف

محمد عطية الابراشي

خريج جامعتي اكستر ولندن

والمفتش العام بوزارة المعارف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

(١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م)

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب

دار احياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

36606

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، أما بعد :

فقد اشتدت العناية بالدراسات الساميَّة ، منذ قوِى اليقين بفائدة هـذه الدراسة ، وبخاصة عندما فكر قسم اللغة العربيـة بكلية الآداب ، ودار العلوم ، فى تقرير هـذه الدراسة . وما من شك فى أن العربية متصلة اتصالاً تامًا بمجموعة اللغات السامية ، وأن المتخصصين بدرس العربية فى حاجة ماسة إلى الوقوف على نشأة هذه اللغات وآدابها ، وصلة بعضها ببعض .

وقد كان لى الحظ فى دراسة هذه اللغات ، بمعهد اللغات الشرقية ، وكلية الملك بجامعة لندن . وحينما عدت إلى مصر سنة ١٩٣٠ ، كلفت تدريسها بدار العلوم ، ثم بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فأتيحت لى الفرصة فى تأليف « المفصل » فى اللغة السريانية ، والاشتراك فى وضع كتاب « الأساس » فى اللغة العبرية .

ولإتمام هـذا البحث ، أخذت على عاتقى وضع كتاب يتناول مباحث اللغات الساميَّة ، على نحو يفيد المتخصص ، كما يفيد القارئ المثقف ، الذى يتوق إلى الوقوف على آثار أجداده السابقين ، حاملى لواء الحضارة فى الشرق . والذى لا ريب فيه أن نور المدنية قد انبثق فى أرض المشرق ، وعلى أيدى هؤلاء الساميِّين القدامى نشأت أول حضارة عرفها التاريخ .

وقد أصبح واجباً على كل مثقف فى هذا العصر ، أن يقف وقوفاً تامًّا على آداب تلك الأمم ، وأن يكون على حظ لا بأس به من العلم بأساليب لغاتها ، فيعرف كيف نشأت وتطوّرت ، وأثر بعضها فى بعض ، وكيف أن العربية كانت أجمل لغة بين هذه اللغات، وأقرب إلى الأم السامية الأولى، وكيف تغلبت على أخواتها، حتى انتهى إليها هذا التراث الضخم ؛ تراث العرب فى الجاهلية والإسلام .

وقد آثرت فى هذا البحث ، أن أتناول اللغة العربية بشىء كثير من الدرس المفصل ؛ لأنها المقصودة بالذات ، بين أخواتها الساميات ، فكتبت عن العرب وأخلاقهم ، واللغة العربية وخصائصها ، وثروتها وجمالها .

وقد اضطلع بهذه الدراسة بعض العلماء من أهل الشرق ، فجدير بمن يتولون اليوم أمر اللغة العربية ، أن يعملوا على نشر الآداب الساميَّة ، بين أوساط المتعلمين والمثقفين ؛ لأنها تقوى فى كل شرقى عربى حسَّه وشعوره بمجد آبائه ، والاعتزاز بهذا المجد ، والعمل من جديد على بعثه قويّ الأركان ، متين البنيان ؛ فتعود إلى الشرق حضارته السالفة ، ومدنيته الغابرة ، التى فيه نشأت ، ومن أفقه أشرقت ، فنقلت العالم من شظف إلى ترف ، ومن ظلم وجهالة ، إلى معرفة وعدالة .

هذه بعض الآمال التى تجيش اليوم فى صدر كل شرقى عربى غيور ، فضلا عما يرجوه للعربية الفصحى من عهد سعيد ، تستعيد فيه سيادتها اللغوية ، والثقافية والاجتماعية ، والله الموفق والمعين ؟

جزيرة الروضة فى : جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ هـ
إبريل سنة ١٩٤٦ م

محمد عطية الإبراشى

الفصل الأول

نشأة اللغات السامية

اللغات الساميَّة هى تلك اللغـات المنسوبة إلى سام بن نوح عليهما السلام ، وقد نشأت فى آسية و إفريقيـة ، و بعضها حى لا يزال يتـكلم بها ملايين البشر ، وتحمل كنوزا وافرة من الثقافة والأدب ، و بعضها ميت ذهبت آثاره بذهاب الأيام . وهذه اللغات هى :

اللغة الأشورية ، والعبرية ، والفينيقية ، والآرامية ، والعربية ، والإثيوبية ، والمهرية السوقطرية[١] . وقد سماها هذا الاسم العالم (شلُوزَر[٢]) ؛ لأن معظم الشعوب والأمم التى تـكلمت أو تتـكلم هذه اللغات من أولاد سام بن نوح ، كما ورد فى الإصحاح العاشر من سفر التـكوين فى التوراة[٣] .

---

(١) Mahri - Socotri (٢) Schlozer

(٣) وهنا نقتبس بعض الآيات من هذا الإصحاح من سفر التكوين : « وهذه مواليد بنى نوح : سام وحام ويافث ، وولد لهم بنون بعد الطوفان . وسام أبو كل بنى عابر أخو يافث الـكبير ولد له أيضاً بنون . بنو سام عيلام وأشور وأرفـكساد ولود وآرام . وولد لعابر ابنان : اسم أحدهما فالج ؛ لأن فى أيامه قسمت الأرض ، واسم أخيه يقطان . ويقطان ولد له المودادو وشالف وحضرموت ويارح . وهدورام وأوزال ودقلة . وعوبال وأبيمائيـل وشبا . وأوفير وحويله ويوباب ، وكان هؤلاء بنى يقطان . وكان مسكنهم من ميشا إلى ناحية سفار جبل المشرق . هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم وألسنتهم . »

ويرى (نُولْدِكه) العالم البحاثة الألمانى أن ترتيب الشعوب فى سفر التكوين مؤسس على الاعتبارات السياسية والجغرافية ، لا اللغوية والتاريخية . ومما يعترض به على هذه التسمية :

(أولًا) فى الآية الثانية والعشرين من هذا الإصحاح عد « عيلام[1] ولود[2] » من أبناء سام، مع أن لغة العيلاميين فى (سِسْيانا) ولغة اللوديِّين لا صلة لهما باللغة العبرية.

ومعنى هذا أن كون عيلام ولُود من أبناء سام لا يستلزم أن تكون اللغة التى يتكلمها العيلاميون واللوديون ساميَّة .

(ثانياً) أن الفينيقيين أو الكنعانيين الذين تشبه لغتهم لغة بنى إسرائيل لا يعدون من أبناء سام ، مع أن لغتهم سامية كاللغة العبرية .

ولكننا على أى حال نرى أنفسنا مضطرين إلى قبول هذه التسمية : ساميين، ولغات سامية ؛ لأن الجميع قد ارتضاها وقبلها ، وسلم بها أخيرا .

ارتباط اللغات السامية بعضها ببعض

لا ينكر أحد أن هناك صلة كبيرة تربط اللغات السامية بعضها ببعض . وأهم هذه اللغات : العربية ، والعبرية ، والآرامية ، والسريانية ـ وهى فرع من الآرامية ـ والحبشية التى يتكلمها النوبيون فى بلاد النوبة .

وفى القرن الحادى عشر بعد الميلاد أخذ « أبو زكريا[3] يحيى » يستعمل فى اللغة العبرية الطرق التى كان يستعملها علماء النحو فى اللغة العربية ، فوضع أساسا للموازنة

---

(١) Elam (٢) Lud (٣) Rabbi Jehuda Hayyug.

بين اللغات السامية . وكان المعروف من قبل أن هناك قرابة بين اللغتين الآرامية والعبرية ، وكان يظن أن الآرامية هى العبرية المحرفة ، أما تعصب اللغويين من الإسرائيليين فقد جعلهم يعدون اللغة العبرية أصلا لا للغتين الآرامية والعربية فحسب، بل لكل اللغات السامية الأخرى أيضا ، ووافقهم المسيحيون على هذا الرأى . والكل متفق على أن الصلة بين اللغات العبرية والعربية والآرامية أكثر من الصلة بين العربية وأى لغة أخرى ، وأن الصلة بين اللغات السامية أكثر من الصلة بين اللغات الهندية الأوربية . ولا يشك فى ذلك أحد . وتختلف اللغات السامية القديمة كل منها عن الأخرى اختلافاً قليلا ، ولهذا تجد ـ حتى فى القرن السابع عشر ـ للمستشرقين من العلماء أمثال (هوتنجَر[١]) و (بُوكارْت[٢]) و (كاصطِل[٣]) و (لُودُولْف[٤]) رأيا واضحا فى أن هناك صلة بين اللغات المختلفة ، وقد سبقهم إلى هذا الرأى العلماء العبريون الذين عاشوا فى القرون الأولى مثل (يهودَا بن قريش[٥]).

خواص اللغات السامية أو النقط المشتركة بينها

إن خواص اللغات السامية و بعبارة أخرى النقط المشتركة بينها هى :

١ — الاشتراك فى أن أصول الكلمات ثلاثة : الفاء والعين واللام .

٢ — التشابه فى تكوين الأسماء والأفعال .

٣ — التشابه بين أنواع الضمائر (متكلم ومخاطب وغائب) ، وفى اتصالها بالأفعال.

٤ — المشابهة فى زمنى الفعل الرئيسيين : التام والناقص ، أو الماضى والمستقبل .

---

(١) Hottinger (٢) Bochart (٣) Castell

(٤) Ludolf (٥) Jehuda ben Koreish

٥ — تغير الحركات فى وسط الكلمات ، و بتغير الحركات يتغير المعنى .

٦ — التشابه الكبير فى تكوين الجمل وتركيبها .

٧ — تمتاز بحروف الحلق وهى الألف والهاء والعين والحاء ، و بحروف الإطباق وهى الصاد والضاد والطاء والظاء .

ومع هذا نجد أن اللغة الأشورية — وهى لغة سامية قديمة جدا — ليس فيها كل هذه الخواص التى تختص بها اللغات السامية . وفى بعض اللهجات الحديثة كاللغة السريانية الحديثة قد تغير الأسلوب القديم ، واختفى كثير من هذه المميزات ، وقل الشبَه . ومع هذا لا يزال فى استطاعتنا أن نحَدد الصلة بين اللهجات السامية القديمة واللهجات الحديثة ، ونتتبعها ، ونوضحها ، ونبين — ولو بالتقريب — كيف تكونت اللهجات الحديثة من القديمة . ولما كان من الممكن البرهنة على أن اللهجات الحديثة أُخذت من القديمة ، أمكننا أن نحكم بأنه لابد من وجود صلة بين القديم والحديث ، مهما تغير شكل اللهجات الحديثة ، ومهما زال مظهر اللغات القديمة .

كل هذه اللغات السامية قد تفرعت من اللغة السامية الأولى ، لغة سام بن نوح؛ تلك اللغة التى انقرضت منذ عصور طويلة ، وليس من السهل تحديدها ؛ فأبناء سام كانت لغتهم واحدة ، ولكن تفرقهم إلى طوائف مختلفة فى جهات مختلفة أدى إلى وجود لهجات ، تختلف كل منها عن الأخرى بعض الاختلاف .

ومن السهل الحكم على اللغة بغير تردد إن كانت سامية أو غير سامية بمجرد التأمل فيها ، والنظر إليها ، إلا إذا تأثرت قواعد اللغة السامية أو ألفاظها بلغة أجنبية غير سامية كما فى اللغة الأمهرية[1] فإننا قد نشك فيها .

---

(١) Amharic

اللغة السامية الأولى

ليس من السهل أن نعرف اللغة الساميَّة الأولى معرفة حقيقية ، وإن كان من الممكن معرفة الكلمات والتراكيب المشتركة فى اللغات السامية على العموم ؛ تلك الكلمات والتراكيب التى تدل على أن أصلها واحد ، وهو لسان سام بن نوح ، وعلى أنها كانت جزءا من اللغة السامية الأولى ؛ تلك اللغة التى لم يصل إلى معرفتها أحد.

فأسرة اللغات السامية أسرة قديمة جدًّا ، ولو أنها لم تتشعب، ولم تمتد جغرافيا ، كلغات الأسرة الهندية الأوربية . يقول : « فون كريمر (١) ، وجُويدِى (٢) ، وهُومِل (٣) »: إن الساميين قد هاجروا قديما إلى شمال بلاد العرب ، ثم استوطنوا تلك البلاد . وقبل تكوين اللهجات السامية المختلفة استعمل الساميون فى كل مكان اسما للجَمَل ، الذى لا يزال يظهر فى كل لهجة من اللهجات . ولم يكن لديهم أسماء لشجر النخل أو ثمره ، أو للنعامة فى مكانهم الأول؛ فالساميون قد عرفوا الجَمَل قبل أن يعرفوا النخيل أو النعامة . ومن تلك الجهة وهى شمال بلاد العرب هاجر الساميون إلى بابل قبل أن يهاجر الآريّون إليها . وأقدم موطن لأدب الساميين هو وادى دجلة والفرات. ويزعم آخرون من اللغويين وهم : « سِيس (٤) ، وسبرنجَر (٥) ، وسكريدَر (٦) ،

---

(١) Fon Cremer (٢) Guidi (٣) Hommel

(٤) Sayce (٥) Sprenger (٦) Schrader

ودِى جُوج[١] ورَايْت[٢] » أن المهد الأصلى للساميين قد كان فى الجزء الجنوبى من بلاد العرب، ثم انتشروا تدريجيا فى شبه جزيرة العرب. يقول: (سبِرنجَر) : «إن الساميين جميعاً طبقات متتابعة من العرب»، ويعضد «سِيس» فى كتابه « الأجرومية الآشورية[٣] » هذه النظرية قائلا : « إن كل التقاليد السامية تدل على أن بلاد العرب هى الموطن الأصلى للساميين؛ فهى الأرض التى ظلت منذ زمان متوغل فى القدم خاصة بهم».

ومما يؤيد ذلك أن الميزات الجنسية التى لهـذا الشعب كشدة العقيدة ، والميل إلى الخيال ، والقسوة ، تدل على أنه شعب بدوىّ ، نشأ فى الصحراء ، فشب متأثرا بآثار تلك البيئة .

ويرى « دى جُوج » أن الجو البديع لبلاد العرب الداخلية والجمـال الجسمى للعرب يدلان على حقيقة لا نزاع فيها ؛ وهى أن اللغة العربية تقرب كثيراً من اللغة الساميَّة الأولى ، وتتصل بها أكثر من اللغات السامية الأخرى .

وحينما تختلف اللغات المتفرعة من أصل واحد ، ولغة معينة، نجد من الممكن دائما معرفة اللغة التى حافظت على أصلها ، والتى لم تحافظ على أصولها .

ويزعم بعض علماء اللغة أن من الممكن معرفة لغة سام الأولى . وإلى هؤلاء نوجه هذا السؤال: هل يستطيع العالم اللغوى الذى يعرف اللغات المتفرعة من اللغة اللاتينية القديمة حق المعرفة، ويجيدها كل الإجادة ـ أن يكتب اللغة اللاتينية، ويرتبها من جديد، إذا فقدت جميع الـكتب الخاصة باللغة اللاتينية ؟ ولا ريب فى أن الجواب بالسلب.

ومما لا شك فيه أن لدينا فى اللغات السامية المختلفة مجموعة كبيرة من الـكلمات المتشابهة فى حروفها وحركاتها وعباراتها .

---

(١) De Goeje (٢) Wright (٣) Assyrian Grammar

وقد كانت هذه الكلمات جزءا من اللغة السامية الأولى . ومع هذا فإن التشابه فى تكوين الكلمات الأصلية أوفى الكلمات التى استعيرت من لغات أخرى قد يُضِلنا فى الحكم . وفى كل لغة من اللغات السامية مجموعة من المفردات التى لا وجود لها فى اللغات السامية الأخرى . ويفسر هذا بأن هذه المجموعة من الكلمات قد اختفت فى أخواتها من اللغات ، أو أهمل استعمالها ، ولم نستطع معرفتها والوصول إليها .

وهناك كلمات سامية أصلية قد اختفت مثل كلمة «لَيْث» بمعنى أسد؛ فإنها اختفت من اللغتين العبرية والآرامية لتترك مكانها لكلمات أخرى تحل محلها . وهناك كلمات غريبة لم يبق لها أثر، مع أن العبريين أو الآراميين أو الحبشيين قد استعاروها من قديم الزمان من لغات تختلف عن لغاتهم كل الاختلاف .

وقد يسأل سائل : أى اللهجات السامية الحية تشبه اللغة السامية الأولى كل الشبه؟

والجواب أنه ليس من المهم أن نعرف أى اللغات السامية الحية أكثر شبها باللغة السامية الأولى ؛ فقد زعم الباحثون فى بادئ الأمر أن جميع اللغات السامية قد أخذت من اللغة العبرية أو من اللغة الآرامية ، ثم تنازلوا عن هذه النظرية ؛ لأنها لم تستند إلى بحث علمى ، وأخذوا بعد هذا يعضدون الرأى القائل بأن هناك صلة كبيرة بين اللغة العربية واللغة السامية الأولى . وحجتهم فى هذا أن فى اللغة العربية آثارا قديمة تقرب كل القرب من لغة سام ، فهناك تشابه فى الخواص، ومقاطع الكلمات، والألفاظ ، والتراكيب .

ومع أن اللغة العربية غنية بألفاظها وعباراتها وأساليبها قد تبنَّت كلمات امتازت بسهولتها ، فى حين أن اللغات السامية الأخرى وضعت مفردات تختلف كل الاختلاف عن اللغة السامية الأولى .

وفى كثير من الأمور نجد اللغة العبرية واللغة الآرامية أقدم كثيراً من اللغة العربية . ويجب التسليم بأننا نعرف اللغة العربية أكثر من معرفتنا للغات السامية القديمة الأخرى .

وهناك من يقول إن اللغة الأشورية بالنسبة للغات السامية والعالم السامى كاللغة السنسكريتية[١] بالنسبة للغات الهندية الأوربية، ولا يسلم بهذا الرأى أحد حتى العلماء باللغة الأشورية ؛ فهو رأى بعيد عن الصواب ، لا يستحق أن ينقض بالأدلة والبراهين .

وفى الموازنة بين اللغات السامية يجب أن تكون اللغة العربية وقواعدها أساساً لتلك الموازنة . وفى التفصيلات يجب أن نفكر فى اللغات التى من فصيلة واحدة حينما نقوم بالموازنة ، بقدر ما يوصلنا إليه علمنا بهذه اللغات . وفى الوقت الذى نبحث فيه عن اللغة السامية الأولى نجد أن اللغة العبرية أكثر فائدة للباحث من اللغة الحبشية ، وأن فى اللغة الآرامية والأشورية واللهجات الحديثة التى لا نعرف عنها إلا قليلاً ثروة ثمينة لمن يريد البحث . وبالبحث اللغوى يمكن عمل موازنة بين القواعد والمفردات فى اللغات السامية .

العقلية السامية :

إن الساميين لا يختلفون فى عقليتهم وتفكيرهم عن غيرهم من الشعوب والأجناس ، ولا يقلون عن غير الساميين فى التفكير السياسى ، والتنظيم الحربى ، هذا ما نعتقده ، وما يؤيده التاريخ ، ولو أن بعض المتعصبين من المستشرقين أمثال

---

(١) Sanskrit

(رينان) الفرنسى [١] يحطون من شأن الساميين وتفكيرهم ومواهبهم فى الشئون السياسية والحربية ، ولكنها البيئة وظروف الحياة هى التى غيرت من نفسيتهم .

وإن من ينظر إلى تاريخ العرب القدماء والمقّابيين من بنى إسرائيل يجد أن العرب والمقّابيين يفوقون الغربيين فى شجاعتهم الحربية ، ومهارتهم السياسية ، ومثلهم الخلقية. وفى الشعر العربى القديم آيات بينات تدل على قوة فى الخيال ، وسمو فى التفكير ، وعذوبة فى التعبير ، وجمال فى الشعور ، ورقة فى المزاج ، وعظمة فى الشخصية ، وبطولة فى الحرب ، ومهارة فى السياسة . وما أمر خالد بن الوليد فى البطولة ، ومعاوية بن أبى سفيان فى السياسة ببعيد على القارئ .

الصلة بين اللغات السامية وغيرها من اللغات :

لقد حاول كثير من العلماء آونة بطرق علمية ، وأخرى بطرق غير علمية — أن يثبتوا أن هناك صلة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية . وكان من الطبيعى أن يفرضوا — أن الساميين والهنديين الأوربيين كانوا جيراناً فى قديم الزمان ، وكان هناك تشابه فى الملامح الجسمية بين هؤلاء وأولئك ، ويستنبطون من هذا أن اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية انحدرت من أصل واحد ، ولغة واحدة .

ولكن لم تنجح هذه المحاولات ؛ فمن الممكن أن نقول إن جميع اللغات — لا اللغات السامية والهندية الأوربية فقط — أخذت من أصل واحد ، ولغة واحدة . ولكن قد حدث اختلاف كبير بين اللغات بعضها وبعض منذ القدم فى العصور

---

(١) ارجع إلى : Renan : Histoire des Langues Semitiques

التى قبل التاريخ ، فأزال هذا الاختلاف ما كان بين اللغات الأولى من صلات . ولو استمرت هذه الصلات وأوجه الشبه ما استطعنا تمييز لغة من أخرى .

وإننا لا ننكر أن اللغات التى من فصيلة واحدة يمكن تحليلها لغويًّا وعلميًّا ومعرفة الصلة أو العلاقة التى بينها مهما تطل العصور ، ومهما تتغير الأزمنة .

ومن الأمثلة التى تضلل الباحث اللغوى وجود ألفاظ مشتركة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية، مثل «ماء ، فم ، وبعض الأعداد ، كالعدد ستة» ، فهو فى العربية ستة أو ستّ ، وفى العبرية شَش ، وفى السنسكريتية بالمثل ، وفى الفارسية الحديثة شَش ، وفى الأصل السامى شِدْث ، ثم حدث تغيير فى الحروف والنطق . وهناك تشابه محدود فى القواعد ، كالتشابه فى صيغ الأفعال وضمائر التكلم والخطاب والغيبة ، وفى التأنيث بالتاء . ولكن هل هذا التشابه يكفى للقول بأن أصل اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية واحد ؟

والجواب لا ؛ فقد تستعير أمة من أخرى بعض الكلمات والاصطلاحات ، ولم تبحث إلى الآن اللغات الحامية كما ينبغى . وتحتاج الصلة التى بين الهيروغليفية والبربرية من جهة، والصلة بين الهيروغليفية واللغات الحامية الجنوبية من جهة أخرى إلى كثير من الإيضاح والشرح ، ولم يَحِن الوقت بعد للكتابة فى قواعد الموازنة بين اللغات السامية والحامية .

المهد الأول للساميين : —

يرى فريق من العلماء أن الصلة بين اللغات السامية والحامية تدل على أن المهد الأول للساميين يجب أن يبحث عنه فى إفريقية، ولكثرة اختلاط الساميين والحاميين بالأجناس الأجنبية والشعوب المختلفة قلّ الشبه الجسمى فى الشَّعر وفك الأسنان بين

الجنسين: السامى والحامى . وقد زعم بعض اللغويين أن المهد الأول للساميين فى جهات معينة من أرمينية ، وقد استند هـذا الفرض على ما فى سـفر التـكوين من أن الشعوب السامية انحدرت من مدينة « أرْفَـكْسَاد[١] » إلى حـدود أرمينية[٢] وكردستان . وكان يظن أن هـذه الجهة تسكنها الشعوب الأولى التى استخرج منها الساميون والهنود الأوربيون أصلهم الأول ، ولـكن هذه الصلة القديمة مشكوك فيها بعض الشك ؛ فقد افترق الساميون والحاميون منذ القدم ، وليس فى استطاعة الأمم المحافظة ـ بعد تلك العصور الطويلة الخالية ـ على تذكار للجهة التى قيل إن أجدادهم وأسلافهم هاجروا إليها .

ولقد كوَّن العرب والعبريون والشعوب السامية الأخرى أمة واحـدة منذ عهد بعيد ، لم يستطع أحد أن يحفظ شيئاً من تقاليدها فى ذاك العهد . وقد نشـأ الرأى القائل بأن العبريين والقبائل المتصلة بهم أتوا من أرْفَـكْسَاد عن القصة المعروفة بأن سفينة رست بالقرب من تلك الجهة ، ومع هذا نجد فى سفر التـكوين نفسه حكاية تخالف الحـكاية السابقة كل المخالفة .

ويرى آخرون أن المهد الأول للساميين كان فى بلاد بابل ، ولا يصدق هـذا إلا قليل من رجال العلم . ويرى بعض كبار العلماء أن المهـد الأول للساميين كان فى شبه جزيرة العرب ، ويعضد هذا الرأى كثير من علماء اللغات والتاريخ ؛ فالتاريخ يبرهن على أن هناك قبائل سـامّية كانت تسكن من قديم الزمان الأرض الصالحة للحرث والزرع من بلاد العرب . وقد جعلت هـذه القبائل الزراعة وسيلة للعيش . وفى اللغات السامية علامات مختلفـة تدل على أن العبريين والآراميين[٣] ،

---

(١) Arphaxad (٢) Armenia (٣) Aramaeans

والسريانيين كانوا من البدو فى الأصل ؛ فصحراء سورية و بلاد العرب هى المهد الحقيقى للبدو . وفى البدو من العرب يظهر الخلق السامى بأجلى معانيه ؛ فأخلاق البدو أخلاق ساميّة ، ولغة البدو أقرب اللغات إلى اللغة السامية الأولى ، ومع هذا لا يمكننا أن نجزم بأن شبه جزيرة العرب هى المهد الأول لجميع الساميين .

وقد حاول المستشرق المعاصر الكبير « إجْنَاز يُوجِو يدى[١] » أن يبرهن على أن المهد الأول للساميين هو الجزء الأسفل من نهر الفرات[٢] ، وحجته فى هذا أن الآراء الجغرافية والنباتية والحيوانية التى عبر عنها الساميون فى لغاتهم ، منذ شتتوا وتفرقوا تطابق تمام المطابقة الخواص الطبيعية لنهر الفرات الأسفل وحده . ولا يمكننا بالطبع القطع بصحة هذه النظرية ؛ فهناك اصطلاحات ، وعبارات كثيرة لا يمكن أن تكون قد نشأت فى جهة نهر الفرات . وقد فقدت كل لهجة من اللهجات السامية كثيراً من كلماتها الأصلية بمضى الوقت . والأرجح فى نظرنا أن المهد الأول للساميين كان فى شبه جزيرة العرب . وليس من السهل تحديد الجهة التى كان بها الساميون القدماء ، فهل كانوا بين دجلة والفرات ، أو باليمن ، أو بالقوقاز ؟

لقد تشعبت الآراء فى هذه النقطة ، ولا يمكن تحديد الإجابة عنها ؛ فالعرب قوم يميلون إلى الرحيل دائماً لطلب العيش ، ولا يستقرون فى مكان .

---

(١) Ignazio Guidi

(٢) The Louer Euphrates

الصلة بين اللغات السامية :

لا يستطيع أحد أن ينكر أن هناك صلة بين اللغات السامية ، ولكن ليس من السهل تحديد أوجه الصلة بين هذه اللغات المتفرعة من لغة سام الأولى . وكل ما نستطيع أن نذكره هو أن هناك اتفاقا أحيانا فى القواعد ، وأن هناك تشابها كبيرا فى كثير من الكلمات . وفى الوقت الذى نقرر فيه أن هناك صلة بين اللغات السامية ، نقرر أن لكل لغة سامية مميزات خاصة تختص بها ، وتنفرد بها عن غيرها ؛ ففى اللغة العبرية أداة تعريف وهى الهاء فى أول الاسم ، وتضبط بقواعد خاصة . وفى اللغة العربية أداة تعريف وهى (اَل) . وفى اللهجة السبئية يعبر عن أداة التعريف بزيادة النون فى آخر الاسم . وفى اللغة الآرامية يعبر عن أداة التعريف بزيادة « آ » فى آخر الاسم . وليس فى اللغة السريانية أداة تعريف ، ولكن المتتبع للغة السريانية يجد آثارا لها . وليس فى اللغة الأشورية ولا الحبشية أداة تعريف مطلقا .

وفى كل لغة من اللغات السامية فعل يبنى للمجهول ، ولكن الطريقة تختلف ؛ ففى العربية يضم أول الماضى ويكسر ما قبل آخره ، ويضم أول المضارع ويفتح ما قبل آخره ، وفى السريانية يزاد على الفعل الماضى الثلاثى الغائب (اِتْ) فى أوله ، وعلى الفعل المستقبل للغائب (نِتْ) فى أوله ، وقد تجنبت ذكر القاعدة بالتفصيل كى لا أتعب القارئ ببيان تفصيلات هو فى غنى عنها . ولكل لغة من اللغات السامية طريقة خاصة فى بناء الفعل المتعدى للمجهول .

وفى اللغة العربية يجمع الاسم جمع مذكر سالما بزيادة واو ونون فى حالة الرفع ، وياء ونون فى حالتى النصب والجر . وفى اللغة العبرية يجمع الاسم هذا الجمع بزيادة

ياء وميم فى آخر الاسم مع كسر ما قبل الياء . وفى اللغتين: الآرامية والسريانية تزاد ياء ونون فى الآخر مع كسر ما قبل الياء .

وقد نجد فى بعض اللغات السامية كلمات مستعملة فى بعضها مهجورة فى بعضها الآخر . وهناك أيضا اختلاف فى نطق بعض الحروف؛ فالثاء فى العربية قد تكون شينا فى العبرية ، والدال فى إحدى اللغات السامية قد تكون ذالا فى أخت لها ، والصاد قد تكون ضادا ، ومع هذا الاختلاف فى النطق كان من السهل أن يتفاهم الساميون فى القبائل المختلفة حتى بعد تفرقهم .

تقسيم اللغات السامية

تنقسم اللغات السامية قسمين: شرقية وغربية، وتشمل الشرقية البابلية الآشورية، أو المسمارية القديمة؛ وهى لغة العرب بين دجلة والفرات قبل الميلاد بآلاف السنين .

وتشمل الغربية اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية .

أما اللهجات الشمالية فهى الكنعانية القديمة والموأبية، والفينيقية ، والعبرية، والآرامية.

وأما اللهجات الجنوبية فهى :

(١) العربية الشمالية وتشمل اللهجة اللحيانية والثمودية والصفوية ، وتقرب هذه اللهجات كل القرب من اللغة العربية الفصيحة ، كما تشمل لهجة قريش التى نزل بها القرآن الكريم .

(٢) العربية الجنوبية كاللهجة السبئية، والمعينية، ولهجة حضرموت أو الحضرمية.

(٣) الحبشية أو الجعزية؛ وهى لغة العرب الذين هاجروا إلى الحبشة قبل الميلاد .

وسنبحث فيما يلى اللغات الهامة من هذه اللغات السامية .

الفصل الثانى

اللغـــة العبرية

اللغتان العبرية والفينيقية لهجتان للغة واحدة ، وأصل واحـد . وتعرف اللغة العبرية بلغة بنى إسرائيل . وقد جاء فى العهد القديم أن الإسرائيليين من سلالة عِبَر[1] ، كانوا يتكلمون اللغة العبرية . ولم تُظهر النقوشُ السامية القديمة إلا الهيكلَ العظمى للغة العبرية . وتختلف لغة (مُوأب[2]) كثيرا عن اللغـة العبرية . وفى تل العمارنة الذى كشف فى مصر وجدت كلمات عبرية كثيرة كتبت بلغة بابل فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وقام بكتابتها أمراء فلسطين ، ومنها يتضح أن اللغة العبرية القديمة نشأت فى فلسطين ، حتى قبل مهاجرة الإسرائيليين إلى كنعان. ولنذكر كلمة عن كنعان فنقول:

كنعان :

هو كنعان بن حام بن نوح ، تسمَّى باسمه قسم كبير من لبنان وسورية عصوراً طويلة ، وهو مشتق فى العـبرية من (كنعَ) بمعنى ركع وهو لفظ ميت ، وفى الـكلدانية بمعنى خَزِى ، وفى العربيـة بمعنى خضع . وقد ورد فى الـكتاب المقدس اسم كنعان مرارا ، ويراد به أرض الميعاد ، وهى الجهة الممتدة من الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) Eber (٢) Moab

ويؤخـذ من المسكوكات الفينيقية أن الفينيقيين كانوا يسمون بلادهم بلاد كنعان .

ويرى بعض المحدثين أن كلمة كنعان تشمل الأرض المقدسة ، وجزءا كبيرا من لبنان، ومعناها المنخفض . فـكنعان هى البلاد المنخفضة ، ويقابلها آرام؛ وهى البلاد المرتفعة أو العالية . ويقول القديس أوجسْتِين : « إن السبب فى تسمية أرض الميعاد بأرض كنعان يؤخذ من معنى هذه الكلمة ، فمعناها المنخفض » .

وقد نزلت على كنعان لغة جده نوح ، وسمى أبناؤه الجهـة التى اتخذوها وطنا لهم باسم أبيهم كنعان .

وتنسب بعض القطع من العهد القديم إلى القرون الأخيرة من الألف الثانى قبل الميلاد ، وبخاصة أغنية (دَبُورَا[1]) فى الإصحـاح الخامس من كـتاب القضاة[2] ، وهى دليل يبين أحوال بنى إسرائيل فى الوقت الذى كان فيه الـكنعانيون ينازعونهم فى امتلاك بلادهم . ويرجح أن تاريخ الأدب العبرى كان معروفا يتخـذ مكانه فى النشأة الزمنية بين آداب العالم قبـل التـكلم عن ملوك بنى إسرائيل . ويرجع جزء كبير من العهد القـديم إلى تاريخ الملوك القدماء من الإسرائيليين . وفى عهد الملوك الأخيرين منهم ظهر جزء عظيم من أدب اللغة العبرية بالصورة التى نراها فى عهدهم .

---

(١) Deborah

(٢) الأغنية : « لأجل قيادة القواد فى إسرائيل ، لأجل انتداب الشعب باركوا الرب ، اسمعوا أيها الملوك ، واصغوا أيهـا العظماء ، أنا ، أنا للرب أترنم ، أزمر للرب إله إسرائيل . يارب ، بخروجك من سعير ، بصعودك من صحراء أدوم ، الأرض ارتعدت ، السموات أيضاً قطرت ، كذلك السحب قطرت ماء ، تزلزلت الجبـال من وجه الرب وسيناء ، هـذا من وجه الرب إله إسرائيل . »

وإلى هـذا العهد ينسب عدد كبير من الأختام والطوابع والأحجار الكريمة التى تحمل أسماء بنى إسرائيل .

وقد عرفت اللغة العبرية للأوربيين منـذ أمد بعيد ، ولـكنهم لم يعرفوا كيف كانت تنطق فى عهد داود ، وأشعياء ؛ فهم مدينون للجهود التى قامت بها المدارس اليهودية الأخـيرة التى حددت ووضحت نطق العهد القديم ، بعد بحث طويل ، وعناية كبيرة ، فأضافوا حركات ، وزادوا بعض العلامات والأشـكال ، وبذلوا كل ما فى وسعهم ، ولـكنهم لم يستطيعوا تنفيذ نطق اللغة العبرية إلا فى عهدها الحديث. ولم يتمكنوا من معرفة نطقها بالضبط فى أيامها الأولى ، ولم يكن غرضهم أن يظهروا اللغة العبرية كما كانت فى عهدها القديم ، بل كان غرضهم أن يوضحوا كيف يجب أن تقرأ فى معابد بنى إسرائيل عند الترتيل والغناء ، والترنيم والدعاء .

وربما كان النطق فى العصور القديمة مختلفا كثيرا عن النطق الحالى للغة العبرية، وتظهر هذه الفروق من حين لآخر فى الهجاء المعتاد فى النسخ القديمة من العهد القديم، كما يختلف الضبط أحيانا وعلامات الوقف . وقد نجد فى بعض الأحوال ـ مايساعدنا فى بحثنا ـ فى الترجمة الإغريقية القديمة للعهد القديم ؛ فقد كانت الـكلمات العبرية والأعلام فى تلك الترجمة تـكتب بحروف إغريقية وخاصة فى عهد الإسكندر المقدونى. ويلاحظ فيها أن الفتحة الأصلية كثيرا ما كانت تضبط كسرة . وقد ذكرنا هـذا لننقض الفـكرة الخاطئة القائلة إن النسخة العادية للعهد القديم فى الوقت الحالى تمثل نطق اللغة العبرية القديمة من غير تغيير جوهرى . والحق أنها لا تعبر إلا عن النطق الحديث للغة العبرية ، وما ذلك إلا لقصد الترتيل والترنيم، والإلقاء والغناء، عند الدعاء فى المعابد الإسرائيلية . وقد ظهر اختلاف فى لهجة بنى إسرائيل فى كتاب القضاة

السادس ، والثانى عشر ، وذلك يظهر لنا أن بنى إفْرَايم[١] القدماء قد نطقوا السين بدلا من الشين .

ولا نستطيع أن نقول إن كلمات اللغة العبرية القديمة معروفة بكل دقة ؛ فإن العهد القديم كتاب كبير الحجم يحتوى كثيرا من التكرار ، وعددا كبيرا من القطع التى تفيد العالم الدينى كثيرا ، والعالم اللغوى قليلا . وهناك كثير من الكلمات العبرية التى لم تظهر فى العهد القديم ، ولم تتهيأ للكُتّاب فرصة لاستعمال تلك الكلمات . ولو عرفنا حق المعرفة مجموعة الكلمات العبرية فى عصر أَرْمِيَا[٢] مثلا لكنا اليوم قادرين على معرفة الصلة بين اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ، ولكان العهد القديم أسهل فهماً علينا .

فاللغة العبرية سميت فى العهد القديم باللغة الكنعانية واللغة اليهودية . وكلمة عبرى مشتقة من الفعل « عبرَ » فى اللغة العبرية بمعنى اجتاز أو رحل . ومعنى عبرى : الكثير الرحلة ، ثم سميت هذه اللغة فيما بعد باللغة العبرية . ويمثل كتاب هوشع من العهد القديم اللهجة الإسرائيلية أو الشمالية من اللغة العبرية . ويمثل كتاب أشعياء اللهجة اليهودية أو الجنوبية من هذه اللغة .

وقد حاكى فلاسفة بنى إسرائيل علماء اللغة العربية فى وضع قواعد نحوية للغة العبرية فى القرنين العاشر والحادى عشر من الميلاد . ويعد سعيد[٣] بن يوسف الفيومى اليهودى المعروف بسعديًا ـ أباً للنحو العبرى ، ثم جاء بعده كثيرون من علماء النحو العبرى من اليهود ، متأثرين بعلماء اللغة العربية .

وفى القرن السابع الميلادى ضبط العهد القديم خوفا من التصحيف والتحريف ، كما حدث فى ضبط القرآن الكريم .

---

(١) Ephraimites (٢) Jeremiah

(٣) ولد سنة ٨٩٣ م ، وتوفى سنة ٩٤٢ م .

أسفار الكتاب المقدس

أسفار الكتاب المقدس يجمعها قولك « تَنَخْ » فالتاء رمز للتوراة ، والنون رمز للأنبياء ، والكاف ـ التى قلبت فى النطق العبرى خاء ـ رمز للمكتوبات ، ولنتكلم عن كل منها بإيجاز فنقول :

(أ) التوراة :

التوراة هى الكتب الخمسة التى أنزلها الله على سيدنا موسى ، كما أنزل الإنجيل على عيسى ، والزبور على داود ، والفرقان على خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبدالله . وقد ورد فى القرآن الكريم : « إنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدًى ونُورٌ » . والتوراة أعظم كتاب لدى بنى إسرائيل . ويشتمل على القانون الذى أنزله الله ، وعلى التاريخ من آدم إلى موت موسى . وتنقسم التوراة خمسة أسفار وهى :

(١) سِفر التكوين[١] : ويبحث فى خلق العالم ، وحياة الإنسان فى بدء الخليقة. وفيه قصة آدم وحواء ، ونوح والطوفان ، وقصص إبرهيم وإسحق ويعقوب ويوسف ، حتى انتقلت أسرة يوسف إلى مصر .

(٢) سفر الخروج[٢] : ويشمل تاريخ بنى إسرائيل وهم فى مصر ، ويوضح كيف كان الفراعنة يعذبونهم ، وكيف خرجوا من مصر ؛ وقصة موسى وفرعون ،

---

(١) Genesis (٢) Exodus

والوحى على جبل سيناء ، والوصايا العشر ، وهى أساس ديانة بنى إسرائيل.

وها هى ذى فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج :

« ثم تكلم اللهُ بجميع هـذه الـكلمات قائلاً : أنا الربُّ إلٰهك الذى أخرجك من أرض مصر ؛ من بيت العبودية . لا يكن لكَ آلهةٌ أُخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورةً ما ممّا فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى المـاء من تحت الأرض . لا تسجد لهنّ ولا تعبدْهنّ ؛ لأنى أنا الرب إلٰهك إلٰه غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مُبغِضىَّ . وأصنع إحساناً إلى ألوف من مُحِبِّىَّ وحافظى وصايای . لا تنطق باسم الرب إلٰهك عَبَثاً ؛ لأن الرب لا يُبْرِئُ من نطق باسمـه باطلاً . اذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميـع عملك . وأما اليوم السابع ففيه سَبْت للرب إلٰهك . لا تصنع عملاً مّا ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأَمَتُك وبهيمتك ونَزيلك الذى فى داخل أبوابك ؛ لأن الله خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها فى ستة أيام ، واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارَك الربُّ يوم السبت وقدّسه . أكرم أباك وأمك ؛ لـكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلٰهك . لا تقتل . لا تزْنِ . لا تسرِق . لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشتهِ بيت قريبك . لا تَشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمَته ، ولا ثورَه ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك » .

(٣) سفر اللاويين[1] : ويبحث فى الأحبار ، والعـادات والقوانين الخاصة بالتضحية والقربان .

---

(١) Leviticus

(٤) سفر العدد[١] : ويبحث فى الشرائع ، وتاريخ بنى إسرائيل فى أثناء سفرهم فى البرية من سيناء إلى حدود موأب .

(٥) سفر التثنية[٢] : وفيه خُطَب سيدنا موسى للشعب ، وهو يعظ بنى إسرائيل ، ويأمرهم بالإيمان بالله وناموسه .

(ب) الأنبياء :

ينقسم قسمين : أحدهما خاص بالأنبياء الأول ، ويشمل تاريخ بنى إسرائيل من دخول يشوع[٣] فلسطين إلى أن هدم بختنصر ملك بابل المعبد ببيت المقدس ، وهم:

(١) يشوع : ويحتوى انتظار بنى إسرائيل ، وانقسام الأرض المقدسة .

(٢) القضاة[٤] : مدة القضاة بين موت يشوع وولادة صموئيل[٥] .

(٣) صموئيل : وهو كتابان: أحدهما خاص بتاريخ صموئيل وصول والقسم الأول من تاريخ داود ، والكتاب الآخر خاص بحكم داود .

(٤) الملوك : وهو كتابان ، ويحتويان موت داود ، وحكم سليمان حتى بدء النفى إلى بابل .

والقسم الآخر من الأنبياء خاص بالأنبياء الأخيرين ، وهم أشعياء ، ويوئيل ، وعاموس ، وعُوبَدْيا ، ويونس ، وميخا ، وناحُوم ، وحَبَقُّوق ، وصِفَنْيا ، وحَجَّى ، وزكريا ، ومَلَاخِى .

---

(١) Numbers (٢) Deuteronomy
(٣) Joshua (٤) Judges (٥) Samuel

(ح) المكتوبات :

تشمل المكتوبات مزامير داود ، وأمثال سليمان ، وتاريخ أيوب ، ونشيد الأناشيد ، وتاريخ راعوث ، ومراثى أرميا ، وحزقيال ، وتخريب بيت المقدس ، وسبى بختنصر ملك بابل لبنى إسرائيل ، وتاريخ دانيال فى أثناء النفى ببابل ، وعزرا ويشتمل على عودة اليهود من بابل بعد النفى وإعادة بناء بيت المقدس ، ونحميا .

التلمود

التلمود كتاب من أهم الكتب الدينية التى يعتمد عليها علماء بنى إسرائيل فى معرفة ما أثر عن موسى من السنن والحكم والمواعظ والإرشادات . وبه كثير من القوانين والبحوث الدينية العميقة ، وأحوال اليهود وأدعيتهم وفلسفتهم ، وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وقصصهم وتاريخهم .

والتلمود قسمان : أحدهما تلمود أورشليم [١] أو التلمود الفلسطينى ، والآخر التلمود البابلى [٢] . ويحتوى التلمود عنصرين : المتن والشرح ، ويسميان « المِشنا » ؛ أى ما يحفظ عن ظهر قلب . أما « الجمارا » فهى الحاشية ، وبها الشرح النهائى ، والحكم الأخير . وقد دوِّنت « المِشنا » باللغة العبرية القديمة ، وتشتمل على أحكام دينية خاصة . ودوِّنت « الجمارا » باللغة الآرامية ، وبها بحوث فقهية عميقة لبعض العلماء من الربانيين . وفى هذه الكتب الدينية تجد ديانة بنى إسرائيل ، وتاريخهم وآدابهم وشريعتهم وفقههم .

فى « المِشنا » تذكر المبادئ والقواعد بغير نقاش غالبا . وفى « الجمارا » توضح المناقشات ، وتوضع تحت الاختبار ، ويُذكر فيها الحكم الأخير .

---

(١) The Jerusalem Talmud (٢) The Babylonian Talmud

وفى « المِشنا » ستة عناصر وهى :

(١) البذور[١] : وهى قوانين تشير إلى الشئون الزراعية ، مسبوقة بقوانين عن عبادة الله .

(٢) الفصول[٢] : ويبحث عن الأعياد عند اليهود ، وعن يوم السبت ، وهو يوم الراحة عندهم ، ولهم فيه تقاليد خاصة .

(٣) النساء[٣] : وقد ذكر فيه بالتفصيل قوانين الزواج .

(٤) العقوبة : وتشتمل على التشريع المدنى والإجرامى ، والكلام عن الحكومة.

(٥) الأمور المقدسة[٤] : وهى بحث عن القربان والتضحية .

(٦) الطهارة[٥] : وهى بحث عن الطهارة والنجاسة ، والفرق بينهما .

فالقوانين المذكورة فى التلمود هى :

(١) القوانين التى استنبطت صراحة أو ضمنا من التوراة ؛ أى من الكتب الخمسة التى أنزلت على موسى .

(٢) القوانين التى منحها الله موسى وهو على جبل سيناء .

(٣) العادات والتقاليد التى كانت لدى بنى إسرائيل قديما فى العصر الذى نزلت فيه التوراة .

(٤) القوانين التى وضعها علماء بنى إسرائيل ، وأدخلت بعد عصر التوراة . والغرض منها الوعظ والإرشاد ، وتقويم الأخلاق ، والتأكد من إطاعة الأوامر الدينية ، ومنع الرذائل وسوء الظن .

(٥) المنهاج[٦] : وهى تمرينات دينية ، لم يعتمد فى وضعها على نصوص من التوراة ، ولكنها صارت كالقوانين المقدسة بطول استعمالها .

---

(١) Seeds (٢) Seasons (٣) Women

(٤) The Holy things (٥) Purity (٦) Custom

عصر نفى بنى إسرائيل فى بابل

لقد كان لنفى بنى إسرائيل إلى بابل أثر كبير وضربة قاضية على المملكة اليهودية، وأثر سيئ فى اللغة العبرية . ومن المبالغة أن نظن أن اللغة العبرية قد اختفت كل الاختفاء، وذهبت من الحياة العادية وقت النفى، أونظن أن اللغة الآرامية استعملت إذ ذاك بين اليهود جميعهم ؛ ففى الشرق حتى فى الجماعات الصغيرة كثيرا ما يتمسك الإسرائيليون كل التمسك باستعمال لغتهم العبرية ، وخاصة إذا كانت تلك الجماعات تمثل جماعة دينيـة ، فهم يحافظون على لغتهم ، ولو أحيطوا بقوم يتكلمون لغة غير لغتهم . وهكذا كانت الحال بين اليهود المنفيين إلى بابل ؛ فقد كانوا محافظين على لغتهم فى نفيهم محافظتهم على لغتهم فى بلادهم .

وكانت اللغة العبرية لغة للشعب الجديد بعد النفى بزمن ليس بالقصير فى عصر عِزرَا[1] ، ولكننا فى كتاب نِحِمْيَا[2] فى الآية الرابعة والعشرين من الإصحاح الثالث عشر نجد شكاية بأن أطفال اليهود الذين كانت أمهاتهم من أشدُود كانوا يتكلمون نصف كلامهم باللغة العبرية، والنصف الآخر بلغة أشدُود، أو باللغة التى كانت تنطق بها أمهاتهم ، أيا كانت تلك اللغة . ولا أحد يستطيع أن يظن أن نِحِمْيا كان حريصا على أن يحافظ أبناء اليهود على التكلم باللهجة الآرامية مع الدقة فى كلامهم ، وهو من غير شك يرجع إلى اللغة العبرية ويشير إليها كما كانت تتكلم فى ذلك الوقت[3] .

---

(١) Ezra (٢) Nehemiah

(٣) وهذا نص الآية الرابعة والعشرين : « ونصف كلام أبنائهم بلغة أشدود ، (لأنهم) لم يحسنوا التكلم بلغة اليهود . . . . »

حلول اللغة الآرامية محل اللغة العبرية

بعد عصر الإسكندر المقدونى استقرت جماعات كبيرة من اليهود فى الإسكندرية، وفى مدن أخرى أوربية. وأخذوا بسرعة يستعملون اللغة اليونانية القديمة. وفى أثناء ذلك كانت اللغة الآرامية اللغة الرئيسة فى سورية وما يجاورها، كما كانت لغة اليهود فى مصر. ومن السهل أن يرى أثر اللغة الآرامية فى بعض الكتابات التى كتبت قبل النفى إلى بابل. ثم أخذت الآرامية تنتشر انتشاراً كبيراً بين اليهود فى فلسطين، وانقطعت اللغة العبرية بالتدريج عن أن تكون لغة محادثة، ولكنها أصبحت لغة المدارس والدين. ويبتدئ كتاب دانيال الذى كتب سنة ١٦٦ أو سنة ١٦٧ ق. م. باللغة العبرية، ثم ينتقل فجأة إلى اللغة الآرامية، ثم ينتهى باللغة العبرية.

وبالمثل نجد فى سفر الأخبار وفى عِزْرَا انتقالاً من الآرامية إلى العبرية، ومن هذه إلى تلك. وفى الجزء الأخير من نَحَمْيَا استعير مقدار كبير من اللغة الآرامية. وليس هناك سبب يدعو إلى استعمال اللغة الآرامية فى الكتب العبرية التى كتبت مبدئيًا لبيت المقدس إلا إذا كانت اللغة الآرامية هى اللغة السائدة من قبل، فى حين أنه كان من الطبيعى جدًّا لليهودى التقى الدينىّ أن يكتب باللغة العبرية المقدسة حتى بعد أن انقطع التكلم بها.

وإننا نرى أن كتب إستر[1] وإكْلِسِيَاسْتز[2] وبعض المزامير التى يرجع

---

(١) Esther (٢) Ecclesiastes

عهدها الى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد قد كتبت فى الحقيقة باللغة العبرية ، لكنها متأثرة كل التأثر باللغة الآرامية . وهذا دليل واضح على أن الكتّاب كانوا يستسهلون فى العادة التكلم باللغة الآرامية . ومما لا شك فيه طبعاً أنه كان لا يزال هناك كثير من الكتّاب اليهود يستطيعون الكتابة والمحادثة معاً باللغة العبرية . فلا غرابة إذا وجدنا كتاب سِيرَاك[١] الذى كتب سنة مائتين قبل الميلاد تقريباً قد كتب ثلثاه على الأقل باللغة العبرية الخالصة . لكننا لا نخطئ إذا قلنا إن فى عصر المقّابِيِّين[٢] قد انقطعت اللغة العبرية بين اليهود عن أن تكون لغة حديث بينهم . وليس هناك شىء يدلنا على أن اللغة العبرية مكثت مدة أطول من تلك المدة بين أى أمة من الأمم المجاورة .

لكن فى العصور الأخيرة من تاريخ أورشليم أو بيت المقدس ، وبعد أن أباد « تيتَس[٣] » تلك المدينة المقدسة، قد لعبت المدارس اليهودية دوراً هامًّا جدًّا أحيت به أو أطالت حياة اللغة العبرية ؛ فالمحاضرات ، والمباحثات ، والمناقشات التى كان يقوم بها العلماء كانت باللغة العبرية. ولدينا أمثلة كثيرة من اللغة العبرية الحديثة فى المِشنا[٤]؛ وهو كتاب أحاديث اليهود ، وفى كتب أخرى وأجزاء متفرقة فى التلمودين البابلى والفلسطينى .

وتختلف اللغة العبرية القديمة التى كانت تستعمل فى الكتابة والمحادثة كثيراً عن اللغة العبرية الحديثة ، اختلاف اللغة العربية فى العصر الجاهلى مثلا عن اللغة

---

(١) Sirach

(٢) المقابيون : طائفة من اليهود القدماء، عرفت بالشجاعة والدفاع عن دين بنى إسرائيل قبل الميلاد بمائة وخمس وستين سنة . وتنسب إلى (يهودا المقابى) وسنتكلم عنه بإسهاب فيما بعد.

(٣) Titus (٤) Mishnah

العربية فى العصر الحاضر . وقد شعر علمـاء العبرية بهذا الفرق بين اللغة القديمة والحديثة ؛ فقد استعارت اللغة الحديثة جزءاً كبيراً من كلماتها من اللغة الآرامية ، وكان لهذا تأثير قوى فى القواعد العبرية ؛ فمثـلا الـكلمتان : (أبى وأمى) عبر عنهما بكلمتين آراميتين ، ولم يرغب العلماء منهم أن ينادوا آباءهم وأمهاتهم بأسماء أخرى غير الأسماء الآرامية التى اعتادوها فى الصغر منذ الطفولة ، فحورت القواعد بأسلوب خاص ، وضبطت الـكلمات بشكل غريب موجز منقط ، ومع أن نسبة الـكلمات الأجنبية كبيرة فى هذه اللغة الحديثة نجد أنها تحتوى عدداً كبيراً من العناصر العبرية الخالصة التى لم تذكر بالمصادفة فى العهـد القديم ، فالمِشْنا مملوءة بكلمات كثيرة من العبرية الحقيقية ، ولو أن فيها ألفاظاً استعيرت من الآراميـة ، ولا نجدها فى العهد القديم . وفى اللغة العبرية الحديثة مسائل لم تعرف فى اللغة العبرية القديمة .

المقابيون

فى سنة ١٦٥ قبل الميلاد كانت تعيش أسرة من الأسر المتمسكة بديانة بنى إسرائيل ، وعلى رأسها رجـل هرم يدعى « مَتَاثْيَاس [١] » له خمسة أبناء . وقد شعروا جميعا بالأسف الشديد ، والحزن العميق ؛ لما لحق الإسرائيليين فى ذلك العصر المظلم من الظلم والاضطهاد ؛ فهاجر هو وأبناؤه وكثير من بنى إسرائيـل - من بيت المقدس إلى جبال إفرايم [٢] ؛ حتى لا يجبروا على تغيير دينهم ، وعبادة الأوثان . وقد تمسكوا بعبادة الله على دين سيدنا موسى ، واضطروا أن يعيشوا فى المغارات بالجبال كالحيوان

(١) Mattathias (٢) The Mountains of Ephraim

الضال . وكانوا يعتمدون فى معيشتهم على مايجدونه فى الجبال من الغنم أو المعز أو جذور النبات أو الحشائش ، ويهاجمون أعداءهم من الجيوش السورية كلما أتيحت الفرصة لهم حتى أيام السبت ؛ دفاعاً عن أنفسهم ودينهم .

وقد مات الأب « مَتَاثْياس » بعد هـذا ، فحزن بنو إسرائيل على فقده حزنا شديدا . وقبل وفاته أوصى ابنه سيمون أن يكون مستشاراً للشعب ، وأوصى ابنه يهودا[١] أن يكون قائدا للشعب ، ويقاتل قتال الأبطال .

وقد عرف يهودا و إخوته بالمقَّابيين ، وعرف يهودا بالمقَّابى[٢] ؛ أى الضارب بالمطرقة . وقد اختلف العلماء فى تفسير معنى كلمة مقَّابى ؛ فمنهم من قال إن معناها الشجاع الضارب بالمطرقة، ومنهم من قال إن كل حرف منها رمز لـكلمة من الـكلمات التى نقشها يهودا على رايته الحربية ، ومعناها : « مَن مثلُك بين الآلهة يا الله ؟ »

وقد قاد يهودا المقَّابى تلك الفرقة الصغيرة من اليهود الشجعان الذين كانوا يقاتلون (أَنطيُوكَس[٣]) ملك سورية المعروف بالمجنون[٤] ، وتذكر وصية أبيه له ولإخوته قبل الوفاة بالدفاع عن التوراة ، وعن دين بنى إسرائيل ، ليخلدوا اسمهم مدى الحياة.

فـكلمة مقَّابيِّين تنسب إلى يهودا « المقابى[٥] » ؛ القائد الشجاع الذى انتصر على (أَنطيُوكَس) ملك سورية . ولا عجب ؛ فقد خلق يهودا ليكون قائدا شجاعا. وكان يقاتل دفاعا عن عقيدته وديانته بإيمان و إخلاص ، فانتصر على الجيوش السورية ثلاث مرات فى السنتين الأوليين من حروبه ، فاشتهر بالشجـاعة والبطولة بين بنى إسرائيل . و إليه ينسب المقابيون الشجعان من اليهود القدماء .

---

(١) Judas (٢) Maccabee (٣) Antiochus
(٤) The Madman (٥) Judas Maccabeus

اللغة العبرية فى القرون الوسطى

واللغة العبرية الحديثة

منذ ابتداء القرون الوسطى إلى العصر الحاضر ألف علماء اليهود عدداً كبيراً من المؤلفات باللغة العبرية ، وقد كانوا أحياناً يحاكون العهد القديم ، وآونة يحاكون لغة (المِشْنا) ، ومرة يذكرون عبارات كثيرة من العبارات الآرامية ،وأحياناً يتشبهون بالأسلوب العربى . وإن دراسة الفروق فى نظر الرجل اللغوى ليس لها إلا لذة قليلة ؛ فما هى إلا محاكاة سطحية تتوقف على مهارة الكاتب فى كتابته ؛ فلغة (المِشْنا) تصف الحياة الحقيقية لليهود. وتوضع اللغة العبرية فى العصور الأخيرة فى صف واحد مع اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى واللغة اللاتينية الحديثة .

وقد تحقق حلم الصهيونيين الذين يسكنون القدس فى جبل صهيون فى إحياء تلك اللغة العبرية مرة أخرى ، حتى صارت لغة حية تستعمل فى الكتابة والمحادثة ، والخطابة والتمثيل والتأليف ، فى فلسطين، بين الإسرائيليين فى الأرض المقدسة . وقد أنشئت فى السنوات الأخيرة جامعة عبرية فى القدس. ولا نبالغ إذا قلنا إنه يطبع هناك اليوم عدد كبير من الكتب العلمية والأدبية والفنية باللغة العبرية الحديثة .

واللغة العبرية الحديثة أسهل فى تركيبانها من اللغة العبرية القديمة . وهناك خلاف قليل بين القواعد فى اللغتين القديمة والحديثة . واللغة الحديثة أصلح للتعبيرات المحددة للأفكار ، الموضحة للمعانى ، وهى الآن تُعَدّ لغة حية تستعمل فى جميع الأغراض التى تستعمل فيها أى لغة أخرى، فى أى ناحية من نواحى الحياة . ولكن

العُلماء من الإسرائيليين لا يتقيدون بالألفاظ العبرية القديمة الصافية ، و لا يجدون بأساً من ترجمة الاصطلاحات العلمية والألفاظ الأجنبية من اللغات الأوروبية التى يتأثرون بها إلى اللغة العبرية الحديثة ؛ فلا عجب إذا وجدنا كثيراً من الألفاظ الإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية مكتوبة بحروف عبرية . ولم تستخدم اللغة العبرية فى المباحث العلمية قديماً . وقد فقدت اللغة العبرية كثيراً من القواعد التى لا تزال محفوظة فى اللغة العربية .

ومع تشتت بنى إسرائيل فى جميع أنحاء العالم منذ أن أسرهم بختنصر ملك بابل — قد حافظ علماء الدين منهم على اللغة العبرية فى معابدهم ، وحافظ معظم اليهود على تقاليدهم الدينية فى عباداتهم و بيوتهم ، وعاداتهم ومعيشتهم . وقد عرف الإسرائيليون بحب البحث والاطلاع ، والصبر الطويل . وهم يحتفظون لهم بأحياء خاصة بهم فى كل مدينة من مدن العالم . والطالب منهم يعمل فى أى ناحية من نواحى العمل ؛ لكسب عيشه نهاراً ، ويدرس ليلا .

الفصل الثالث

اللغـــة الفينيقية

قبل أن نتكلم عن اللغة الفينيقية نذكر كلمة عن فينيقية فنقول : —

فينيقية :

نال هذا الاسم من الشهرة قديماً ما لم ينله اسم سواه ، والراجح أنه مما استنبطه اليونان أو حرفوه . وكان يطلق على عامة ساحل لبنان ، ومد بعض المؤرخين حدود الجهات التى كانت تسمى به إلى ما بين مصر وكورة أنطاكية .

وفى أصل هذا الاسم احتمالات كثيرة ؛ فقد ظن (بوشار) أنه مشتق من لفظة « بنو عناق » ، وهم قوم من جبابرة الكنعانيين ، ولكنه لم يسق دليلاً على صحة رأيه ، فضلا عما بين الكلمتين من الفرق اللفظى الكبير .

وقيل إنه مشتق من (فنك) بمعنى عاش منعماً ، أو من (فنيتيم) ؛ أى الحجارة الكريمة أو المرجان ، وهذان الرأيان مردودان أيضاً ؛ لأنهما بغير سند ، فضلاً عن أن الفينيقيين كانوا كبقية الساميين ، إما أن يسموا أنفسهم كنعانيين باسم وطنهم العام ، وإما أن ينسبوا أنفسهم إلى قبائلهم أو مدنهم ، وهذا ينقض كل قول باشتقاق هذا الاسم من أصل سامى .

لذلك وجب البحث عن أصله فى كلام اليونان ، ولهؤلاء فيه آراء ؛ فقد ورد فى كلام (هُومير وهيرودوت) ، ولـكن المتقدمين كعادتهم فسروه بخرافة ، فقالوا إنه مشتق من فينقس أبى الفينيقيين.

وزعم أرسطو أنهم سموا بذلك بمعنى القتلة ؛ لقسوتهم فى معاملة السكان فى كل مكان يحتله تجارهم ، ولـكن التاريخ لا يؤيد هذا الزعم .

وقيل إن اسم الفينيقيين مشتق من (فِينِقس) أى النخل باليونانية ؛ لاشتهار هذه الجهات فى الزمن القديم بهذا الشجر ، ولأن المسكوكات القديمة كانت تتخذ النخل رمزاً إلى فينيقية ، وأن كثيراً من قدماء المؤلفين كانوا يعدون النخل من مميزات هذه الجهة .

وينقض هذا الرأى أنه لم يثبت أن الـكنعانيين اتخذوا النخل رمزاً فى الوقت الذى سماهم فيـه اليونان فينيقيين ، ولم يعرف على وجـه التحقيق : هل كان النخل عندهم سمة وطنية أو رمزاً دينيًا ؟ كما أن لبنان لا تختص بالنخل دون غـيرها ، بل تجاورها جهات أوفر منها نخلاً مثل أرض أدوم وشبه جزيرة العرب ، ومع ذلك لم تسم بلاد النخل .

ويستخلص من ذلك أن الفينيقيين لم ينسبوا فى تسميتهم إلى النخل ، وإنما نسب النخل إليهم ؛ لأن اليونان لم يروه لأول مرة إلا فى بلادهم .

وقال آخرون إن (فِينِقس) قد يراد بها الأحمر أو القرمزى أو الأرجوانى .

وزعم بعض المؤرخين أن الفينيقيين سموا بذلك بمعنى الحمر ؛ لاحمرار وجوههم ، كما سمى الزنوج سودانا لسواد ألوانهم ، ولـكن المشاهد أن هـذا الشعب لا تمتاز وجوه أفراده بالحمرة القانئـة حتى يستحقوا أن يسموا بهـذا الاسم ، بل يلاحظ أن الألوان القاتمة أكثر شيوعاً فيهم من الألوان الوردية .

وقيل إنهم سموا بذلك نسبة إلى لون طيالسهم القرمزية ، أو الأنسجة الأرجوانية التى كانوا يتجرون بها فى مدن الغرب ، فيكون معنى فينيقيين صباغى الأرجوان أو تجاره ، ولكن هذا الزعم مردود أيضاً ؛ لأن صنعة الأرجوان لم تكن عريقة القدم ، أو كثيرة الانتشار ، إلى الحد الذى يسوغ تسمية شعب باسمها ، كما أن الحكايات الدينية أثبتت أن الفينيقيين كانوا معروفين بهذا الاسم من قبل أن يحملوا بضائعهم إلى اليونان .

وقيل إن الفينيقيين سموا بهذا الاسم لأن بلادهم فى الشرق منبع النور والنار ، فى نظر اليونان الذين يصفون تولد النور بأوصاف مشتقة من معنى الأحمر ؛ فقد وصفوا الفجر بذى الأصابع الوردية ، والعجلات الأرجوانية . وكانوا يعتقدون أن الشمس عند مطلعها تبعث فى هذه الجهات أشعة شبيهة بالدم تلون الماء بلون أحمر ، ولذلك سمى البحر الأحمر بهذا الاسم . قال (أسطفان البيزنطى) : « عندما تبعث الشمس أشعتها على هذا البحر تنشر عليه ظلاً أحمر سمى البحر باسمه . » وقد كان هذا الاعتقاد سببا فى زعم بعض القدماء أن الفينيقيين كانوا فى الأصل من سكان سواحل البحر الأحمر ، ثم انتقلوا منها إلى جهات لبنان ، فسموا باسم البحر الذى غادروه .

ولكن هذا الرأى لا يستحق التعويل عليه ؛ لأنه مبنى على خيال تخيله شعراء اليونان ، لا على حالة طبيعية ثابتة ؛ فليس الفجر فى المشرق أوفر احمراراً منه فى المغرب ، ولا أشعة الشمس فى آسية أشد توردا منها فى أوروبة .

وقال بعض العلماء : إن فى اسم الفينيقيين إشارة للأب الأول « آدم » الذى

من معانى اسمه الدم والأحمر ، مستدلين بأن آدم فى العبرانية مشتق من أدَم أى احمرّ . ومن هذه المادة كلمة (دم) فى اللغات السامية .

ولكن العاقل لا يستطيع أن يتصور أن اليونان فى تلك العصور القديمة قصدوا هذه الدلالة عند إطلاقهم اسم الفينيقيين على اللبنانيين .

وزعم علماء الآثار المصرية أن اسم الفينيقيين مشتق من كلمة (پون) التى تطلق على البلاد العربية فى اللغة الهيروغليفية ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الفينيقيين كان يفرق دائماً بينهم و بين العرب .

والواقع أن جميع هذه الآراء السابقة لا تنقع غلة ، ولا تروى ظمأ الباحث عن الحقيقة ؛ فليس معقولاً أن اليونان عندما وصل إليهم هؤلاء التجار الغرباء اخترعوا لهم فى الحال اسماً من عندهم دون أن يسألوهم عن الاسم الذى يسمون به فى أوطانهم .

وقد أثر عنهم أنهم كانوا يلقبون الفينيقيين أحياناً صيدونيين وصوريين و إروادیين ، نسبة إلى المدن التى يقدمون منها مع شىء من التحريف .

ولهذا نرجح أن كلمة فينيق محرفة عن كلمة كنعانى . و إذا بدالنا الفرق بين اللفظين فى أول الأمر عظيما فإن ما ثبت من تغيير جُبيل بيبلوس يجعل تغيير لفظ الكنعانى بالفينيقى شديد الاحتمال ، ولا سيما مع معرفتنا أنهم كانوا يستثقلون الكلمات الأجنبية ، ويحرفونها بحسب ما تستحسنه آذانهم ، ويسهل على ألسنتهم . وقد أثبت «سنكن يتن» الكنعانى أن كنعان هو أول من سماه اليونان (فِينِقس) من غير أن يظهر أنهما اسمان مفترقان ، ولم يكن فى لغة اليونان القديمة اسم آخر للدلالة على

الكنعانيين ، ولم يخطر لهؤلاء أن فى تسميتهم بالفينيقيين خطأ من اليونان . وقد آل بهم الأمر أخيراً إلى استعمال هـذه التسمية كأنها اسمهم الحقيقى ، ولو أنه مشوه بالتصحيف والتحريف .

ومن هذا يتضح أن اسم الفينيقيين لم يكن فى الأصل إلا تحريفاً لاسم الـكنعانيين السامى .

اللغة الفينيقية تشبه اللغة العبرية

تشبه اللغة الفينيقية ـ التى هى لغة صور وصَيْدا ـ اللغة العبرية كل التشابه ؛ فهما من مصدر واحد، وأصل واحد . وترجع بعض نقوش الفينيقية أو حروفها إلى نحو ٦٠٠ سنة قبل الميلاد . وإن النقوش الفينيقية التى جمعت بعد أن كانت مبعثرة هنا وهناك لا تـكفى للعـلم بلغة من اللغات . وتحفظ تلك النقوش بمتحف باريس . ولم يكتب بهذه اللغـة كثير من المواد . ولم يذكر فى تلك النقوش أو الـكتابات الفينيقية أهم القواعد . وليس فيها كثير من الـكلمات المستعملة بكثرة فى الشئون العادية فى الحياة. ومن الصعب جدا فهم أسلوبها . وإن تـكرار العبارات والجمـل الغامضة فى المسألة الواحدة فى كثير من الـكتابات لا يساعد الباحث ولا القارئ على الفهم .

وتنسب تلك النقوش إلى الفينيقيين فى فينيقية وفى الجهات التى تجاورها مثـل قبرس ومصر واليونان ، وإلى الفينيقيين أيضا فى إفريقية ، وبخاصة سكان قرطاجنة القديمة التى حلت محلها الآن مدينـة تونس . ومن الصعب شرح عباراتها لـكثرة ما فيها من لبس وغموض . وتستعمل حروف العلة فيها نادرا . ومن الممكن الاستعانة بالـكتب الإغريقية أو اللاتينية التى شرحت بعض الـكتب الفينيقية وترجمتها.

ولو استعين بالإغريقية أو اللاتينية فى الفهم وجب الاحتراس ؛ لأن المترجمين أمثال «بلوتَس» لم يقصدوا الدقة والضبط فى الترجمة. ولم يستطع النساخ أن يفهموا ما كتب باللغة الفينيقية . فلا غرابة إذا ضاع كثير من مجهود « بلوتس » فى ترجمته لغة أهل قرطاجنة[1] إلى اللاتينية .

وتشبه قواعد اللغة الفينيقية قواعد اللغـة العبرية ، وتتفق اللهجتان : العبرية والفينيقية فى الحروف الصحيحة . أما حروف العلة فتختلف فى اللغة الفينيقية عنها فى اللغة العبرية ، ويكثر فى اللغتين ذكر « كان » الماضى للتعبير عن الزمن الماضى التام.

ومن الفروق الهامة بين اللغتين أن اللغـة الفينيقية لا تستعمل فيها الواو القالبة التى تقلب معنى الماضى إلى المستقبل ، والمستقبل إلى الماضى ، بخلاف اللغة العبرية ؛ فإن استعمال تلك الواو القالبة فيها كثير جـدا . وتشبه مجموعة الـكلمات الفينيقية مجموعة الـكلمات العبرية ، ولـكن الـكلمات النادرة فى العبرية كثيرة الاستعمال فى الفينيقية ؛ فمثلا كلمة « فَعَل » فى اللغة العربية هى « يَعَل » فى الفينيقية ، ولـكنها لم ترد فى العبرية إلا نادرا فى الشعر . وإن كلمة « ذهب » الواردة فى معظم اللغـات السامية يقابلها « حاروص » فى الفينيقية ، و « حُرَاص » فى الآشورية ، ولم تستعمل « حاروص » فى الشعر العبرى إلا نادرا . وهناك فرق بين اللغة الفينيقية القديمة ولغة المستعمرات الفينيقية ، لـكن لم يصل العلماء إلى نتيجة حاسمة تبين هذا الفرق .

---

(١) قرطاجنة : (Carthage) من ثغور المغرب الأدنى قرب مدينة تونس ، أسسها الفينيقيون سـنة ١١٣٧ ق . م. ولقرطاجنة أو قرطاجة تاريخ حافل بالحوادث مع رومة ، وقد طال النزاع بينهما ، حتى هدمها الرومان تخلصاً منهـا . والرومان هم الذين نحتوا اسم « قرطاجة » من اسم المدينة الفينيقى « قرط قاداشت » أى المدينة الجديدة .

وإن النقوش التى حدثت فى قرطاجنة فى القرن الأول قبل الميلاد قد كتبت بشكل غير واضح ، حتى صار من المستحيل على اللغوى أن يعرف مع التأكد الشكل الحقيقى للكلمات . وكانت اللهجة الفينيقية تستعمل لغة للمحادثة حتى سنة ٤٠٠ ق . م . وبعدذلك التاريخ بمدة طويلة فى تلك الجهات من إفريقية الشمالية التى كانت تنسب فيما مضى إلى قرطاجنة . ويبدو أن اللغة الفينيقية الأصلية قد قاومت اعتداء اللغة اليونانية عليها من جهة ، واعتداء اللغة الآرامية من جهة أخرى ، ولكن لم تجد هذه المقاومة فى النهاية .

أهمية اللغة الفينيقية :

وللغة الفينيقية أهمية خاصة من جهة حروفها الأبجدية ؛ فمن فينيقية أخذ اليونان القدماء حروفهم ، وعن اليونان أخذ الرومان حروفهم ، وعن اليونان والرومان أخذت الأمم الغربية حروفها الأبجدية .

وكانت الحروف الفينيقية تكتب من اليمين إلى اليسار ، ولما أخذ اليونان والرومان حروفهم من الفينيقيين كانوا فى البدء يكتبونها من اليمين إلى اليسار ، وبعد مدة من الزمن كتبوها من اليسار إلى اليمين . وكانت الحروف الأبجدية الفينيقية كبيرة تلائم الحفار أو النقاش أكثر من ملاءمتها لمن يكتب على ورق أو قطع من الجلد .

الفصل الرابع

اللغة الآرامية

تقرب اللغة الآرامية من اللغة العبرية الفينيقية ، ولكنْ هناك فرق واضح بين اللغتين . ولا يعرف بالضبط الموطن الأول للغة الآرامية . وقد ذكرت فى العهد القديم « آرام » . وآرام هو آخر أولاد سام ، وأطلق هذا الاسم على معظم لبنان وسورية وما بين النهرين ؛ لأن هذه الجهات كانت فى قسمه على الأرجح . وظل أولاد آرام يسمون آراميين إلى أوائل التاريخ المسيحى . وقد أطلق الكتاب المقدس هذا الاسم على البلاد الواقعة فى الشمال الشرقى من فلسطين إلى ما بين النهرين وآشور ، أما فى النسخة اللاتينية واليونانية فقد ترجم بلفظ سورية ، غير أن هذا الاسم الذى ذاعت شهرته قديما قد اضمحل بعد غارة اليونان على الشرق ، ثم ذهب عند ظهور النصرانية .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يزال محفوظا فى اسم أرمينية، ترجيحا لنسبتها إلى بعض قبائل آرامية احتلتها حوالى القرن السابع قبل المسيح ؛ إذ كانت تسمى قبل ذلك أراراط أو أُورَرْتى . وقد ورد هذا الاسم فى أشعار (هومير وهسيود) وغيرهما من المؤرخين اليونانيين ، وخصصه بعضهم بالسوريين تخصيصا صريحا ، ثم تنوسى

هذا الاسم بالتدريج حتى عند الآراميين أنفسهم . وصارت كلمة آرامى مرادفة للوثنى عند المتدينين ، إلى أن محاها الفتح العربى محوا تاما ، وحجبتها عن الأسماع أسماء الفرق النصرانية والإسلامية الكثيرة .

وقد انتشرت اللغة الآرامية بالتدريج فى سورية و بلاد دجلة والفرات . وكانت تلك البلاد من قبل ملكا للحيثيين على الأرجح ؛ وهم قوم ليسوا من الساميين . و بعد أن كانت فلسطين تسكنها القبائل الكنعانية أصبحت آرامية ، وصار الناس يتكلمون الآرامية فى سورية ، وفى فلسطين ، وعلى شواطئ نهر الفرات ، وفى جميع جهات نهر دجلة فى الجنوب ، وفى الغرب من جبال أرمينية وكردستان .

وكان معظم السكان من بابل وآشور من الآراميين من قديم الزمان حتى فى الوقت الذى كانت اللغة الآشورية فيه لغة الحكومة. وتحتوى اللغة الآرامية القديمة على حروف ونقوش كتبت على أشياء أثرية وموازين وجواهر . وحديثا قد كشف فى سورية نقش للملك « حاماث زاخور » وهو من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد . وقد وجدت نقوش أخرى فى حفريات فى أقصى شمال سورية لا تقل أهمية عن الكشف السابق ، وترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد أيضا . وقد كتب معظم هذه النقوش والحفريات باللغة الآرامية ، وكتب قليل منها باللغة العبرية .

و يظهر من تلك الآثار أن اللغة الآشورية كانت مسيطرة على اللغة الآرامية ؛ أى أن اللغة الآرامية كانت متأثرة بها كل التأثر . و إن استعمال الواو القالبة التى تقلب معنى المستقبل إلى الماضى ومعنى الماضى إلى المستقبل فى نقوش الملك « حاماث » دليل ساطع على أن اللغة العبرية قد أثرت أيضا فى اللغة الآرامية القديمة ؛ فإن هذه الواو لم تعرف إلا من العبرية فى ذلك الوقت . وقد تشعبت اللهجة الآرامية والنطق

الآرامى فى العصر اليونانى . وفى عصر الفرس كانت اللغة الآرامية هى اللغة الرسمية بالجهات الغربية من نهر الفرات . ويوضح تلك الحقيقة أن العملة التى سكها الحكام والأمراء فى آسية الصغرى تحمل نقوشا آرامية كان يقوم بنقشها فى بعض الأحيان مهرة الفنيين من اليونان ، فى حين أن النقوش فى النقود الأخرى كانت يونانية . ولا يبرهن هذا طبعا على أن اللغة الآرامية كانت لغة الحديث والتخاطب فى آسية الصغرى .

وقد عثر فى مصر على بعض نقوش آرامية من عصر الفرس سنة ٤٨٢ ق . م. كما عثر على بعض صكوك رسمية وقطع أخرى كتبت باللغة الآرامية على ورق البردى فى تلك المدة . ولسوء الحظ كانت ممزقة بالية ، وفى حالة لا يمكن ترجمة شىء منها . وقد كشفت أخيراً مجموعة كبيرة من الصكوك فى حالة جيدة عن القرن الخامس قبل الميلاد فى صعيد مصر ؛ فقد كانت الكتابة باللغة الهيروغليفية محرمة على المتعلمين من المصريين ؛ فكان المصريون حتى الفقراء منهم يستخدمون اللغة الآرامية ، والكتابة الآرامية . ولسنا فى حاجة إلى أن نشك فى أن كثيرا ممن هاجروا إلى مصر من سورية كانوا يتكلمون اللغة الآرامية ، كما كان يتكلمها اليهود فى مصر ، وأن اليهود الذين أتوا إلى مصر قبل عصر الفرس كثيراً ما كان يشار إليهم فى الصكوك بأنهم كانوا يعاملون معاملة الآراميين . وفى سفر التثنية « Deuteronomy » فى الآية السادسة عشرة من الإصحاح السابع عشر ، قد باع ملك اليهودية اليهود إلى ملوك مصر الذين قد حصلوا على كثير من الجنود من الأقطار الأجنبية فى ذلك الوقت ، بدلا من أن يستخدموا جنوداً من المصريين . وقد أرسل ملك سورية أيضاً جنوداً إلى مصر ، ومنهم تعلم اليهود اللغة الآرامية ، فلم تكن اللغة الآرامية اللغة الرسمية فحسب ، بل

كانت لغة المحادثة أيضاً بين اليهود والسوريين . ويتضح هذا من الكتابة التى عثر عليها بالآرامية اليهودية . فلا غرابة إذا رأينا أن الصكوك الآرامية المصرية تبين لنا تأثير اللغة العبرية والفينيقية فى اللغة الآرامية .

وفى الإمبراطورية الآشورية كان الفرس يفضلون اللغة الآرامية ؛ فقد كان يتكلمها معظم السكان . ولهذا يمكننا أن نفهم السبب فى أن كل موظف آشورى مثقف كان يمكنه أن يتكلم الآرامية (ارجع إلى القسم الثانى من الملوك ، الإصحاح الثامن عشر آية ٢٦[1]) . وللسبب عينه قد تعلم أمراء يهودا وأكابرهم اللغة الآرامية ؛ كى يتصلوا بالآشوريين . وقد عثر على قليل من النقوش الآرامية القديمة فى بلاد العرب فى واحة « تيمة » فى شمال الحجاز . وقد كتبت تلك النقوش الأثرية قبل عصر الفرس . ويمكننا أن ندعى أن اللغة الآرامية قد وصلت إلى تلك الجهة بأولئك التجار الذين ذهبوا بتجارتهم إلى الحجاز ، فعاشوا واستوطنوا تلك الجهة التجارية القديمة ، وكان أثر ذلك أن اللغة الآرامية قد بقيت مدةً اللغة الأدبية للعرب القريبين من آرام .

تقسيم اللغة الآرامية :

اللغة الآرامية قسمان : آرامية غربية ، وآرامية شرقية ، فالآرامية كان مهدها الأصلى شبه جزيرة العرب ، ثم نزحت إلى الشام ، وانقسمت قسمين كبيرين ،

---

(١) وهذا نصها : « فقال أليا قيم بن حلقيا وشبنة ويوآح لرَبْشاقى : كلم عبيدك باللغة الآرامية لأننا نفهمها ؛ ولا تتكلم معنا بلغة اليهود فى مسامع الناس الذين على السُّور » .

فذهب قسم منها إلى الغرب فى بلاد الشام وهى الآرامية الغربية ، ويتفرع عنها لغة اليهود المتأخرين ، ولهجة تدمر ، ولغة النَّبَطْ ، ولغة السامريّين . ثم ذهب القسم الآخر إلى الشرق فى بلاد العراق ، وهى الآرامية الشرقية ، ويتفرع عنها لغة اليهود فى بابل ، واللغة السريانية .

ومن نصوص الآرامية الغربية : « دانيال » و « عزرا » و « الترجوم » و « التلمود الأورشليمى وهو الفلسطينى » .

ومن نصوص الآرامية الشرقية: « التلمود البابلى » ، و « اللهجة المَندعية » لبعض الوثنيين ، واللغة السريانية : وهى لغة المسيحيين من اليعقوبيين والنسطوريين .

الآرامية القديمة

إن ما عثرنا عليه من اللغة الآرامية فى العهد القديم يبين لنا اللغة التى كان يستعملها اليهود فى فلسطين . وفى كتاب « عِزرا[1] » قطع متفرقة ربما تنسب إلى عصر الفرس ، كما أن فيه قليلا من العبارات القديمة التى لا وجود لها فى كتاب « دانيال » . وللقطع الآرامية التى فى العهد القديم فائدة كبيرة من حيث الشكل والضبط واللغة . ولو أن هذه القطع لم تدرج فى العهد القديم إلا بعد أن كتبت تلك الكتب ، وهى تختلف أحيانا عن الأصل .

---

(١) ارجع إلى عزرا ، الآية الثانية عشرة من الإصحاح السابع .

وتشبه اللغةُ الآرامية القديمة اللغـةَ السريانية كل الشبه ؛ من حيث الألفاظ والعبارات ، والنطق والقواعد . ولا تزال الآرامية فى العهد القديم تبين لنا أوجها قديمة مختلفة من حيث القواعد ؛ فالمبنى للمجهول يغير فيه شكل الفعل ، ويغير الفعل السببى بزيادة « ها » فى أوله بدلا من « آ » .

وكانت اللغة الآرامية القديمة منتشرة قبل ميلاد المسيح . وكانت تعد فى ذلك الوقت لغة الثقافة والـكتابة حتى بين الأشراف من العرب ؛ فـكانت تحل محل اللغة العربية واللغة الإغريقية فى كثير من الأقاليم . وكثيرا ما نقش البدو من العرب فى شـبه جزيرة سيناء أسماءهم باللغة الآراميـة على الصخور ، وأضافوا إليهـا بعض العبارات والأدعية باللغة الآرامية .

ومن الممكن أن نصف اللغـة الآرامية القديمة التى استعملت فى العهد القديم بأنها أقدم لهجة للآرامية الغربيـة ، وهى لغة الصراصرة ، وهى مملـكة قريبة من دمشق كانت تسكن تلك الجهة فى القرن الثالث من الميلاد . وإن الرأى القائل بأن يهود فلسطين أتوا بلهجتهم الآرامية من بابل رأى محكوم عليه بالخطأ .

اللغة الآرامية فى الترجوم وغيره

التَّرجوم هو العهد القديم المترجم من اللغة العبرية إلى اللغة الآرامية . وبقراءة هذا الترجوم يمكننا أن نرى أثراً لتغير اللغة الآرامية الغربية فى فلسطين ؛ ففى المجامع الدينية لليهود كان من الضرورى أن يقرأ العهد القديم أولًا ، ثم تتبع تلك القراءة بترجمة شفوية لما يقرأ من العهد القديم إلى اللغة الآرامية ؛ لغة اليهود فى ذلك العصر. ولكن الشكل الذى صودق عليه رسميا لترجوم « أُنكِلُوس[1] » وترجوم الأنبياء لم ينته حتى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد إلا فى بابل لا فى فلسطين . وقد حافظ الكاتبون للترجوم على اللهجة الفلسطينية القديمة ، ومع هذا فإن اللهجة الآرامية البابلية التى تختلف كثيرا عن لهجة فلسطين قد أثرت فى اللهجة الفلسطينية كل التأثير حتى أفسدتها ، وقد ضبط كتاب الترجوم فى بابل . ومع أن الترجمة قد وضعت بكل عناية ودقة لا يمكن الوثوق بها تماما كما يوثق بالقطع الآرامية التى فى العهد القديم . وتختلف لغة ترجوم « أُنكِلوس » وترجوم الأنبياء — وبعبارة أخرى ترجوم « يوناثان[2] » — قليلا عن اللغة الآرامية القديمة ؛ لغة العهد القديم فى بعض كتبه . وتظهر اللغة الآرامية التى كان يتكلم بها يهود فلسطين فيما بعد — وبخاصة اليهود فى الجليل — فى كثير من الكتابة التلمودية التى كتبها الآباء القدماء فى التلمود المسمى بترجوم أورشليم ، وفى الكتابة المدراشية والأحاديث اليهودية . ولسوء الحظ لم تصلنا كل الكتب التى منها المدراشيم والتلمود ، والتى تحتوى كثيرا من اللغتين العبرية والآرامية بدقة وعناية.

---

(١) Onkelos (٢) Jonathan

ولذا يحتاج الباحث اللغوى إلى أن يكون حريصاً كل الحرص ، محترساً كل الاحتراس ، حينما يبحث فى هذه الكتب من الناحية اللغوية . وفضلا عن هذا فقد كان للغة القديمة وطريقة ضبط الكتابة أثر فى جعل هذه اللهجات غامضة ، فيها بعض اللبس أحياناً ؛ فهناك كثير من حروف الحلق تكتب ولا تنطق الآن . وفى تلمود أورشليم يستعمل الهجاء على حسب النطق الحقيقى فى كثير من الأحيان . ومع ذلك فهذه الكتب غير مضبوطة ، وهذا يساعد على الغموض واللبس . وقد حاول بعض علماء اللغة حديثاً استعمال الكتب المذكورة وسيلة لإعادة الكتابة واللهجة التى كان يتكلم بها يسوع المسيح ، ووسيلة لمعرفة نطق يسوع فى الجليل ، وليس هذا بالعمل السهل ، ولكنه عمل شاق لا يخلو من المخاطرة. ومن الصعب أن يعرف بالضبط مقدار ما ظهر من اللغة الجليلية لغة الجليل فى الكتب اليهودية .

اللهجة الآرامية المسيحية فى فلسطين :

ليس اليهود فقط هم الذين حافظوا على لهجتهم الوطنية ، بل حافظ المسيحيون أيضاً من أهل فلسطين على لهجتهم الآرامية مدة لا بأس بها ، فكانت تلك اللهجة لهجة للأدب والدين بين المسيحيين من فلسطين . وهناك تراجم للإنجيل وكتب دينية أخرى بهذه اللهجة . وقد قام بالترجمة المسيحيون من فلسطين . ويرجع تاريخ ترجمتها وكتابتها إلى القرن الخامس بعد الميلاد ، وقد أضيف إلى هذه الترجمة فيما بعد بعض الحركات وعلامات الوقف . وتشبه تلك اللهجة المسيحية الفلسطينية كل الشبه لهجة اليهود من فلسطين . ولا غرابة ؛ فقد كان هؤلاء المسيحيون من فلسطين من اليهود قبل اعتناقهم الديانة المسيحية ، فكانوا يتكلمون باللغة الآرامية قبل ترك اليهودية واعتناق النصرانية .

اللهجة السامرية

هى لغة السامريين من سكان فلسطين الذين كانوا يسكنون بلدة « سامرة » وتسمى الآن نابلس ؛ فقد ترجم هؤلاء السامريون كتابهم المقدس الوحيد وهو توراة موسى إلى تلك اللهجة السامرية ، ولا تزال هذه النسخة مكتوبة باللغة السامرية . ولا يعرف بالضبط الوقت الذى كتبت فيه التوراة ، أو الكتب الخمسة التى أنزلها الله على موسى — باللغة السامرية . وهناك أخبار ورسائل عربية كتبت بحروف سامرية. وفى نابلس وهى « سامرة » قديماً قطع كتبت باللغة السامرية. ويقال : إن فى القاهرة قطعاً أخرى كتبت بالسامرية ، وإن النقود التى كان يستعملها المقابيون من بنى إسرائيل نقشت بحروف سامرية ، وإن معظم من كانوا يتكلمون اللغة السامرية كانوا من قبيلة إفرايم .

والحروف الأبجدية للغة السامرية أقدم من حروف اللغة العبرية ، وتشبه الحروف الفينيقية .

ودراسة هذه الترجمة للكتاب المقدس بدقة تدل على أن اللهجة السامرية تشبه اللهجة الآرامية ؛ لهجة اليهود والمسيحيين من فلسطين كل الشبه ؛ فهم جيران لهم . وقد حاول هؤلاء السامريون الزخرفة فى لهجتهم وتحسينها بإدخال أشكال استعاروها من الأصل العبرى ، فأدى ذلك إلى الفكرة الباطلة التى تقول: إن اللهجة السامرية خليط من العبرية والآرامية . وقد استعار النساخ الذين عاشوا فى السامرة بعد انقراض اللغة الآرامية واندراس آثارها — كلمات من اللغتين العبرية والعربية — وأدخلوها فى لهجتهم ، ولم يترددوا فى أخذ عبارات واصطلاحات من هاتين اللغتين ، ووضع كثير منها فى لغتهم .

وإن الكتب التى كتبت بعد ذلك باللهجة السامرية لا قيمة لها من الناحية اللغوية ؛ فإن الكتّاب الذين كتبوا هذه الكتب كانوا لا يجيدون اللهجة السامرية ولا يعرفونها إلا نصف معرفة ؛ فقد كانوا يتكلمون العربية لا السامرية .

وتتفق هذه اللهجات الآرامية كلها فى أن صيغة الفعل المستقبل ـ للمفرد الغائب المذكر، وجمع الغائب المذكر، وجمع الغائبة المؤنثة ـ تبدأ بالنون فى أوله، بخلاف اللغات السامية الأخرى ، فإنها تبدأ بالياء فيها. وفى تلك اللهجات تنتهى الأسماء بالحرف « آ » للدلالة على التأكيد ، ولو أنها كانت تفيد التعريف من قبل . وفى القرن السابع الميلادى قلت انتصارات المسلمين من شأن اللغة الآرامية ، ثم حلت اللغة العربية محلها بالتدريج بعد ذلك ببضعة قرون ، أما المسيحيون فى سورية[1] وفلسطين

---

(١) قال (ديشانوبريان) : كان اليونان يفسدون الحروف الهجائية عند النطق بها ؛ إذ كانت آذانهم تنفر من الكلمات الثقيلة ، وتستأنس بالكلمات الرقيقة ، فكانوا إذا نقلوا الأسماء الأجنبية إلى لغتهم لم يلتفتوا إلى طريقة لفظها عند أهلها ، بل نطقوا بها على حسب ما تستحسنه آذانهم ، ويسهل على ألسنتهم . وكان تحريفهم للألفاظ الآرامية والكنعانية فى غاية الغرابة ، ولم يقتصروا على التبديلات الهجائية ، بل نسخوا نسخاً تاما كثيراً من الأسماء السامية وخصوصاً فى لبنان ، ووضعوا مكانها أسماء جديدة كانت مجهولة فى أول أمرها عند سكان البلاد أنفسهم ، ثم أخذوها عن اليونان لما كان لهم من السلطان والنفوذ الواسع ، وبقى أكثرها إلى الآن . وأول من سمى الآراميين بالسوريين اليونان ، وبسبب انتشار لغتهم صار هذا الاسم معروفاً ، واشتهر فى العالم كله .

ومع أنه كان شائعاً إذ ذاك بين اليونان فإن الآراميين والساميين كانوا يجهلونه ، ولم يوقف له على أثر بين الشعوب الآسيوية فى ذلك العهد . إلا أنه بعد انتصار الإسكندر تغلب اسم السورى على الآرامى شيئاً فشيئاً حتى محاه من الوجود .

وفى تعليل هذه التسمية أقوال :

منها أن الأشوريين لما فتحوا بلاد آرام وكنعان امتد اسمهم إلى آخر حدود سلطنتهم ، ثم أرادوا التفريق بين بلادهم آشور (أسورية) الحقيقية وجهات آسية التى فتحوها ، فسموا هذه (سورية) بحذف المقطع الأول ، ولكن هذا التعليل غير مقبول ؛ لأن كلة آشور ليست مما يقبل التجزئة عند الساميين ، فيجب أن ينسب هذا التغيير إلى اليونان دون غيرهم . ومما يؤيد هذا أن كتابهم فى القرون المسيحية لا يفرقون بين سورية وأشورية .

وقيل إن هذه التسمية نسبة إلى (صور) المدينة المعروفة على ساحل لبنان ؛ فقد كانت معروفة =

فكانوا كغيرهم من السكان فى ذلك الوقت يتكلمون اللغة العربية ، وبذلك ذهبت أهمية اللهجة الآرامية الفلسطينية فى حديثهم . وفى الوقت الذى كانوا يتكلمون فيه اللغة العربية كانوا يتخذون اللغة السريانية وهى لغة المسيحيين الآخرين فى إدِسَّا[1] لغة لكتبهم الدينية واللاهوتية . وإن الجهات الوحدة التى لاتزال بها اللهجة الآرامية الغربية هى بضع قرى فى لبنان . وتخالف هذه اللهجة الآرامية الغربية اللغة الآرامية القديمة كثيراً . وما زال اليهود فى نابلس يستعملون اللهجة السامرية فى معابدهم الدينية .

= عند الإغريق ، فسموا هذه الجهة سورية نسبة إليها ، ولم يقولوا (صورية) لأنه لاصاد عندهم ، ولم يقصدوا به المملكة الصغيرة التى كانت هذه المدينة عاصمة لها ، بل أطلقوه على جميع الجهة الجنوبية من آسية البحرية ؛ إذ امتد سلطان هذه المدينة على هذه الجهات ، ولما اتسع علمهم بنواحيها الفسيحة قسموها إلى إقليمى : سورية وفينيقية ، ويبطل هذا أن اليونان أفردوا فينيقية دائماً عن بقية آسية ، وجعلوا قاعدتها صيدا .

وقال بعض علماء الآثار المصرية إن اسم سورية مشتق من (خار) التى صادفها طموطيمس الأول عند خروجه من مصر ، ولكن هذا بعيد عن الاحتمال ؛ لأن اسم (خار) لم يعرفه الأسيويون قط ، وإبدال الخاء بالسين والألف بالواو لا يقبله العقل .

ويتضح مما سبق أن أصح الأقوال أن اليونانيين أخذوا اسم سورية من أشور مخففاً ، وأطلقوه على الجهات المسماة به ، وشاعت هذه التسمية فى جميع اللغات باتساع نفوذهم ، وانتشار لغتهم .

(١) ويسميها اليونان إدسا (Edessa) ويسميها السريان أرهى (Orhai) ، وهى مدينة الرها عند العرب ، وتقع شمالى حران ببلاد العراق ، وبها مدرسة إدسا النسطورية التى اشتهرت باللهجة السريانية الإديسية ، لهجة التحرير والتأليف ، وإليها ينسب يعقوب الإديسى الذى اشتهر بإبان الإسلام بترجمة الفلسفة اليونانية إلى السريانية . وقد عاش من سنة ٦٤٠ م إلى سنة ٧٠٨ م .

اللهجات البابلية المندعية

تظهر اللهجة الآرامية ـ لهجة بابل ـ من القرن الرابع الميلادى إلى القرن السادس فى التلمود البابلى . والتلمود هو مجموعة شرائع اليهود وتفسيراتها. وفى هذا التلمود كما فى تلمود أورشليم أوفلسطين قطع بالآرامية والعبرية اختلط بعضها ببعض . وبعد القرن السادس ظهرت فى غير بابل ـ كتابات تنسب إلى طائفة غريبة وهى طائفة المندعيين ، وهم غريبون فى مذهبهم الدينى؛ لأنهم بين المسيحيين والوثنيين ، وليسوا بالمسيحيين أو الوثنيين ، ولكنهم يعتنقون ديانة تضم أشتاتا من المسيحية وأخرى من الوثنية . أما من الوجهة اللغوية ، فإنهم لم يتأثروا بسيطرة اللغة العبرية ونفوذها ، ذلك النفوذ الذى يظهر ويمكن أن يلمس فى الكتابة الآرامية التى كان يكتبها اليهود والمسيحيون ، فهؤلاء المندعيون كانوا فى عزلة ، فلم تؤثر اللغة العبرية فى لهجتهم . وضبط الكتابة عندهم أقرب من ضبط كتابة التلمود من حيث النطق الصحيح . وهناك تشابه كبير بين اللهجة المندعية ولغة التلمود البابلى . وسرعان ما قضت اللغة العربية ـ لغة المسلمين الفاتحين ـ على لغة بابل ، كما قضت على لغة سورية . وقد انقرضت اللهجة المندعية تمام الانقراض منذ قرون طويلة مضت .

خواص اللغة الآرامية

كثيرا ما توصف اللغة الآرامية بأنها لغة فقيرة ، ولكن « نُولْدِكه » العالم المستشرق الألمانى الكبير لا يقبل هذا الرأى ، ولا يوافق عليه ، ولا يأخذ به ؛ فمن الممكن جدا حتى اليوم أن نستخلص مجموعة لغوية كبيرة من الكلمات الآرامية القديمة . ومع هذا فإن الكتب الدينية التى كتبت باللغة الآرامية لم يحفظ فيها إلا جزء من الألفاظ التى كانت مستعملة فى تلك اللغة قديما .

حقا إن اللغة الآرامية قد استعارت كثيرا من الكلمات من اللغات الأجنبية التى كانت تتصل بها فى العصور القديمة ، فى أى ناحية من النواحى اللغوية أو الاقتصادية أو السياسية ؛ فقد استعارت بعض الألفاظ من اللغة الآشورية ، ثم من الفارسية ، والإغريقية . ولو تجاهلنا هذه الحقيقة وهى : أن كثيرا من المؤلفين السريانيين قد اعتادوا استعمال عدد كبير من الكلمات الإغريقية للزخرفة فى اللغة الآرامية ، أو لسهولة استعمالها فى الترجمة ـ لوجدنا أن نسبة الكلمات الأجنبية حقيقة فى الكتب الآرامية القديمة أقل كثيرا من نسبة الكلمات اللاتينية المستعملة فى اللغة الألمانية أو الهولندية . وإن تأثير اللغة الإغريقية القديمة فى قواعد اللغة السريانية وأسلوبها واصطلاحاتها أقل من تأثير اللغة اللاتينية فى اللغات الأوروبية الحديثة ؛ فالتركيب اللفظى للتعبير الإغريقى يخالف روح اللغة الآرامية كل المخالفة .

واللغة الآرامية القديمة أفقر من اللغتين العربية والعبرية . وتتفق اللغة الآرامية القديمة مع اللغة السريانية فى الحركات والنطق والحروف ، كما تتفق مع اللغة المندعية ،

مما يدل على أن تلك اللهجات الآرامية والسريانية والمندعية أثرية قديمة فى حروفها وحركاتها . وهناك آثار تدل على أن اللغة الآرامية القديمة كان فيها حركات كثيرة ، وعلى أن الآراميين ـ الذين قاتلهم داود ـ كانوا ينطقون بحركات كثيرة قد اختفت فيما بعد .

ومن خواص اللغة الآرامية أنها أكثر استعدادا من اللغتين العربية والعبرية لوصل جملها بعضها ببعض ؛ ففيها كثير من حروف العطف ، وكثير من الظروف للتعبير عن أقل التغييرات فى المعنى ، وهى حرة غير مقيدة فى ترتيب الكلمات . وإن هذه الحرية فى اللغة الآرامية تجعل الأسلوب فى النثر واضحا جليا ، وهذا أثر من آثار اللغة الإغريقية فيها .

ويبدو من الأسلوب الآرامى ـ عند التعبير عن شىء من الأشياء ـ المبالغة والإسهاب والإطناب فى الكلام ؛ فكثيرا ما تكرر الضمائر وأسماء الإشارة .

ويدعى بعض اللغويين أن الآرامية لغة النثر ، وأن العبرية لغة الشعر . وهو ادعاء يدعو إلى العجب ؛ فقد كان لدى الآراميين عاطفة شعرية ومواهب فى الشعر لا تقل عن مواهب العبريين فيه ، ولو أن الشعر الدينى للآراميين خال من الروعة والتأثير فى نفس القارئ ، وقد استكشف فى اللهجات الآرامية الحديثة أغان محبوبة لدى الجمهور ، وهى سهلة مملوءة بالشعور ، يصور فيها الشعراء مايشعرون به ، فليس بغريب أن نقول : إن اللغة الآرامية فى العصور القديمة كانت لاتخلو من قصائد ، فيها روعة الشعر ، وجمال الخيال ، ولكنها انقرضت فنسيت كل النسيان .

اللغـــة السبئية

كانت هناك مدنية وحضارة قبل الإسـلام فى الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب . وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه المدنيات العربية القديمة . وكلما زادت معرفتنا ببلاد سبأ قديماً ، والسبئيين وعماراتهم ومبانيهم ، استطعنا أن نفهم نقوشها وآثارها التى كشف عدد كبير منها ، وسهل علينا أن نقدر الجمال القصصى والخرافة القصصية التى كان السبئيون يميلون إليها .

وكان لأهل سبأ نقوش وحروف خاصة بهم ، ظهرت قبل الميلاد المسيحى بمدة ليست بالقصيرة ، واستمرت حتى القرن السادس الميلادى . وقد سمى بعضهم لغـة سبأ باللغة الحميرية . ويرى « نُولْدِكه » أن هـذه التسمية ليست بصحيحة . وقد لوحظ فى أسلوب اللغة السبئية الميل إلى الإيجاز . وتحتوى معظم النقوش السبئية التى عثر عليها حديثاً أموراً دينية كهنوتية خاصة وضعت بأسلوب الـكهنوت . وفيها نرى صيغة التعدية بزيادة (هَا) فى أول الفعل كما فى اللغة العبرية ، وضمير المفرد الغائب المذكر فيها هو هاء مضمومة (هُ) . وهنـاك لهجة أخرى تعبر عن الفعل المتعدى بزيادة (سَا) فى أول الفعل وهى تطابق شَفْعِل فى اللغتين الآرامية والسريانية .

فاللغة السبئية هى إحدى اللهجات المشهورة للعربية الجنوبيـة القديمة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب . وينسب السبئيون إلى سبأ . وهى مدينة كانت بقرب موقع صنعاء باليمن ، بناها عبد شمس بن يشجب من ملوك حمير . وكانت الحروف السبئية والنقوش السبئية معروفة قبل عصر سيدنا محمد بمدة طويلة .

الفصل الخامس

اللغة السريانية

هى إحدى اللغات السامية الشمالية (العبرية والآرامية والسامرية والموأبية والفينيقية والسريانية) . وأما اللغات السامية الجنوبية فأهمها اللغة العربية ثم الحبشية .

اللغة السريانية فى الرُّها[1] :

اللغة السريانية هى أقرب اللغات السامية إلى اللغة الآرامية، بل هى فرع منها، وهى لغة السريانيين القدماء الذين كانوا يقطنون بلاد الشام[2] والجزيرة والعراق

(١) الرها فى شمال ما بين النهرين : دجلة والفرات ، بين الموصل والشام . وهى باليونانية (Edessa) إدسا ، وبالآرامية أرهوئى ، كانت لها شهرة عظيمة فى الحضارة ، وتعد عند النصارى من المدن المقدسة ، فتحها عياض بن غنيم سنة ١٧ هجرية . واسمها الآن (أورفا) وهو اسم تركى، وفيها جامع ينسب إلى الخليل إبراهيم عليه السلام .

(٢) يطلق هذا الاسم الآن على بلاد سورية بأكملها . وفى تعليل هذه التسمية أقوال، أصحها أنها نسبة إلى سام بن نوح؛ لأن الشعوب الأولى التى عمرت هذه البلاد كانت على الأرجح من ذريته ، واسمه فى العبرانية والسريانية (شام أو شم) .

وبعضهم يخص بهذه التسمية مدينة دمشق ؛ لكونها قاعدة البلاد ، ولأنها كانت مركز الساميين الأول فى آسية .

وقيل إن هذه البلاد سميت شاما لأنها تقع على مشأمة القبلة ؛ أى على ميسرتها ، كما سميت اليمن =

وآشور وتسمى لغة الرُّها . وكانت هذه اللغة من أهم اللغات فى عصر الإمبراطورية الرومانية من الناحيتين العلمية والأدبية . وفى القرن الثانى من الميلاد قد ترجم إليها التوراة والإنجيل بمساعدة العبريين ، وصارت هـذه الترجمة الـكتاب المقـدس للمسيحيين السريانيين أو الآراميين فى آرام .

أما اسم آرام فقد أطلقه الساميون على معظم بلاد لبنان وسـورية والعراق (ما بين النهرين) ؛ لأن هذه البلاد كانت من نصيب آرام بن سام وهو آخر أبنائه . وأما اسم (آراميين) فكان يطلق على ذرية آرام إلى القرون الأولى بعد المسيح . وفى الـكتاب المقدس يراد ببلاد آرام تلك الجهات الواقعـة فى الشمال الشرقى من فلسطين إلى ما بين النهرين وآشور . وفى النسختين الإغريقية واللاتينية من الكتاب المقدس قد ترجمت كلمة آرام بكلمة سورية . وقد اتخذ المسيحيون من الآراميين لهجة الرها أو اللهجة السريانية لغة للـكنيسة والأدب والـكتابة والمحادثة . ومن حيث إن الاسم القـديم وهو آرامى ، نسبة إلى آرام ، أصبح يفهم منه فى نظر المسيحيين وغيرهم معنى «وثنى»، فتجنبا للوثنية وتبرؤا منها استعمل المسيحيون كلمة سريانى بدلا من آرامى ، وسريانيـة بدلا من آراميـة . ومن حيث إن اليهود والمسيحيين فى فلسطين كانوا قد سموا لغتهم السريانية ، والإغريق والفرس كانوا يسمون الآراميين

= بذلك لأنها على يمنتها ، ولـكن هذا التعليل غير وجيه ؛ لأن اسم اليمن أطلق على تلك البلاد كلها من أول الأمر ، أما الشام فأطلق أولا على مدينة دمشق ، ثم عم بقية أنحاء البـلاد . فليس من المعقول أن العرب مع بعدهم عن سورية يسمون إحدى مدنها بمدينة المشأمة ؛ لأن هـذه المدينة لم تنفرد بهذا الوصف دون بقية البلاد .

والعرب وهم الحريصون على الأسماء والأنساب يرون أن هذه التسمية نسبة إلى سام بن نوح ؛ فقد قال أبو الفداء أمير حماة: « قال ابن سعيد: إن الشام سميت بسام بن نوح ؛ لأن هذا الاسم فى السريانية بشين معجمة » .

من أهل بابل سريانيين ، فليس من الصواب إذا أردنا الدقة أن نطلق كلمة « لغة سريانية » على لهجة « الرها » وحدها . ولما كانت لهجة الرها أهم هذه اللهجات كان لها الحق فى أن تأخذ هذا اللقب أو هذه التسمية العامة مجازا .

و يرى بعض المؤرخين أن اليونان بما كان لهم من السيطرة والنفوذ قديماً ـ هم أول من سمى الآراميين بالسريانيين ، و بالتدريج أبطل استعمال هذا الاسم (آرامى) ؛ وذلك لأن اليونان كانوا ينفرون من الكلمة الأولى لثقلها فى نظرهم ، و يستأنسون بالثانية لأنها خفيفة على سمعهم ، سهلة على ألستهم . ولا غرابة ؛ فإن الإغريق كانوا مولعين بتحريف الأسماء وتغييرها بحسب ما يقتضيه ذوقهم ، وتستحسنه آذانهم فى البلاد التابعة لهم .

تغير المعانى بتغير الحركات :

إن أصول الكلمات فى اللغة السريانية ـ كما فى اللغات الساميـة الأخرى ـ ثلاثة وهى : الفاء والعين واللام ، وأما ما عداها فهو زائد . و بتغير الحركات تتغير المعانى كما فى اللغة العربية ، مثل :

(قْرِفْ) : قرُب .

(قَرِفْ) : قرَّب ، ضحّى .

(اَقْرِفْ) : حارب ، قاتل .

والصفة (قَرِيف) : قريب ، جارٌ .

والاسم (قُرْبَانَا) : ضحية ، هدية . وأيضاً (قُرَاقَا) : حرب ، موقعة .

والأمثلة على ذلك كثيرة مثل : (سْبَرْ) : فكَّر ، ظنَّ . (ساقَرْ) : أعلن ، أخبر . (اَسْبَرْ) : انتظر ، ترقب . (سَقْرَا) : صبرٌ ، أملٌ . (سقَرْتَا) : رسالة ، إعلان .

خواص اللغة السريانية :

تختص اللغة السريانية بما يأتى :

(١) فى صيغة الاستقبال للغائب المذكر يبتدئ الفعل (بالنون) مثل : (نِقتول) : سيقتل . (نِعبِد) : سيفعل . (نِدحَل) : سيخاف .

(٢) قد صار آخر الاسم (آ) جزءا تاما من الكلمة كما فى اللهجات البابلية حتى فقدت (آ) معناها كلية وهو التعريف ؛ لأن أداة التعريف كانت (آ) فى آخر الاسم ، أما الآن فتجد آخر الأسماء (آ) ولو لم تكن معرفة مثل (كِيفَا) : ألمَ . طَيْبُوثَا : بَرَكة. وقد حصل بعض الخفاء فى اللغة لعدم وجود أداة تعريف بها . أما اللغة العربية ففيها أداة تعريف وهى (اَل) ، وأما اللغة العبرية فأداة التعريف فيها (الهاء) .

(٣) تبدل النون راء فى بعض الأسماء مثل بْرَا : ابن ، برْتَا : بنت .

(٤) يفصل بين المضاف والمضاف إليه (بالدال) أحيانا، وتعد (الدال) حينئذ علامة للإضافة .

(٥) ليس فيها تضعيف .

(٦) من أوزان الفعل الشائعة فى اللغة السريانية (شَفْعِل) مثل : (شَفْهَر) : بهَر ، أضاء . (شَلْهِف) : التهَب . (شَعْبِد) : أخضع ، استعبد .

(٧) ليس فى اللغة السريانية مثنى ، ولكن المتتبع للغة وتراكيبها يجد فيها آثارا للمثنى .

آداب اللغة السريانية

إن آداب اللغة السريانية — إذا استثنينا ما ترجم من اللغات الإغريقية واللاتينية والفارسية — خاصة بالأدب المسيحى . وإن كتابة الوثنيين السريانيين الذين كانوا أحياء حتى القرن الثالث عشر الميلادى يظهر أنها قد اختفت الآن كل الاختفاء . وقد فقدت اللغة السريانية كثيرا من آدابها فى العصور المظلمة للديانة المسيحية ؛ وهى تلك العصور الأولى من انتشارها . وكانت اللغة السريانية لغة حية ، كثيرة الانتشار من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى . ويقول (نُولْدِكَه) المستشرق الألمانى الكبير إنها كانت حية من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلادى . فكتب بها كثير من الكتب المطولة ، ومعظمها يحتوى أمورا دينية تتعلق بالمسيح ، والدين المسيحى ، وطبيعة المسيح ، والرهبنة ، وحياة الرهبان ، ورسائلهم ومناقشاتهم الدينية والكنيسة وتقاليدها .

وقد عنى السريانيون الذين كانوا خاضعين لإمبراطورية الفرس باللغة السريانية وآدابها عناية كبيرة ، وقاموا بقسط كبير من العمل على ترقيتها ، فكان لها مركز عظيم ، وحلت مكانا كبيرا فى عصر ملوك الفرس ، وكانت وسيلة للتهذيب والتثقيف والأدب . وفى عهد الإمبراطورية الرومانية فى الشرق كانت اللغة السريانية أهم لغة بعد اللغة الإغريقيـــة .

وقد أخذت اللغة السريانية بعد القرن السابع أو الثامن الميلادى تموت بالتدريج بسبب ظهور الدين الإسلامى ، ونهضة اللغة العربية ، وإسلام كثير من المسيحيين

فى ذلك الوقت . فالفتوح العربية قدأضعفت مركز اللغة السريانية وغيرته كل التغيير. وفى أثناء ذلك ظهر ـ حتى فى الرها منبع اللغة السريانية ـ فرق عظيم ، واختلاف كبير ، بين لغة الكتابة ولغة المحادثة .

ولقد تبين للسريانيين حوالى سنة ٧٠٠ م أنه قد أصبح من الواجب وضع قواعد « أجرومية » للغتهم وترتيبها ، و إدخال بعض الوسائل للتعبير بوضوح عن الحركات السريانية . وقد كان غرضهم الوحيد من ذلك أن تيسر القواعد وضبط الكلمات بالحركات ـ قراءة الكتاب المقدس باللغة السريانية قراءة صحيحة . ولم تكن هناك وسيلة لجعل القراءة صحيحة إلا بالحركات والضبط ، ولا يمكن تصحيح الشكل إلا بالقواعد . ولكن قد حدث أن النطق الشرقى ـ نطق النسطوريين ـ قد اختلف فى كثير من الوجوه عن النطق الغربى نطق اليعقوبيين . و إن اختلاف اللهجات قد أثر بعض التأثير فى لغة الأدب ونطقها . هذا و إن الاختلافات الدينية — التى كانت بين المسيحيين من السريانيين فى الشرق ، ومعظمهم من النسطوريين ، والسريانيين فى الغرب ، وهم من الكاثوليكيين القائلين باتحاد طبيعتى المسيح فى طبيعة واحدة — قد أدت إلى تشعبات وافتراقات بين التقاليد والمذاهب الدينية المختلفة .

وهناك طريقتان مختلفتان فى ضبط الكلمات :

(١) الطريقة الشرقية السريانية : وهى نقط توضع فوق الحرف أو تحته بأشكال مختلفة وتسمى الطريقة النسطورية ، وهى أكثر دقة وضبطا ، وتتفق كثيراً مع النطق القديم ، نطق السريانيين القدماء ، وفيها مثلا (آ) بدلا من الغربية (أُو) .

(٢) الطريقة الغربية أو اليعقوبية : وتتكون من الحركات الإغريقية ، وهى أسهل من النسطورية .

وحديثا قد اختلطت الطريقتان ، وامتزجت كل منهما بالأخرى بوسائل مختلفة . وكثيراً ما تجد الطريقتين مستعملتين معاً فى ضبط اللغة السريانية .

ولم يكتب عن اللغة السريانية وآدابها كتابة مفصلة إلا عدد قليل من العلماء أمثال (وِلْيم رَايْت)[١] المستشرق الإنجليزى ، و (الدكتور أَنطون بومسْتَرك)[٢] ، والعلامة (تيودُور نُولْدِكه)[٣] المستشرقين الألمانيين ، و (رُوبِنز دُوڤال)[٤] الفرنسى .

ومع أن اللغة السريانية غنية بأدبياتها لم تجد العناية التى وجدتها اللغتان العربية والعبرية . وهى على أى حال أهم اللغات الآرامية وأغزرها أدبا[٥] ؛ فلقد كانت لغة الأدب والدين فى جميع الكنائس ابتداء من فلسطين وسورية إلى بلاد أَذْرَبيجَان[٦] وفارس . ولقد اعترف (رِينَان) العالم الفرنسى ـ حتى قبل ظهور الوثائق التاريخية السريانية ـ بأثر اللغة السريانية وآدابها بين علماء الدين والمؤرخين واللغويين حيث يقول فى كتابه : « تاريخ اللغات السامية » : إن الأهمية الكبيرة للغة السريانية تظهر فى علاقتها بالتعليمات الدينية والمسيحية . . . وفى الآثار السريانية

---

(١) William Wright (٢) Dr. Anton Boumstark
(٣) Theodor Noldeke (٤) Rubens Duval

(٥) وبقية فروع الآرامية هى الكلدانية والسامرية والآشورية والعيلامية المنسوبة إلى عيلام بن سام ، وقد بادت الآشورية والعيلامية منها .

(٦) أرض واسعة الأرجاء اسمها القديم « أَتروباتان » (Atropatène) وهى بين بلاد الجبال جنوباً ، وبلاد الكرد غرباً ، والديلم وبحر قزوين شرقاً ، وأرمينية وموقان شمالا . وكانت بها الدولة السلارية (٣٣٠ — ٤٢٦ هـ) .

كتير من النصوص الهامة فى تاريخ المسيحية فى عصورها الأولى » . وفى فهارس دور الكتب الأوربية بيان بعدد المخطوطات السريانية فى كل مكتبة أوروبية نذكر منها :

(١) فى المتحف البريطانى بلندن ٨٥٠ مخطوط .

(٢) فى جامعة كمبردج ٢١٥ مخطوط .

(٣) فى مكتبة بودلى بأكسفورد ٢٠٥ مخطوط .

(٤) فى دار الكتب الملكية ببرلين ٣٤٠ مخطوط .

(٥) فى الفاتيكان برومة ٥٥٠ مخطوط .

(٦) فى دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٤ مخطوط .

وقد بين العلامة نِسِل (Nestle) فى كتابه : « الأدب السريانى »[١] أهم المباحث فى هذه النصوص السريانية وطبعاتها . ومن الكتابات والنقوش التى عثر عليها فى بابل[٢] ونينوى حديثا يتضح أثر اللغة السريانية فى عشرة قرون من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر فى العلوم والآداب والطب والفلسفة والدين ، وبخاصة القسم المترجم من الإغريقية إلى السريانية . ويفخر السريانيون بأن لغتهم كانت لغة المسيح وأمه ، وأنها لغة الكنيسة ، ولا تزال تستعمل فى الكنائس السريانية فى لبنان وسورية والعراق وكردستان وبعض جهات الهند ، وأنها كانت لغة علمية تصلح لأن يترجم إليها كثير من الكتب فى العلوم المختلفة من الإغريقية واللاتينية والفارسية ،

---

(١) Litteratura Syriaca

(٢) بابل (Babylone) : مدينة من أقدم مدن العالم القديم وأكبرها ، على الجانب الأيسر من نهر الفرات ، بناها الكلدان ، وهى مدينة النمروذ ، وفيها توفى الإسكندر المقدونى سنة ٣٢٣ ق. م. وحملت جثته إلى الإسكندرية . وهذه المدينة الآن خراب لا يوجد غير أطلالها .

فكانت من أحسن الوسائل لنشر الآراء الحديثة التى كان يصل إليها اليونان أو الرومان أو الفرس قديماً فى عهد حضارتهم الأولى .

وقد كان السريانيون من بابل أول من اشتغل بالرياضيات والفلك وعلم الهيئة . ولهم كثير من التعليقات والشروح على الكتاب المقدس . ولو بقيت هذه الشروح لملأت مكتبة من المكتبات . وممن شرح العهد القديم والعهد الجديد (مَار إفرَايم) المتوفى سنة ٣٧٣ م . وكان شرحه دقيقاً ، وهو أقدم الشروح وأحسنها . وممن شرح جميع الأسفار المقدسة أيضاً (يعقوب الرهاوى) المتوفى سنة ٧٠٨ م . ومن أشهر المؤلفين من السريانيين : (ابن العبرى[1])، ولد سنة ١٢٢٦م ، ويدعى (أبا الفرج)، وكان يجيد الإغريقية والسريانية والعربية وهو شاب ، ويميل إلى الفلسفة والعلوم الدينية مع اشتغاله بالطب . وله مؤلفات كثيرة أشهرها : « كنز الأسرار »، كتبه سنة (١٢٧٧ — ١٢٧٨ م.) شرحا للكتاب المقدس. وبجانب الكتاب المقدس كتب دينية أخرى كثيرة كلها خاصة بالسيد المسيح، والسيدة مريم العذراء، ورؤيا القديس بولس ، ورؤيا القديس بطرس . . .

وقد كانت الأديار فى دجلة والفرات وسورية مملوءة بالرسائل والمباحث الدينية فى الموضوعات المختلفة . ومن أشهر علماء الدين من اليعقوبيين يعقوب أسقف سروج فيما بين النهرين (المتوفى سنة ٥٢١ م.) ، ويعقوب الرهاوى ، وموسى بن كيفا ، وابن الصليبى ، وابن العبرى . ومن أشهر العلماء النسطوريين : حنانيا الحديانى (المتوفى

---

(١) Bar Hebraeus : ولد فى أرمينية ، وهو من أصل يهودى ، ومن أحسن كتبه : « سفر الأخبار » فى التاريخ من آدم إلى العصر الذى كان يعيش فيه . ومن كتبه أيضاً « زبدة الحكم »

سنة ٦١٠ م.) وباباى الكبير (المتوفى سنة ٦٢٨) ، وإسحق أسقف نينوى بعد النصف الأول من القرن السابع .

وقد كتب ابن العبرى الكثير عن الكنيسة السريانية الغربية، كما كتب عبد يشوع أسقف نصيبين[١] عن الكنيسة السريانية الشرقية . وأعظم المؤلفين فى التاريخ من اليعقوبيين. وقد كتبوا فى التاريخ العام، وفى تاريخ الكنيسة، وتاريخ الأدب ، وضاع معظم هذه الكتب التاريخية .

وكان السريانيون يميلون إلى الحِكم ، ومما أحبوه منها حكم فيثاغُورِس ، ووصايا أفلاطون ، ومباحث سقراط . وترجموا عن الإغريقية بعض العلوم الرياضية والطبيعية . ومما ترجموه علم وظائف الأعضاء (علم الفسيولوچيا). وقد جمع (رُوبِنز دُوڤَال) فى الجزء الثانى من كتاب « تاريخ الكيمياء فى القرون الوسطى » جزءاً من علم الكيمياء (لِبرثلُوت[٢]) . وكتب ابن العبرى مبحثا فى الفلك ، وآخر فى الحساب ، وثالثا فى العقاقير وهو كتاب (دُيوسقُورِيدِس) ، ولا عجب ؛ فقد كان من كبار الأطباء المعروفين إذ ذاك . وكتب أيضاً حنين الطبيب النسطورى شرحاً (للمسائل الطبية). وكان من أكبر الأطباء لدى الخلفاء فى الدولة العباسية فى القرن التاسع الميلادى . وتوفى حنين المذكور سنة ٨٧٣ ميلادية .

ولنقتبس هنا كلمة للعالم الكبير، والأديب الشهير المرحوم چورچى زيدان نذكرها مع قليل من التصرف :

« السريانيون هم البقية الباقية من الكلدانيين أو البابليين القدماء، الذين كان

---

(١) نصيبين : من بلاد الجزيرة ، فتحها عياض بن غنيم فى خلافة سيدنا عمر ، وتوفى فيها ابن النبيه الشاعر المصرى المعروف ، وهى على نهر اسمه (هرماس) من روافد نهر الخابور .

(٢) Berthelot

لهم أثر كبير فى المدنية ووضع العلوم ، واختراع المزاول ، ورصد الكواكب ، ووضع أساس علم الطب قبل الميلاد بقرون . ثم دالت دولتهم ، واستولى الفرس على بلادهم ، فذهب علمهم بذهاب حريتهم . وحينما أسست النصرانية ، وانتشر دعاتها فى البلاد ، وافترقت إلى طوائف ومذاهب كان للسريان حظ كبير فى نشر الدعوة للديانة المسيحية ، وكان لهم تأثير عظيم فى تاريخ النصرانية . . . .

وفى أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قِنَّسِرين[1] بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية . وتخرج فيها جماعة كبيرة من السريان ، وفى جملتهم الأسقف (سويرس) ؛ فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة واللاهوت والرياضيات . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها إلى السريانية . ولا تزال بعض ترجماته فى الفلسفة محفوظة فى المتحف البريطانى بلندن . وقد أتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوى واضع علم النحو السريانى . . . ومن تلاميذه (أثناسيوس جُورْجيوس) المعروف بأسقف العرب (٦٨٦ م .) ؛ فقد ترجم بعض كتب أرسطو . واشتغل جماعة آخرون بترجمة كتب أفلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه . واشتهرت هناك مدارس أخرى كمدرسة نصيبين التى كان عدد تلاميذها نحو ثمانمائة ، وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية .

أما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر إنشاء بيمارستان جُنْدَيْسَابُور[2] ،

---

(١) مدينة ببلاد الشام ، بين حلب ومعرة النعمان ، فتحها أبو عبيدة بن الجراح فى سنة ١٧ هـ . فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب . وهى وطن كلثوم بن عمرو العتابى ، شاعر البرامكة المشهور .

(٢) مدينة بخوزستان ، بناها سابور بن أزدشير من الدولة الساسانية ، فى أواسط القرن الثالث للميلاد لأسرى الروم . وكان فيها مدرسة جليلة ، خرج منها كثير من العلماء والفلاسفة كال بَخْتَيْشُوعَ وغيرهم . وكانت من أكبر المعاهد العلمية فى القرون الوسطى .

واشتهر فيهم من الأطباء كثيرون منهم سرجيس الرأس عينى ، وأتاتوس الآمدى ، وسَمعان الطَّيبوتى ، والأسقف جرِيجوريُوس ، والبطريرك ثيُودُوسْيُوس وغيرهم ممن أدركوا الدولة العباسية وخدموها .

وقد نقل أطباء السريان كثيراً من كتب الطب اليونانى إلى السريانيـة فى أثناء اشتغالهم بنقلها إلى العربية ؛ لأنهم كثيراً ما كانوا ينقلونها إلى السريانية فقط ، أو إلى السريانية والعربية معاً .

فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس فى الطب إلى السريانية ، ثم نقلها فى الإسلام موسى بن خالد إلى العربية (كما فى طبقات الأطباء ص ١٨٩ ج ١). وقد ألف الطيبوتى فى أواخر القرن السابع للميلاد كتابا فى الطب ، وترجم غير كتاب ، ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما .

وللسريان فى النجوم مؤلفات كثيرة ؛ لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الـكلدانيين ؛ فإن البرديصانى له كتاب فى الفلك لم يصل إلينا غير خبره . وألف الرأس عينى فى تأثير القمر وحركة الشمس . وألف السبكتى فى صور الأبراج . وممن ألف فى الفلك أيضـاً يعقوب الرهاوى ، وداود البيت ربانى ، وموسى بن كيفـا ، وعمانويل البرشهارى وغيرهم .

واشتغل السريان أيضاً بالـكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلاً عن اشتغالهم بلغتهم ، وضبط قواعدها وحركاتها . . . وقد اشتغلوا كثيراً بآداب اللغة اليونانيـة وشعرها ، فترجموا الإلياذة إلى لسانهم ، ترجمها (ثيُوفيل الرهاوى) سنة ٨٧٥ م . وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها إلا بيتان . ويقال إن السريانيين تنبهوا إلى استخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الإلياذة ضبط الأعلام اليونانية فيها ،

وهى غير النقط التى كانت تقوم عندهم مقام الحركات . ولا تزال النقط (الحركات النسطورية) شائعة عند السريان الشرقيين ، والأحرف اليونانيـة تستعمل عند الغربيين إلى يومنا هذا » .

الترجمة إلى السريانية[1] :

لم يقتصر نشاط السريان منذ عصورهم القديمة على التجارة فحسب ، بل تعداها إلى ميادين العلم والمعرفة ، وقد ساعدهم موقع بلادهم على أن يكونوا حلقة اتصال ثقافى بين الشرق والغرب ، فنقلوا الثقافة الإغريقيـة الرومانية إلى بلادهم وما جاورها من بلاد العرب وفارس ، وكانوا يذهبون بتجارتهم شرقا وغربا ، ثم يعودون إلى بلادهم بحكمة الفرس ، وعلوم الإغريق ، فالتقت فيها معارف الفرس ، وفلسفة الإغريق .

وكان نشاط السريان أول أمره نشاطا دينيا يرمى إلى نشر مبادئ المسيحية بين أبناء جنسهم بلغتهم القوميـة ، فترجموا أمهات الكتب الدينية من الإغريقية إلى السريانية . وعلى مر الأيام زادت عنايتهم بالترجمة فنقلوا إلى لسانهم الثقافة الإغريقية ، وعنوا بكتب الطب والفلسفة . فلما انقسمت الكنيسة الكاثوليكية ، وظهر المذهب النسطورى سنة ٤٣١ م . ثم المذهب اليعقوبى سنة ٤٥١ م. اشتد نشاط السريان ، وظهر التنافس واضحا بين هذين المذهبين ، فانتشر النساطرة فى الشرق ، وكانت لهم مدارس فى الرها ، ونصيبين وغيرهما ، وانتشروا فى بلاد فارس ، وكانت لهم منزلة

---

(١) من كلمة ثمينة عن الترجمة والمترجمين لصديقنا العالم المحقق ، والبحاثة القدير الأستاذ حامد عبد القادر أستاذ الفلسفة بدار العلوم .

ساميـة لدى الأكاسرة ، حيث أجزلوا لهم العطاء ، وعهدوا إليهم بتدريس العلوم الطبية والفلسفية فى المعاهد الفارسية .

وفى سنة ٥٢٩ م. غضبت الكنيسة على سبعة من زعماء الأفلاطونية الحديثة ، وطردتهم من أثينـا ، فدعاهم كسرى أنوشروان إلى بلاده ، ورحب بمقدمهم . وفى سنة ٥٧٩ م . أنشأ بيمارستان بجند يسابور ، وكان معظم أساتذته من النساطرة . أما اليعاقبة فقد زاد نفوذهم بالغرب ، حيث كانت مدارسهم بأنطاكية ، ورأس عين ، وقنسرين ، والإسكندرية .

ومنذ القرن الرابع الميلادى نشطت الترجمة ، وكان فى طليعة المترجمين «سِرْجيُوس» الرأس عينى . ويروى أنه أول من نقل كتب اليونان إلى السريانية ، ثم ظهر بقنسرين فى القرن السابع الميلادى الأسقف « ساويرس » وتلميـذه يعقوب الرهاوى (٦٤٠ـ٧٠٨م) ، و « جُورْجيُوس » الملقب بأسقف العرب ٦٨٦ م . وقد اهتموا أول الأمر بنقل منطق أرسطو وترجمة العبارات الأدبية ، والمبادئ الصوفية ، والحكم السياسية والاجتماعية المأثورة عن رجال الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة ، ثم عنوا بالعلوم الطبيعية ، وما وراء الطبيعة ، وشغفوا بمؤلفات فيثاغورس ، وسـقراط ، وأفلاطون ، و بلوتارك .

وكانت ترجمتهم للمنطق ، والعلوم الطبيعية دقيقة مضبوطة ، أما ترجمتهم للفلسفة الميتامادية فـكان يكتنفها شىء من الغموض واللبس والتحريف الذى دعت إليـه العاطفة الدينية .

الترجمة إلى العربية :

بقيت اللغة السريانية أداة لنشر الثقافة الإغريقية فى الشرق والغرب ، وظلت الترجمة من الإغريقية إلى السريانية على نشاطها السالف حتى جاء الإسلام ، وساد الشعور بأن السريانية أصلح اللغات الشرقيـة للتعبير عن المعانى الفلسفية والعلمية . ولـكن لم يلبث هذا الزعم أن تبدد أيام الدولة الأموية حيث أخذت العربية تزاحم السريانية فى ميدان العلم ، وتبرهن على استعدادها لتـكون لغة علم وفلسفة وسياسة ، بعد أن ظهرت كفايتها فى ميدان الآداب والدين . ومع هذا لم يترجم إليها فى تلك الفترة إلا بعض رسائل فى الـكيمياء ، ترجمها خالد بن يزيد بن معاوية سنة ٧٠٤ م. وكذا بعض حكم ورسائل ووصايا دينية وشذرات من تاريخ الفلسفة .

فلما جاءت الدولة العباسـية ، بدأ المنصور عصر الترجمة الحقيقى ، وكان أول مشجع فى الدولة العربية على النهوض العلمى بما أجزله من العطاء للمترجمين، ومن أشهرهم عبد الله بن المقفع ، ونوبخت ، وابنه سهل ، وجرجيس الـكبير رئيس البيمارستان بجنديسابور فى عهد المنصور .

وقد بلغت الترجمة شأوا عظيما فى عهد الرشيد ، ووصلت الغاية القصوى فى عصر المأمون، الذى يعد العصر الذهبى للترجمة حقا ؛ فقد أنشأ دار الحـكمة ، وشجع طائفة من أطبـاء السريان على رأسهم يحيى بن البطريق ، وقسطا بن لوقا البعلبكى من نصارى الشام ، وحبيش بن الأعسم الدمشقى سنة ٣٠٠ هـ . وحنين بن إسحق سنة ٢٦٢ هـ ، وابنه إسحق بن حنين اللذان عرفا بالنبوغ فى الفارسية واليونانية والسريانية والعربية ، كما عرفا بالدقة فى الترجمة . وجل هؤلاء كانوا فى القرن التاسع الميلادى ،

أما القرن العاشر فأشهر مترجميه أبو على عيسى بن إسحق ، والكندى، ومتى بن يونس، وثابت بن قرة سنة ٣١١ هـ .

ولم تكن الترجمة مقصورة على علوم اليونان وحدها ، بل شملت المعارف الفارسية، والحكمة الهندية ؛ فترجم إلى اللغة العربية معظم ما كان شائعا من العلم ، والطب ، والفلسفة ، والأدب ، والفلك ، ونقل إليها عن كل أمة أحسن ما لديها من نتائج العقول ، وثمار المعرفة ، وبذلك غنيت العربية بثروة قيمة كانت نواة صالحة أثمرت ثمرتها ، وآتت أكلها ، واستفاد منها المسلمون وغيرهم حتى الآن .

المترجمون من السريانيين والفلسفة :

لم يكن هؤلاء المترجمون من السريانيين نقلة وقفوا عند حد النقل ، وإنما كانوا أصحاب جهود موفقة فى الشرح والتحليل ، والاستنباط ، والموازنة والترجيح ؛ بل كان لبعضهم آراء خاصة فى بعض الموضوعات الفلسفية، كقسطا بن لوقا الذى وضع رسالة فى التفرقة بين النفس والروح ، ذهب فيها إلى أن الروح كائن مادى لطيف ، يحتل التجويف الأيسر من القلب ، وهو سبب الحياة والإحساس والحركة فى الإنسان ، وأن النفس ليست مادية لقبولها الصور المتضادة ، وإنما هى جوهر روحانى بسيط ، لا يتغير ولا يفنى .

ومع ذلك لم يكن لأحد من المترجمين مذهب فلسفى مبتكر ؛ إذ أنهم كانوا مسيحيين غالبا ، منعتهم عقيدتهم الدينية وكنيستهم من التفرغ للدراسات الفلسفية ، والتعمق فى مباحثها، أضف إلى ذلك أن معظمهم وجه عنايته للطب ، وعنى به من الناحيتين العلمية والعملية ، كما شغفوا بخدمة الخلفاء ، وملازمة مجالسهم ، وانصرفوا

إلى الترجمة أو الإشراف عليها . كل أولئك مما حال دون نبوغهم فى الفلسفة والوصول فيها إلى حد الابتكار ، ووضع المذاهب الجديدة .

و إن تاريخ الفلسفة ليذكر هؤلاء المترجمين بالتجلة والتبجيل ؛ لما كان منهم من دقة فى الترجمة ، وأمانة فى النقل ، وما استفادته اللغة العربية من هذه الكتب المترجمة ؛ فقد وثبت بفضل هذه الحركة الوثبة الثانية بعد النهضة الأولى التى نهضتها بعد نزول القرآن ، حيث دخل فيها الكثير من المعانى الاصطلاحية ، والعبارات العلمية ، واتسع صدرها لكثير من الألفاظ الأجنبية ، بعد أن صقلت بما يلائم قواعد اللغة العربية .

واتسعت مادتها اللغوية بما نقله إليها هؤلاء المترجمون من أمهات الكتب اليونانية وغيرها فى المنطق والفلسفة والطب ، والرياضة ، والفلك التى وضعها أفلاطون ، وأرسطو ، وفرفريوس ، و بقراط ، وجالينوس ، وأرشميدس ، وأقليدس ، و بطليموس . و بذلك صارت اللغة العربية لغة الحكمة ، والكتابة والتأليف ، وصار أهلها ذوى بحث وتفكير .

وقد أثرت هذه الترجمات فى الحياة العقلية العربية تأثيرا سريعا فعالا ؛ فلم ينقض القرن الثالث الهجرى حتى استيقظت العقلية العربية ، وأقبل المسلمون على الدراسات الفلسفية إقبالا عظيما ، وظهر من المسلمين كثير من فحول الفلاسفة ؛ فى مقدمتهم : يعقوب بن إسحق الكندى ، وأبو نصر الفارابى ، والرئيس ابن سينا ، وإخوان الصفا . كما أثرت فى العلوم والمباحث الإسلامية نفسها ، فاصطبغت بالصبغة الفلسفية ، وظهر علم الكلام ، وفيه حاول المتكلمون وضع العقائد الإسلامية على أسس

منطقية ، والدفاع عنها بوسائل فلسفية ، حتى يقرعوا الحجة بحجة مثلها ، والدليل بدليل من نوعه . ومن أشهر هؤلاء حجة الإسلام الغزالى . ولم تلبث الفلسفة أن شقت طريقها إلى الفقة الإسلامى ، فطبق الفقهاء قوانين الاستقراء والقياس والتعليل فى استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، كما امتدّت إلى التصوف الإسلامى فغيرت اتجاهه .

على أن الأدب العربى فى العصر العباسى لم يخل من التأثر بالفلسفة ؛ يتجلى ذلك فيما كتب ابن المقفع والجاحظ ، وما نظم المتنبى ، وأبو العلاء المعرى .

وخلاصة القول أن العالم الإسلامى كان يموج بالفلسفة فى عصر الإسلام الذهبى، وأن المراكز الثقافية الإسلامية كانت حينئذ مراتع خصبة للدراسات الفلسفية . وأن الفلسفة ازدهرت أيما ازدهار منذ منتصف القرن الثالث الهجرى تقريبا . وبخاصة أيام المأمون والمعتصم والواثق (١٩٨ - ٢٣٢ هـ) . وفى عهد المتوكل أخذت الفلسفة فى التدهور فى الشرق ، لاتصالها بفكرة الإلحاد والزندقة عند الكثير من المتدينين . وظلت الفلسفة فى ضعف مستمر إلى أن قضى عليها القضاء الأخير فى الشرق ، باستيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وإسراف (هولاكو) زعيمهم فى قتل العلماء ، وتدمير دور الكتب ، وإلقاء محتوياتها فى نهر دجلة . وبذلك انتهت مأساة الفلسفة فى المشرق .

وبينما كان نجم الفلسفة آخذا فى الأفول فى آسية إذا به يظهر، ويصعد فى مصر، وبلاد المغرب والأندلس التى كانت كعبة الفلاسفة الغربيين ؛ فقد ظهر فى مصر ابن الهيثم فى القرن الخامس الهجرى . وفى بلاد المغرب والأندلس ظهر ابن باجة، وابن

طفيل فى القرن السادس، كما ظهر ابن رشد حامل لواء الفلسفة والعلم فى أوروبة الغربية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، وناشر فلسفة أرسطو : وكانت الفلسفة الإسلامية مرجع المتفلسفين الأوروبيين فى القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى .

ولما بدأت النهضة الحديثة واتجهت الأنظار إلى الآداب القديمة فى أوروبة ، ونادى المصلحون بوجوب إحيائها ، والرجوع إلى مصادرها الأصلية ، أقبل المتفلسفون على دراسة الكتب اليونانية نفسها ، وأخذوا يوازنون بين هذه الأصول وترجماتها التى نقلها العرب إليهم ، فظهر لهم أن أساطين الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وضعوا كتبا شارحة لمذهبهم ، ونسبوها زوراً إلى بعض الفلاسفة المتقدمين وبخاصة أرسطو ، مثال ذلك :

(١) كتاب « الربوبية » وضعه (فلوطين) ، وعزاه إلى أرسطو ، وضمنه آراءه الخاصة بالإله ، والنفس ، والعقل ، والمعرفة بالمشاهدة ، والكائنات الروحانية المجردة ، وغير هذه من الآراء التصوفية التى ليست من آراء أرسطو فى شىء . وقد ترجم هذا الكتاب ابن ناعمة الحمصى حوالى سنة ٢٢٦ هـ ، ثم راجعه الكندى ، وكانت له آراء بارزة فى الفلسفة الإسلامية عامة ، وفلسفة التصوف بوجه خاص .

وفى هذا الكتاب يقول (فلوطين) بلسان أرسطو : « إن أفلاطون الإلهى هو المثل الأعلى للنوع الإنسانى ، الذى يدرك الأشياء بإلهام من المعرفة بدون حاجة إلى أى قانون من القوانين المنطقية » . ويقول : « فى مركز النفس الأصلى هو وسط الكون العام ، والإله من فوقها ، والطبيعة من تحتها ، والعقل يحملها من جوار ربها ، ويقرها فى المادة ، فتبقى فى الجسم إلى أجل معين ، ثم تصعد ثانية إلى مكانها الأول .

فحياة النفس تشمل الأدوار الثلاثة . والعقل هو الأصل ، وهو الكل ، والكل فيه واحد . والنفس عقل أيضا ما دامت بعيدة عن الجسم ، وعقل نسبى مدة وجودها فيه باعتبار ما كانت ، وما ستئول إليه « أى بقوة الأمل ، أو بصورة الشوق » . لأنها وهى فى سجنها المادى تصبو إلى فوق ، إلى المحل الأرفع الذى لا يدرك ، ولا ينعت ، فتحيا حياتها الأولى ، حياة الغبطة والنور .

وإنك لترى هذه الآراء واضحة فى قصيدة ابن سينا فى النفس حيث يقول :

هبطتْ إليكَ من المحل الأرفعِ ... ورقاء ذات تعزز وتمنُّعِ
وصلَت على كُره إليكَ وربَّما ... كرهت فراقَكَ وهى ذاتُ تفجُّعِ
تبكى إذا ذكرَت ديارا بالحِمَى ... بمَدامعٍ تَهمى ، ولمَّا تُقطَعِ
إذ عاقَها الشَّرَكُ الكثيفُ وصدَّها ... قفصٌ عن الأوْج الفسيح المُرْبِعِ
حتى إذا قرُب المسيرُ إلى الحِمَى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسعِ
وغدت مُفارقةً لكل مخلَّفٍ ... عنها حليفِ التُّربِ غيرِ مُشيَّعِ
سَجَعت وقد كُشف الغطاء فأبصرَتْ ... ما ليس يُدرَك بالعيونِ الهجَّعِ

(٢) رسالة فى « الأسباب والعلل » وضعها (بردقلوس) ، وعزاها إلى أرسطو أيضا.

(٣) كتاب « التفاحة » وهو من الكتب التى وضعها رجال الأفلاطونية الحديثة؛ وفيه يزعم واضعه زورا أن أرسطوقال لبعض تلاميذه ـ وقد أتوا لزيارته قبيل وفاته ـ: « كما أن نتيجة العلم إدراك الحقيقة (الفضيلة) كذلك نتيجة الجهل الوقوع فى الجهالة « الرذيلة » . وليس من شىء فى الأرض ولا السماء سوى العلم والجهل ، ونتيجة كل منهما . فليست الفضيلة شيئا سوى العلم ، وليست الرذيلة إلا الجهل ؛ فالعلم والفضيلة ، أو الجهل والرذيلة ، كالماء والثلج ، حقيقتهما واحدة ، وصورتهما متعددة.

وإن النفس لتجد فى المعرفة التى هى الحقيقة الإلهية ، سعادتها الحقة ، لا فى الأكل والشرب ، وبقية الملاذ المادية ؛ لأن هذه الملاذ كشعلة نارية تضىء زمنا ثم تنطفئ. أما الحرارة الثابتة والضوء المستمر فيحدثان فقط عن النفس المفكرة التى تبحث عن خلاصها من عالم الشهادة ؛ ولهذا لا يخشى الفيلسوف الموت ، بل يتقبله بالراحة إليه ، والسرور منه إذا دعاه الرب إلى جواره . وإن اللذة التى يحصل عليها الحكيم بمعارفه المحدودة من هذه الحياة الدنيا لبرهان قاطع على الغبطة الكبرى التى سينالها بتحرير نفسه من سجنها المادى ، وبوصولها إلى مقام الشهود . وإن الفيلسوف ليعرف ذلك بمعرفة نفسه ؛ فمن عرف نفسه فى هذه الحياة ، وصل بهذه المعرفة إلى إدراك جميع الأشياء بعلم خالد ؛ أى بنفس أبدية ، لا يدركها الفناء » .

هذه آراء الأفلاطونية الحديثة ، أراد أصحابها ترويجها ، فأذاعوها فى الناس باسم المعلم الأول .

وللسبب نفسه وضع بعض متأخرى هذه المدرسة كتباً ورسائل أخرى عزوها إلى متقدمى الفلاسفة مثل طاليس ، وأنا كسيمندر ، وأمبد قليس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وكلها كتب زائفة تعزو إلى هؤلاء الفلاسفة آراء ليست كآرائهم الحقيقية التى وصل إلى معرفتها الباحثون المحدثون .

وهذا كله مما يدعونا إلى القول بأن المذاهب الفلسفية اليونانية لم تصل إلى العرب صحيحة منسوبة إلى أصحابها الحقيقيين ، وإنما وصلت إليهم مختلطة مشوهة مضطربة ، ولا يبعد مع ذلك أن تكون أيدى المترجمين المسيحيين قد امتدت إلى الفلسفة اليونانية التى وقعت عليها أنظارهم ، فغيروا فيها وبدلوا ؛ لتكون الترجمة متفقة مع عقائدهم الدينية .

ويؤيد ذلك أن الاضطراب والتشويه اللذين ظهرا فى الفلسفة ، كانا مقصورين على الفلسفة الإلهية : أما الطب ، والفلك ، والمنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والأخلاقيات ، والسياسيات ، فقد وصلت إلينا فى الغالب صحيحة ، مطابقة لأصولها اليونانية ، منسوبة إلى أصحابها الحقيقيين ؛ إذ لم يكن هناك داع إلى التغيير فيها أو التبديل » .

قضاء اللغة العربية على اللغة السريانية

لقد قضت اللغة العربية على اللغة السريانية بعد الفتوح العربية الإسلامية ، وسرعان ما ابتدأت تحل محل اللغة السريانية فقلت استعمالها . ولا يعرفها الآن إلا علماء الدين ، واللاهوت من المسيحيين فى أقطار العالم ، واللغويون من المستشرقين . ولقد أخطأ (رينان) الفرنسى فى قوله : « إن أدب اللغة السريانية غير شائق » . وكل ما يمكننا أن نقوله هو أن السريانيين ليس لهم تاريخ خالد ، ولم يبرزوا فى الحروب أو العلوم ، أو الفنون ، ولكنهم كانوا أحسن المترجمين . وكانت تنقصهم شجاعة العرب وعلومهم ، ومثابرة العبريين ، وغيرتهم العلمية .

وإننا لا ننكر أن السريانيين قد اكتسبوا كثيراً من اليونان باندماجهم فيهم ، ومعرفتهم لغتهم ، فأظهروا شيئاً كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحضارتهم فى كتبهم ، وأضافوا إليه قليلاً من عندهم ، ولم يكن لديهم مثلا أمثال الفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن العربى ، وابن خلدون ، فى الرها ، أو فى ديورة قنسرين أو نصيبين . وينسب إلى السريانيين أنهم قد نقلوا كثيراً من حضارة اليونان وعلومهم إلى اللغة العربية .

وقد يجد أدب اللغة السريانيـة كثيراً من الرغبة والشوق فى نفس الأديب ، والمؤرخ الحديث ، أو العالم المستشرق ، أو العالم الدينى .

وأهم الـكتب الدينية فى الأدب السريانى الـكتاب المقدس : العهد القديم ، والعهد الجـديد . وبجانب الكتاب المقدس كثير من الـكتب السريانية المحفوظة فى مكتبة دار الآثار البريطانية بلندن وغـيرها من دور الـكتب الأوروبية . وهذه الـكتب المكتوبة باللغة السريانية تحتوى شروحاً للـكتاب المقـدس ، ومواعظ وإرشادات ، وأشعاراً دينية أو ترنيمات عن أى موضوع من الموضوعات الدينية المختلفة.

ولقد كتب أيضاً باللغة السريانية كثير من الـكتب التاريخية ، والـكتب التى تبحث عن حياة الشهداء والرهبان والقديسين ، وعلماء الـكنيسة ورجال الدين ، والرسـائل التى كانت تدور بينهم ، والمسائل الدينيـة التى كانوا يبحثون عنها ويتناقشون فيها .

وفى أوائل القرن الحادى عشر قد كتب (إلياس برشناية) « مطران » نصيبين كتبه التى كتبها للمسيحيين خاصة ، تارة باللغة العربية وحدها ، وتارة باللغتين العربية والسريانية معا . ولـكنه فى كتابته بالسريانية كان يخلط بين لغة المحادثة واللغـة العلمية وهى لغة الـكتابة .

وعلى هـذا قد صار من الضرورى وضع معاجم لشرح الـكلمات الغريبة ؛ معاجم سريانيـة عربية ، تشرح فيهـا الـكلمات السريانية بالعربية التى حلت محلها .

ولا تزال اللغة السريانية تستعمل فى الوقت الحاضر لأغراض أدبية أو دينية فى الـكنائس السريانية . وربما نجد الآن من يتحادث بها فى بعض الديورة أو المعاهد

الدينية . لكنها تعد لغة ميتة منذ زمن طويل . ولا يعرف بالضبط الوقت الذى أصبحت فيه اللغة السريانية منقرضة عديمة الأثر فى الرها وما يجاورها .

ولقد كان للسريان نحو خمسين مدرسة فيما بين النهرين تعلم فيها العلوم المختلفة باللغتين السريانية والإغريقية . وكانت سورية غنية بمدارسها السريانية وديورتها التى كان يعلم فيها الدين للطلبة فى معظم بلاد سورية ؛ وذلك بقراءة الكتب المقدسة المكتوبة بالإغريقية والسريانية مع الشرح . ومن هذه المدارس أو المعاهد المعهد العظيم الذى كان فى الرها ؛ ذلك المعهد الذى أبيد من أجل نزعاته النسطورية فى سنة ٤٨٩ ميلادية . وفى هذا المعهد (معهد الروها) أخذ السريان يشتغلون فى القرن الخامس الميلادى بفلسفة «أرسطو»، وقد نقلوا هذه الفلسفة الإغريقية إلى السريانية، ونقلوا علم المنطق كذلك فى أواسط القرن المذكور . وكان فى كل معهد مدرسون دينيون لتعليم الطلبة القراءة والمطالعة والإلقاء والنطق وضبط الحروف بالحركات أو النقط قبل لحاقهم بقسم التخصص بالدين ، حيث يجدون كبار أساتذة الشريعة والدين . فكانوا يجمعون أصعب الكلمات والعبارات التى كانوا يعثرون عليها فى الكتاب المقدس ، ثم يرتبونها بحسب الحروف الأبجدية فى كتب أو مذكرات للقراءة والبحث ، يبينون فيها بوساطة الشكل والحركة طريقة النطق بوضوح .

وعلى أى حال لا نستطيع أن ننكر ما كان لدى السريان من العلوم الدينية المسيحية، ومن العلوم الفلسفية التى نقلوها عن اليونان ، فقد تعلموا منهم الفلسفة والطب وكل العلوم ، كما تعلمها الرومان من قبلهم ، والمسلمون من بعدهم .

وكان السريان ينصرفون إلى الاشتغال بالعلوم كلما اطمأنوا من مظالم الفاتحين ، ومنهم من شرح الكتب اليونانية ، ومنهم من لخصها ، ومنهم من ترجم للعباسيين

العلوم المختلفة ، ومعظمهم من النساطرة ، وهم أذكياء نشيطون . ولقد أتم (سرجيوس الرأس عينى) الطبيب السريانى المعروف دراسة المنطق . وبالمتحف البريطانى بلندن نسخ مخطوطة من ترجمته لإيساغوجى فى المنطق من اليونانية إلى السريانية . وترجم حنين (المتوفى سنة ٨٧٣ م.) علم البيان لأرسطو إلى السريانية .

اعتناق المسيحيين السريانيين الدين الإســـــلامى

فى المدة التى بين سنة ٦٣٣ وسنة ٦٣٦ ميلادية انتصر المسلمون وفتحوا سورية. فاعتنقت الدويلات العربية الصغيرة ـ من لخم وتغلب وغسان وكذا القبائل المتجولة فى دجلة والفرات ـ الدين الإسلامى ، وهزم الفرس فى بلادهم ، وصارت تلك البلاد بلاداً إسلامية ، فأسلم السريانيون منهم ، وحاول الروم أن يخلصوا سورية من المسلمين فلم ينجحوا ، وقد كان لانتصار المسلمين وانتشار اللغة العربية ونهضتها أكبر أثر فى إضعاف مركز اللغة السريانية كما قلنا ؛ فقد ابتدأت اللغة السريانية تضعف بحلول اللغة العربية محلها ، واحتلالها مكانها فى البلاد التى كانت اللغة السريانية منتشرة فيها ، فكلما كانت اللغة العربية تتقدم كانت السريانية تتأخر حتى كادت تحتضر . وبنهضة الأدب الإسـلامى ـ وهو الأدب العربى ـ انحط الأدب المسيحى ، وهو الأدب السريانى . ومنذ ذلك الوقت شعر المسيحيون من السريانيين بالحاجة إلى تأليف كتب قواعد ومعاجم فى اللغة السريانية القديمة ، وكتابة القراءة الصحيحة والنطق الصحيح للـكلمات التى فى الـكتاب المقـدس والـكتب الأخرى ، حتى تحفظ اللغة ، ويحفظ الدين ، ولا يصعب فهم المعنى .

اللغة السريانية الحديثة

إن اللهجات الآرامية والسريانية لا تزال حيـة فى بعض الأقاليم كالجبال المعروفة بطور عابدين « Tur Abdin » فى بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) ، وفى جهات معينة فى شرق الموصل وشمالها ، وكذا فى الجبال المجاورة لـكردستان . وفى الشاطئ الغربى من بحيرة أُرْمِيَة[1] تجد المسيحيين هنـاك يتكلمون اللهجات السريانية الحديثة . وبعض هذه اللهجات معروفة بدقة إلى حدّما .

وتختلف لهجة طور عابدين كثيراً عن كل اللهجات الأخرى . وأهم اللهجات لهجة أُرْمِيَة التى كون منها المبشرون من الأمريكيين لغة علمية أدبية حديثة . ولقد قام مجمع رومة المختص بنشر مذاهب « البابا » بطبع كتب بلهجتين من لهجـات اللغة السريانية الحديثة . وهذه اللهجات تظهر لنـا أن هناك تغييراً تامًّا ، واختلافاً كبيراً بين اللغة السريانية القديمة واللهجات الحديثـة ؛ فمثلا قد اختلفت الصيغ القديمة للأفعال تقريباً ، ووضع مكانها صيغ جديدة مأخوذة من صيغة المضارع الحالى. وفى لهجة « طور عابدين » قد اخترعت « أداة تعريف » ، وفى لهجة أرمية حدثت اختصارات كثيرة بحذف بعض الأحرف اختصاراً ، وبإدغام الحروف بعضها فى بعض ، وحدثت تغيرات صوتية فى النطق . كل هذه الأمور قد أكسبت بعض هـذه اللهجات ـ وبخاصة لهجة أرمية ـ رقة فى اللفظ ، وحسناً فى الصوت .

---

(١) أرمية : قال ياقوت فى معجم البلدان جزء ١ ص ٢٠٢ ، « وأرمية : اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، بينها وبين البحيرة نحو ثلاثة أميال أو أربعة وهى فيما يزعمون مدينة زرادشت نبى المجوس ... رأيتها فى سنة ٦١٧م. وهى مدينة حسنة كثيرة الخيرات، واسعة الفواكه والبساتين، صحية الهواء ، كثيرة الماء » .

وقال فى جزء ٢ ص ٧٨ : « بحيرة أرمية : بحيرة مرة منتنة الرائحة لا يعيش فيها حيوان ولا سمك ولا غيره . وفى وسطها جبـل يقال له كبوذان، وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك . . . ويخرج منها ملح يشبه التوتيا » .

اللغة السريانية وما فيها من الدخيل

كان السريانيون فى الغالب يستطيعون أن يتكلموا لغة أجنبية على الأقل من لغات جيرانهم . وكثيرا ما كانوا يستعيرون أو يتبنون الكلمات الأجنبية المزخرفة ، ويستعملونها فى لغتهم ، حتى صار فى اللغة السريانية كثير من الدخيل ؛ فقد استعاروا كلمات من العرب والكرد والفرس واليونان ؛ ولذلك تجد فيها كثيراً من الكلمات الأجنبية .

الخطوط السريانية

تكتب اللغة السريانية من اليمين إلى اليسار كبقية اللغات السامية . أما الخطوط السريانية فثلاثة :

(١) الخط الإسترانجيلى .

(٢) الخط النسطورى .

(٣) الخط اليعقوبى .

أما الخط الإسترانجيلى فهو أقدم الخطوط ، وكان يستعمل قديماً فى نسخ الكتب الدينية ، ولا يزال يستعمل فى أوروبة فى طبع الكتب القديمة التى لا يراد شكلها وضبطها . وأما النسطورى فيلى الإسترانجيلى فى القدم ، وهو أصغر الخطوط كتابة ، ويضبط بالحركات السريانية ، وهى نقط تكتب فوق الحرف أو تحته . وكان يستعمله المسيحيون من النسطوريين نسبة إلى نسطور (بطريرك) القسطنطينية (من أبريل سنة ٤٢٨ ميلادية إلى وقت إدانته سنة ٤٣١) . وفى المصباح : النسطورية بالضم وتفتح : أمة من النصارى تخالف بقيتهم . وهم أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى

زمن المأمون ، وتصرف فى الإنجيل بحكم رأيه ، وقال : إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة . وهو بالرومية نسطورس . ونسطور هذا كان من جَرْمَانَس [1] ؛ وهى مدينة فى شمال سورية . عرف بالفصاحة وغيرته الدينية . وله نظرية خاصة بالمسيح وأمه ، اتهم من أجلها تهمة هدد فيها بالعزل إن لم يسحب نظريته . ولكنه تمسك برأيه ، وكانت النتيجة عزله . ولا يزال المسيحيون فى كردستان نسطوريين ؛ ويبلغ عددهم نحو ٧٠٠٠٠ نفس ، ويتكلمون اللغة الآرامية القديمة . ويسكن بعضهم بلاد الهند الجنوبية ، ويعرفون بالمسيحيين السريانيين . وتسمى الكتابة النسطورية فى الهند الكتابة الكلدانية ، وتعرف فى أوروبة بالنسطورية .

وأما الخط اليعقوبى فهو أكثر الخطوط السريانية شيوعاً . وكان يستعمله (الأرثوذكس) من المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية . ويسمى فى الهند الخط المارونى . وهناك فروق صغيرة بين اللهجتين : اليعقوبية والمارونية فى القواعد والنطق .

والمارونيون طائفة من المسيحيين فى لبنان ، ينسبون إلى راهب يدعى (مارو أو مارون) كان يعيش فى القرن الخامس الميلادى . ويستعمل القسس المارونيون اللغة السريانية القديمة فى عباداتهم ، ويبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠٠ نسمة ، ويسكن معظمهم لبنان . وهناك عداوة كبيرة بين المارونيين والدروز المجاورين لهم .

---

(١) قال ياقوت فى معجم البلدان جزء ٣ ص ٨٨ : جرمانا : بالفتح ، وبين الألفين نون : من نواحى غوطة دمشق . وجرمانس : بزيادة السين عوضاً من الألف الأخيرة . ذكرها الحافظ أبو القاسم ، من قرى الغوطة .

الفصل السادس

العـــرب

العرب قوم رحل موطنهم الأصلى شبه جزيرة العرب ، وتحد غربا بالبحر الأحمر وجزء من الشام ، وجنوبا بالمحيط الهندى ، وشرقا بالمحيط الهندى والخليج الفارسى والعراق العربى ، وشمالا بالجزيرة وجزء من الشام وفلسطين .

وتنقسم جزيرة العرب خمسة أقسام : وهى اليمن وتهامة والحجاز ونجد واليمامة . وقد أخذ اسم العرب من الإعراب وهو البيان . واختص العرب بالفصاحة، وانطلقت ألسنتهم بالبيان الرائع . ويقابل اسم العرب العجم ـ من العُجمة ـ وهم من عدا العرب، فيقال عَرَب وعُرْب كما يقال عَجَم وعُجْم . والعرب جمع مفرده عربى ، ويسمى أهل البادية منهم الأعراب، والواحد أعرابى ، وترادف كلمة عرب كلمة بادية أو بَوادٍ، فلا يبعد أن تكون تسميتهم عربا من إطلاق اسم المحل على الحال . ويؤيد ذلك ما قيل من أن أولاد إسماعيل عليه السلام نشئوا بعربة أو عربات وهى ساحة فى أرض تهامة ، ثم انتقلوا إلى الحجاز[1] .

وقد اختلف العلماء فى أصل القبائل التى تسكن الآن شبه جزيرة العرب .

---

(١) المعروف أن إسماعيل نشأ بمكة وأصهر إلى جرهم .

ويرى جميع المؤرخين من العرب أن القبائل الأصليـة فى بلاد العرب الشمالية من سلالة إسماعيل ، أما العرب فى الجنوب الذين سكنوا الأراضى الجبلية عدة قرون قبل ظهور أبناء إسماعيـل على مسرح التاريخ ، فيعتقد بعض العلماء أنهم من سلالة قحطان .

فلا ريب فى أنهم من الساميين كأهل الشمال . ويظن آخرون أن السكان الأولين لبلاد العرب الجنوبية كانوا قاشيين أو حاميين . ويعتقد بعض المستشرقين من الألمـان أن أبناء قحطان قد امتزجوا بأبناء قاش أيام العرب القدماء ، وكونوا شعبا واحدا .

ولا يشمل أبناء إسماعيل الذرية المباشرة له ، أى الاثنى عشر أميرا الذين ذكروا فى سـفر التكوين ، فى الآية السادسة عشرة من الإصحاح الخامس والعشرين ، ولـكنهم يشملون أبناء إيدوم ، وأبناء موأب ، وأبناء أمون ، وأبناء مدين ، وقبائل أخرى من أصل واحـد . وقد كتبت المعاجم التى شرحت العهد القديم كثيرا عن أبناء إسماعيل ومساكنهم وآثارهم .

وقد ادعى العرب أنفسهم أن قبائل الشمال من ذرية إبرهيم عليـه السلام . ويُثبت التعصب أو البغض الجنسى القديم بين أهل اليمن وأهل معد ـ نظرية وجود شعبين مختلفين يسكنان شبه جزيرة العرب من قديم الزمان . ولايزال الشعبان مختلفين حتى اليوم مع اتحادهما فى اللغة والدين . وإننا لا نفهم سبب العداوة والحقد بين أهل اليمن وأهل معد ، ولـكنها عداوة ثابتة لا تقهر . ويشبه بعضهم هذه العداوة بمادتين كيميائيتين تنفجران فى الحال حينما تمس إحداهما الأخرى . ولهذا وجد دائما أن من المستحيل على اليمنيين أن يعيشوا فى هدوء مع أهل معد ، وحتى فى العصور الحديثة

يكره أهل اليمن القريبون من بيت المقدس أهل معد سكان حِبْرون . وحينما يسألون عن سبب تلك الكراهة القديمة لا يجدون لديهم جوابا أكثر من أنهم كرهوهم من قديم الزمان .

وقد حدث أن دمرت مملكة دمشق بحرب مهلكة استمرت سنتين ؛ لأن مَعَدِّيا أخذ فاكهة من حديقة ليمنيّ . وقد غمرت مدينة مُرْسِية فى الأندلس بالدم سبع سنوات ؛ لأن مَعَديا قطف سهواً ورقة كَرْم ليمنيّ .

وقد سئل يمنيّ بالقرب من الكعبة : لقد دعوت لأبيك ، فلماذا لا تدعو لأمك؟

فأجاب اليمنى : لأمى !! كيف أدعو لها وقد كانت من معد ؟

ولا ندرى لماذا اختارها أبوه زوجا له .

وقد أسس اليمنيون قديما مملكة حمير ؛ تلك المملكة القوية التى استفاضت شهرتها فى التاريخ . وكان أهل اليمن من مهرة الملاحين فى البحار الشرقية ، وعلى حظ فى الصناعة والتجارة . وكانت لهم لغة كتابة كشفت فى العصر الحاضر فى بلاد العرب الجنوبية . وكان العرب من أهل معدّ (أبناء إسماعيل) أكثر تبدياً فى عاداتهم وأخلاقهم ، يرأسون القوافل التجارية العظيمة التى تضرب فى آفاق البر من عدن إلى مصر ، ومن بابل إلى تدمر ودمشق ، ومن وادى رَمَّة ونجد إلى العاصمة القديمة للحميريين وهى مأرب .

وقد كانت الطرق البرية التى تسلكها تلك القوافل أهم الخطوط التجارية قديما . وقد وحدت هذه القوافل شبه جزيرة العرب ؛ فأهل الشمال من العرب تأثروا بمدنية أهل الجنوب ، واتخذ أهل الجنوب منهم لغة أهل الشمال .

استمر الحال هكذا حتى وجدت سفينة الصحراء — وهى الجمل — منافساً قويا لها فى سفن

البحر، فتأخرت تجارة القوافل، واضمحلت نهائيا، وحل الفقر بتلك البيوت العربية التى أثْرَت من وراء هذه القوافل التجارية، وفقدت المدن العربية القديمة التى كانت تعد مراكز لتلك التجارة أهميتها، وضاعت شهرتها، وتقوضت أركان العمران فيها.

ويبدو لنا أن الشعب العربى قد تكوَّن قبل ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم بمدة ليست بالقصيرة.

ويقسِّم العربُ المحدثون أنفسهم قسمين: أهل البدو، وأهل الحضر. أو بعبارة أخرى: أهل الخيام، وأهل الحيطان. ولكن هذا التقسيم لا يكفى. وقد قسَّمهم «إدِيسُون. ل. كلَارْك» فى كتابه «العرب والترك» خمس طبقات، مبتدئا بالدرجة الأولى من السلم هكذا:

١ — العرب الذين استقروا وصاروا يشتغلون بالزراعة، ولو أن كثيرا منهم لا يزالون يسكنون الخيام. وقد حرمت هذه الطبقة من العرب حقوقها الوطنية، واحتقرهم إخوانهم البدو؛ لتغيير طريقتهم وأسلوبهم فى المعيشة والحياة.

٢ — القبائل الرحالة التى تجول حول البلاد المسكونة، ويختلطون بسكانها، وقد فقدوا كثيرا من أخلاقهم العربية.

٣ — الطبقة الثالثة طبقة العرب الذين يسكنون المدن والقرى التركية، وقد أضاعوا لغتهم، ونسوا أخلاقهم العربية.

٤ — الطبقة الرابعة سكان المدن والقرى من بلاد العرب خاصة، وقد صاروا فى عزلة عن بقية العالم.

٥ — القبائل البدوية العظيمة التى تسكن بلاد العرب، ولا تزال محافظة على الأخلاق العربية، والعادات البدوية، والملابس والنظم التى ورثوها عن

آبائهم الأولين . ولا شك أن الطبقة الأخيرة من العرب تمثل البدو الحقيقيين فى كل ناحية من النواحى .

وقد قسم المؤرخون العرب قسمين : بائدة و باقيـة . ومن العرب البائدة :

عاد : ومسا كنهم الأحقاف باليمن .

وثمود : ومسا كنهم الحِجر فى جهة عمان ومدائن صالح بين الحجاز والشام .

وأُمَيم : ومسا كنهم بادية أبار بين عمان والأحقاف .

وعَبيل : ومسا كنهم يَثرب ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وطسم وجديس : ومسا كنهم اليمامة .

والعمالقة : ومسا كنهم عمان والحجاز وتهامة ، و بعض نجد وتيماء ، وتَبراء وفلسطين . وهم القوم الجبارون الذين تهيَّبهـم قوم موسى ؛ إذ قالوا له : « يا موسى : إن فيها قوما جبارين . و إنَّا لَن ندخلَها حتى يخرجوا منها . » ومنهم جالوت وقد قص علينا القرآن قصته ، وكيف انتهى أمره بقتل داود عليه السلام له .

وجُرْهم : ومسكنهم باليمن ، ومن بقـاياهم قوم هاجروا إلى مكة ، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ، ثم بادوا مع من بادوا من العرب الأولين .

ووَبار : ومسكنهم اليمن فى وَبار المسماة باسمهم ، وقد هلـكوا أيضا .

والعرب الباقية أولاد قحطان وأولاد عدنان .

وتنقسم العرب أيضا قسمين باعتبار آخر وهم العرب العاربة أو العرباء ، والعرب المتعربة أو المستعربة .

فالعرب العاربة هم العرب البـائدة أولاد قحطان ، سموا بذلك لأنهم عرب صرحاء خلص ، ليس فيهم شائبة الدخيل ، ولفظ عاربة أو عرباء تأكيد ، كما يقال : ليلٌ لَائل ، وداهية دَهياء .

والعرب المتعربة أو المستعربة هم أولاد إسماعيل عليه السلام ؛ لأن إسماعيل عبرانى الأصل ، فهو ابن إبرهيم أبى الأنبياء الذى نشأ فى بلاد الكلدان ، ولما هاجر إبرهيم ومعه ابنه إسماعيل إلى أرض الحجاز ، بقى إسماعيل هناك ، ثم تزوج من قبيلة جرهم العربية وهى قبيلة يمانية ، وتعلم لسان جرهم ، ومنه نسل عرب الشمال وهم العدنانيون .

وهناك تقسيم عام للعرب يتعلق بسلسلة الأنساب . وليس فى العالم من يولع بعلم الأنساب كالعرب . وتتصل أسماء القبائل العربية فى كثير من الأحوال بسلسلة تصلهم بالعرب فى العصر الجاهلى . ولهذا تجد أسماء القبائل الأولى مأخوذة من اسم حيوان أو شىء فى الطبيعة كقبيلة نمر ، وكلاب ، وضَب ، وأنمار كلاب ، وذئاب ، وفهر ، أو مأخوذة من اسم مكان ثم حولت فيما بعد إلى أسماء أجداد كحضرموت ، أو من أسماء الأصنام وعبادتهم كعبد القيس وعبد اللات .

أخلاق العرب وصفاتهم

يختلف الناس باختلاف البيئة التى يعيشون فيها ، فأهل القرى يختلفون عن أهل المدن ، وسكان الصحراء يخالفون سكان السواحل فى أخلاقهم ومناقبهم . وقد عرف البدو من العرب بالشجاعة ، وأكرموا كل شجاع ، ومن شجعانهم عمرو بن معديكرب ، وعنترة بن شداد العبسى ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن الزبير .

واشتهرت نساء العرب بالشجاعة أيضاً ، ومنهن عمرة بنت علقمة الحارثية التى رفعت لواء قريش فى غزوة أحد ، والخنساء أخت صخر وغيرهما من النساء . وقد

كانت المرأة العربية تصحب الرجال فى ساحة القتال ، فتداوى الجرحى ، وتحمل الماء فى القرب .

ومن مناقبهم التى لا ينكرها أحد الجود والكرم، وأشهر كرمائهم حاتم الطائى، وهرم بن سنان ، وكعب بن أمامة الإيادى ، وخالد بن عبد الله .

وقد ضرب بهم المثل فى الوفاء، وعزة النفس ، وحب الحرية، وإغاثة الضعيف، وحمى الجار ، والفروسية ، والأخذ بالثأر .

عرف العرب بإباء الضيم ، والتفاخر بالآباء والأجداد ، وكثرة الرحيل ، واتقاء العار - فقد كان العربى يئد بناته مخافة العار - والمحافظة على الأنساب فلا يدخلون فيها دخيلا . وإذا تزوج أحدهم امرأة غير عربية ، وولد له منها ولد سمى ذلك الولد هجيناً ؛ أى قبيحاً من الهجنة وهى القبح . وإذا تزوجت المرأة العربية رجلا غير عربى سمى ابنها مُقْرِفاً . والإقراف أشد قبحاً من الهجنة . وقد كانوا يحترمون الأشهر الحرم وهى أربعة : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم . فكان العربى منهم يقابل قاتل أخيه أو أبيه فى تلك الأشهر ، وهو يبحث عنه ليأخذ بثأره ، فيغمض عنه الطرف ، ولا يتعرض له بسوء .

وقد عرفوا بالفصاحة والصراحة ، والنجدة والصبر ، وحب الحرية ، ومعاقرة الخمر . والقصة التالية إن صحت كانت دليلاً على حبهم للخمر ، حبًّا جعلهم يؤثرونها على سدانة البيت ؛ فقد باع أبو غبشان المسلكانى مفاتيح الكعبة لقصى بن كلاب بزق من الخمر وهو سكران ، فانتقلت بسبب ذلك سدانة الكعبة من قبيلة خزاعة إلى قبيلة قريش ، وفى هذا يقول الشاعر :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر فبئست صفقة البادى
باعت سدانتها بالنزر وانصرفت عن المقام وظل البيت والنادى

وتختلف أخلاق البدو من العرب عن أخلاق أهل الحضر منهم ؛ فالبدوى متأثر ببيئته ، ففيه الجفاء والقوة بخلاف الحضرى الذى تأدب بآداب المدن . وقد تأثر سكان الجزء الشرقى من بلاد العرب بالفرس فى خطابتهم وطعامهم وملبسهم ، كما تأثروا بهم فى هندسة المبانى . وكان لأفكار بلاد الهند الشرقية أثر فى بلاد العرب الجنوبية، وبخاصة حضرموت؛ للصلات التجارية التى كانت بينهما .

والعرب من الناحية الجسمية من أقوى شعوب العالم . قال « البارُون دِى لارِى » أحد قواد نابليون الأول : «إن العرب من الناحية الجسمية أقوى من الأوروبيين . وحواسهم قوية حادة ، وليسوا بالطوال ولا بالقصار ، وهم أقوياء الأجسام، صورتهم ظريفة ، ولونهم أسمر ، أذكياء العقول ، ويفوقون غيرهم فى كثير من الأمور » .

والوجه العربى بيضىّ الشكل مستدير ، وتبدو النحافة على العرب ، حواجبهم كثة ، عيونهم صغيرة سوداء أو عسلية ، حادة البصر ، والوجه يعبر نصفه عن الوقار، والنصف الآخر يعبر عن الدهاء والشفقة ، ولو أنه لا يبتسم . وأسنانهم بيضاء ، وصورتهم تمثل الرجولة ، وعضلاتهم قوية . ويعرف شبان البدو بحسن المنظر، وسواد الشعر . وفى سن الأربعين يبدو الشيب فى لحاهم . وفى سن الخمسين يظهر عليهم كبر السن .

ويميل العرب إلى (الأرستقراطية) . وقد يكثر النزاع بينهم حول أفضلية قبيلة على أخرى ، ولا يسمح بالزواج إلا بين قبائل أو عشائر من طبقة متساوية ، ويخضع العرب عادة لأحكام رؤساء القبائل ، ولا يحتمل العربى أن يسبقه رجل أقل منه حسباً .

والعربى جندى بطبيعته، مولع بالتفصيلات، محب للأمور العقلية، كثير الانفعال، محافظ على التقاليد العربية، يمجد الماضى، ويتأثر بالقديم الخالد، يميل بفطرته إلى الخطابة القوية المؤثرة الموجزة، ويغلو أحياناً فى الإطناب والتكرار والزخرفة والإيجاز الشديد خاصة من خواص الصحراء، أما الإطناب فمن خواص أهل المدن. والعربى مولع بالخط الجميل، ميال إلى الفنون الجميلة. وفى هذا ما يدل على أن له ذوقاً فنيا جميلا، وأن من السهل أن يكون حفاراً أو مصوِّراً أو رساماً.

والعربى معروف بالأدب، وكرم الخلق، والنشاط، والرجولة، وحب الفخر، والوفاء بالوعد، ويغلب عليه الخيال، ويبذل نفسه فى الدفاع عن العرض. لايهاجم بالليل. وهو يجتهد فى تجنب سفك الدم حينما يُغلب على أمره. وللضيف عندهم حرمة، وللجار عهد يجب الوفاء به. وهو أمين. يمكنك أن تثق به إذا عاهدك.

والشعر العربى فى العصر الجاهلى مظهر لحياة العرب، ومرآة صادقة لأخلاقهم، ترى فيها الشمائل العربية التى منها: الفروسية والبسالة، والشرف والشهامة، والوفاء فى الحب.

وكان لدى العرب القدماء قانون بأن مَن يسفك دمَ رجل فهو مدين بدمه لأسرة القتيل. ويعد قانون الأخذ بالثأر مقدساً فى كل مكان ببلاد العرب. ويكون العربى وضيعاً إذا قبِل الدية وتنازل عن حقه.

ويسكن العرب فى الخيام فى شمال بلاد العرب، والأكواخ فى جنوبها، والمنازل فى البلاد والمدن. وتحتوى الخيمة تسعة أعمدة، وترتب ثلاثة ثلاثة. وتغطى بغطاء من شعر المعز الأسود بحيث تكون قسمين: أحدهما فى الجهة اليسرى من الدخول وهو للرجال، والآخر فى الجهة اليمنى وهو للنساء. ويبلغ ارتفاع العمود

خمس أقدام أو أكثر ، وطول الخيمة يختلف من عشرين قدماً إلى ثلاثين ، وتؤثث بسجاجيد ، وبها أوعية للطبخ ، وسروج للخيل ، وقرب للمياه ، وأكياس للقمح ، ورحىً لطحن الحبوب .

وتبنى الأكواخ من شجر النخيل ، وتغطى بحصر من الخوص توضع فوقها لحفظها من العواصف والأمطار .

وتختلف البيوت فى بلاد العرب فى بنائها وهندستها وجمالها ؛ ففى اليمن مبان شاهقة كالحصون لكثرة الحجارة ، وجمال هندسة المبانى ، ولأنها كانت مهد حضارة قديمة شيدها الحميريون ، وارتقى فيها فن البناء .

وينتشر البناء الفارسى ذو الأقواس والأبراج والشُّرَف فى بغداد والبصرة ، وبلاد العرب الشرقية .

وتبنى البيوت فى مكة والمدينة بشكل نظام خاص يلائم حاجات الحجاج ، وتخلو الحيطان من الزخرفة والصور ، ويبنى سور عالٍ على السطح حتى لا ترى النساء .

ويلبس العربىُّ جلباباً فوقه عباءة ، ويضع فوق رأسه عقالا ، وفى وسطه حزاماً . ويحمل الأسلحة ، ويستعمل الخف أو الحذاء . وتلبس المرأة جلباباً واسعاً من القطن أسود اللون ، وفوق رأسها غطاء ، وتستعمل الوشم على يدها ووجهها ، ومن أدوات زينتها الحناء والأثمد (الكحل) .

وكانت العرب فى الجاهلية مختلفة الملل والنحل ؛ فكان بعضهم يعبد الأصنام ، وأشهرها سُواع ، ويَغوثُ ، ويعوقُ ، ونسر ، واللات والعزى ، ومناة . وبعضهم يدين بدين الصابئة ، وبعضهم ينكر الإله والبعث ، ويقول : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . ويعترف بعضهم بالإله ، وينكره بعضهم ،

وهم الذين نعى عليهم الله بقوله : « أَفَعَيِينَا بالخلْقِ الأوَّلِ بلْ هُمْ فى لَبْسٍ مِنْ خَلْق جَدِيدٍ » . ومنهم مَن تدين بدين اليهود أو النصرانية ، وحينما ظهر الدين الإسلامى أسلم أهل شبه جزيرة العرب جميعاً .

ويميل العرب بفطرتهم إلى الموسيقا والغناء قبل الإسلام وبعده . وكان الشعر والغناء قديماً يتصلان بعضهما ببعض كل الاتصال . وقد اعتاد الشاعر من الشعراء أن يلقى شعره أو يغنى أغانيه ، أو ينشد أناشيده فى مجالس المساء ، وفى الأسواق العامة والأعياد ، وبخاصة سوق عكاظ ، حيث تقرأ المعلقات السبع ، وكانت تكتب بالذهب ، وتعلق فى أستار الكعبة . ولم يخلِّف العرب الجاهليون شيئاً من فن الموسيقا يدل على اشتغالهم بهذا العلم ، على الرغم مما خلفوه من ثروة عظيمة فى اللغة والأدب . والربابة عند العربى كالمزمار عند الأسكتلندى . وكثيراً ما ينفخ الرعاة فى المزامير ، وتستعمل الطبلة فى أفراح الزواج والختان ، ولا يسمع الإنسان فى الصحراء كلها إلا الربابة .

يقول عنترة بن شداد : « إن غناء العرب كدوىِّ الذباب حينما يكثر التمر فى الأسواق » . وقد عاش عنترة فى عصر الجاهلية ، وربما يقصد بالغناء تلك الأغانى التى يغنيها حداة الإبل . ويعد الغناء العربى والنغمات الطويلة غريبة فى نظر الأوروبى . والموسيقا العربية جميلة فى نظر قليل من الغربيين . وليس عند عرب الصحراء من الأغانى سوى أغانى الحب أو الحرب .

وللبدو قراءة خاصة بهم تسمى الأَثَر ، وعلامة خاصة تسمى الوشم . وكل بدوى يستطيع أن يقرأ علم الأَثَر ، ويكتب قراءةَ وَشْمِه ولو كان جاهلا أو أميًّا .

والبدوى مولع بعلم الأَثَر ، وهو علم الخطَوَات ، مثله فى ذلك مثل الهنود الحمر فى أمريكا ، وهو يستطيع أن يحكم على آثار أقدام الإنسان أو الحيوان على الرمل ، ويمكنه أن يعرف آثار أقدام الصديق من العدو ، وآثار القبيلة أو العشيرة . ومن

طابَع القدَم الذى يتركه الجمل فى الرمل يمكنه أن يميز إن كان يحمل ثقلا أو لاَ ، أو كان سليما أو أعرج . ويعرف من أثَر قدَم الرِّجل أكان ذلك أمس أم منذ أسبوع مضى ؟ وفى قدرته أن يحكم إن كان الطابع منتظماً أو غير منتظم ، أو كان السائر متعباً أو غير متعب . وإذا كان طابع القدَمين الأماميتين للجمل أعمقَ من طابع قدميه الخلفيتين عرف أن الحيوان ضعيف الصدر . ومن البعر يعرف ضَيعة مرعى الجمال ، والمكان الذى أتت منه . وقد يتبع البدوى آثار الجمال أياماً إذا سرقت ، ليهتدى إلى الموضع الذى توارت فيه .

ولمعرفة ملكية الحيوان الذى يمتلكه البدوى يوسم بعلامة خاصة من علامات القبائل أو سِمات العرب، وهى علامات تجارية لإظهار المِلكية وحقيقتها، وشخصيتها. ويقول (دُوتِى) : «إنها كثيراً ما تشبه الحروف الحميرية، وربما تكون قد أتت من اليمن». ولكل قبيلة وَسم خاص بماشيتها . ولا يكتفى البدو بوضع سمات على الماشية، بل يضعون علامات على صخور قرب الآبار أو المراعى التى يفضلونها . وتعد هذه العلامات سجلاً أو دليلا يدل على أن قبيلة معينة قد حلت بها ، وشغلتها من قبل. ولكل قبيلة من القبائل الشهيرة سمتان أو ثلاث سمات مختلفة .

علامات قبائل العرب

جرمينة		نَيم		بنى ذوبيان	
حويتات		أبو رشيد		أبو اسميد	
ابن صخر		النجير		النيار	
بنو عطيه		أولاد على		"	
بنو زارات		" "		الحسين	
م. فندم		ثوالاه		بشر	
"		رواله		"	
لاحاوى		محب		ابن صخر	
حنيم		بشر		بنو صخر	
كراك		بلى		نَيم	

ولا يمتنع البدوى أن يستشير طبيباً إذا وجد الفرصة سانحة أمامه . والمفروض أن الطبيب يجب أن يعرف المرض وعلاجه بمجرد النظر . ويكثر مرض الكبد والحمى ، والطحال والحصوة ، والحصبة والجدرى بين العرب . ويستعمل الكىّ لديهم لكل نوع من أنواع المرض ، كما يستعمل الفصد علاجاً لمعظم الأمراض . ومن الأدوية المنزلية فى البلاد العربية النعناع والكزبرة والقرفة والزعفران والقطرون وقشر الرمان ، والخل ، وشراب التمر . وكان الحلاق فى قديم الزمان يعد طبيب أسنان ، وهو الذى يكوى ويفصد بعدد وآلات ربما كانت تستعمل فى القرون الأولى من غير رأفة أو شفقة ، ولكنه ، يستعملها بمهارة فائقة . وتعالج جروح الضرب بالرصاص بلزقات من البلح والبصل والتمر الهندى . وهناك خرافات كثيرة لا علاقة لها بشفاء المريض أو علاجه .

فضل العرب :

أقبل ابن المقفع[1] على جماعة من أشراف العرب فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ثم قال : لو مِلتُم إلى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوَّدتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه . ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه ، فقبلنا وملنا . فلما استقر بنا المكان قال لنا : أى الأمم أعقل ؟

فنظر بعضنا إلى بعض . فقلنا : لعله أراد أصله من فارس . فقلنا : فارس . فقال :

---

(١) ارجع إلى كتاب بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى جـ ١ ص ١٥٨

ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلقِ ، ولبث فيهم عَقْد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقِيَ حكم فى نفوسهم .

قلنا : فالروم ! قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين ! قال : أصحاب تُرفة . قلنا : فالهند ! قال : أصحاب فلسفة . قلنا : الخزر ! قال : بقر سائمة . قلنا : فقل .

قال : العرب . قال : فضحكنا .

قال : أما أنى ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة . إن العرب . . . . أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسِّن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه : « إِنَّ الأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » . فمن وضع حقهم خسِر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان .

الحيـــــاة العربية

إن أحسن وسيلة لمعرفة حياة الأسرة العربية النظر إلى حياة طفل فى الصحراء، وإلى مركز النساء بين البدو وسكان المدن . ولا يحتفل الفقراء من العرب بولادة الأطفال؛ لفقرهم ومعيشتهم فى أرض قحلة ، ولا يعيش من الأطفال إلا الطفل القوى السليم . ولا عجب إذا قلنا إن هـذه الأشياء وهى الفقر والمعيشة فى الصحراء وقانون البقاء للأصلح أثرت فى الأمم العربية كل التأثير ، ففى الخلاء فى الصحراء تحت ظل شجرة السنط أو خلف الجمل يرى الطفل العربى نُور النهار . وقد تلد هذه الأم طفلها وهى ترعى الغنم ، فتمسح الطفل بنفسها ، وتنظفه وتضعه فى ملاءتها ، ثم تحمله إلى خيمتها ، ولا ترضعه إلا مدة قصيرة . وكثيراً ما يشرب لبن الجمال بوفرة . وإذا بلغ الرضيع من العمر أربعة أشهر سمى اسماً يؤخذ من أى حادثة تتعلق بولادته ، أو من أى شىء يستميل خيـال الأم . ومع أن له اسماً خاصًّا ينادى الطفل من البدء باسم أبيه أو قبيلته. وكثيراً ما ينادى متصلا بأخته فيقال : ياأخانورة ، ويا أخا ليلى. وتسمى البنات عادة بأسماء النجوم أو الطيور أوحيوانات الصحراء ، فيقال: يازهرة ويا غزال ويا قمر .

الطفل العربى

وفى التربية العربية يترك الطفل للطبيعة ؛ فهو ابن الطبيعة حقًّا ، يتركه أبواه لنفسه تحت تأثير عوامل الطبيعة فى الصحراء معتمداً على نفسه ؛ فهو يربى منذ ولادته تربية استقلالية فى تلك المدرسة القاسية ؛ مدرسة الحياة البدوية ؛ كى يتعود احتمال

الأخطار والآلام . يقول بيرك هارْدِت : « لقد رأيت جماعات من أولاد العرب يلعبون وقت الظهيرة على رمل محرق فى منتصف الصيف ، ويجرون حتى يشعروا بالتعب . وحينما يرجعون إلى خيام آبائهم يوبخون ويزجرون على عدم استمرارهم فى اللعب والتمرينات البدنية » .

ويلعب الأطفال معاً ذكوراً وإناثاً ، حتى يبلغوا من العمر ست سنوات . ويعودون الاحتراس من الغريب ، كما يؤخذون بضروب من الشجاعة مدة الطفولة . وإذا بلغ الطفل من العمر سبع سنوات أقيم له عيد يحتفل فيه بختانه فى يوم خاص ، تذبح فيه الذبائح ، وتعد الولائم ، وتغنى النساء ، ويتسابق الشبان والرجال بالخيل ، ويتبارزون بالرماح ، وتزين البنات أنفسهن بزينات ليست بالغالية ، وتجمل أعمدة الخيمة بريش النعام ، ويعد اليوم يوم عيد وفرح عند الجميع .

ولأطفال البدو لعب قليلة ، لكنهم يستطيعون أن يدخلوا السرور على أنفسهم بكثير من الألعاب . وقد يتخذون من الجراد لعبة ، فيأتى الواحد منهم بالجرادة ، ويربط رجلها بخيط طويل ويطيرها فى الهواء . ويتعلمون الفروسية وركوب الخيل ، ويتخذون من قرون المعز أو الغنم آلات موسيقية ، ويعودون فى اليمن ونجد استعمال المقلاع مع الحصا . وهذا هو السلاح الأول للصبى ، ثم يقتنى لنفسه رمحاً أو سكيناً قديماً . ولمعيشتهم فى الصحراء لا يجدون وسيلة لتعلم القراءة والكتابة ، أما كتبهم فهى الطبيعة ، وهى كتاب جميل ، مملوء بصور بديعة ، زينتها قدرة الخالق ، لا يقدرها إلا تلك العيون السوداء العربية التى تلحظ الغنم فى مراعيها ، وتعد النجوم فى لياليها ، فى أثناء الرعى نهاراً ، والرحيل على الجمال ليلا .

والشاب البدوى وإن كان لا يستطيع أن يقرأ رسالة يمكنه أن يقرأ وجوه الرجال ، ويعرف الصحراء معرفة حقة . وكثيراً ما يسمع وهو جالس حول النار ، أو حول خيمة شيخ العرب ليلاً أحاديث الشجاعة والبطولة والفروسية والحكمة ، وفلسفة الحياة، وعدم الاكتراث للدهر ، والتحلى بالصبر ، والثقة بأن لكل شىء خاتمة جميلة .

والطفل البدوى يودع حياة الطفولة مبكرا، ويبدو فى نظر الغربيين رجلا صغيرا، وتبدو الطفلة امرأة صغيرة . وإذا بلغ الولد من العمر عشر سنوات تولى الذكر رعى الجمال ، والأنثى رعى الغنم .

ويبكر العرب فى الزواج . وقد يتزوج الشاب وعمره لم يتجاوز خمسَ عشرة سنة، ويلبس لباس الرجال ، ويفخر بأنه صار بعلا . وقد تتزوج البنت وهى صغيرة لا تتجاوز الثانية عشرة من العمر ، وتشتغل بغزل وبر الجمال ، وتغنى أغانى الماضى ، وتنتهى حياة الطفولة المحدودة ، وتبدأ حياة الرجولة أو الأمومة . وبقدر السهولة فى احتفال الزواج عند البدو تكثر العناية بالأفراح عند العرب من أهل الحضر . وبعد المفاوضات التى تسبق عقد الزواج يأتى العروس بخروف بين ذراعيه إلى خيمة آل الفتاة ، وهناك يذبح الخروف أمام الحاضرين ، فإذا ما سال الدم على الأرض ختم العقد ، وبدأ الفرح والمرح، والرقص والغناء ، وتقاد العروس ليلا إلى خيمة عروسها حيث يكون منتظرا وصولها .

ومهور العرائس فى المدن أكثر منها فى البدو . ويعد طلب نقود لزواج عروس معيبا فاضحا عند قبائل معينة من العرب . ويجد نساء البدو الحرية والعدالة أكثر من نساء المدن .

وإذا نظرنا إلى تاريخ العرب وجدنا أن للعرب فضلا كبيرا على الحضارة والمدنية، والعلم والأدب ، وخاصة بعد الإسلام .

وإن نظرة واحدة إلى آراء ابن خلدون والغزالى والفارابى والكندى وابن العربى وغيرهم فى التربية والتعليم والثقافة تدلنا على ما كان لهم من فضل عظيم فى دوائر المعرفة، من دين وفلسفة ، وعلم وأدب .

ويظن العربى أن المرأة سبعة أرواح ، وأنها تميل بطبعها إلى الشر . ويندر ضرب البدوى لزوجته . فإذا ضربها استغاثت بوصيها أو حميها ، فيحضر ويهدئ زوجها ، ويعيده إلى عقله وتفكيره . وتقوم المرأة العربية بجميع الأعمال المنزلية ؛ فهى التى تطحن القمح على الرحى ، وتعد الطعام ، وتخبز الخبز ، وتصنع الزبد ، وتحضر الماء ، وتغزل الصوف والوبر والشعر ، وتعمل فى النول ، وتصلح الخيمة إذا خلقت ، ولا تسأم العمل ، فى حين يجلس زوجها أو أخوها أمام الخيمة يدخن أو يشرب القهوة .

والمرأة البدوية جميلة مستبشرة ، وفية ، كريمة الخلق ، مخلصة فى عملها ، معاونة لزوجها ، تقوم بواجبات شاقة فى العمل بخيمتها وخارجها . وتعيش فى جهة منعزلة عن الرجال . وفى الصباح تخرج لجمع الحطب والوقود ، وليس لها سلطان على زوجها . وفى خيمة النساء يقوم شيخ القبيلة بحل المشاكل وتقرير الأمور .

التربية عند العرب :

إن من يطلع على ما كتبه الفارابى والغزالى وابن سينا وابن خلدون ، وابن رشد، وابن مسكويه ، وابن المقفع ، ومحيي الدين بن العربى ، وإخوان الصفا لا يستطيع

أن ينكر أن العرب عنوا بتربية أطفالهم تربيـة طبيعية ، تربية جسمية وعقلية ، تربية خلقية ووجدانية ، تربية حربية ، تربية وطنية كلها استقلال وحرية ، وأن العرب كان لهم أكبر الأثر فى الحضارة والمدنية . وليس فى استطاعتنا أن نوفى هذا الموضوع حقه فى هذا الكتاب . ونرجو من الله العلى القدير أن يوفقنا لخدمة العروبة؛ حتى نكتب كتابا مستقلا ، عن التربية عند العرب ، وأثر العرب فى العلوم والمعارف والحضارة التى نراها اليوم ؛ كى نقوم بواجبنا نحو الشرق الذى أنكر الغرب فضله ، ونحيى ماضينا المجيد ، وحضارتنا الخالدة ، ونستعيد عصر المنصور والمأمون والرشيد ، وعظمة بغداد وقرطبة والقاهرة .

أثر العرب فى الرياضيات والعلوم :

لقد كان للعرب أثر كبير فى العلوم والرياضيات والفلك ، فى الوقت الذى كان فيه الغرب والغربيون بعيدين كل البعد عنها ، فقد أهدى الشرق إلى الغرب كنوزاً علمية ، هى سر الحضارة الأوروبية اليوم . ولا ننكر أن العرب قد أخذوا من اليونان بعض النظريات العلمية ، ودرسوها دراسة عميقة ، وفهموها فهما جيداً ، ثم أضافوا إليها كثيراً من النظريات الحديثة ، والبحوث الجديدة .

وفى استطاعتنا أن نقرر أن العرب قد قدموا للعلم أكبر خدمة ؛ فللعرب مآثر فى الحساب والهندسة والجبر ، والفلك والمثلثات والشعر . ومن علمائهم : محمد بن موسى الخوارزمى فى عصر المأمون ، وله أثر كبير فى الفلك والرياضيات وعلم الجبر . وهو أول من انتفع بعلم الجبر ، وألّف فيه .

وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن أول من كتب فى الجبر أبو عبد الله

الخوارزمى ، و بعده كامل شجاع بن أسلم[١] . فالخوارزمى عالم عربى ابتكر كثيراً ، وكان له أكبر الأثر فى الرياضة والفلك .

ولا يمكننا أن ننسى ابن سينا[٢] فى الطب والفلسفة ، والكندى فيلسوف الإسلام ، والحسن بن الهيثم ، وأحمد أبا حنيفة الدينورى[٣] ، وثابت بن قرة[٤] ، وكان يحسن اللغات العبرية والسريانية واليونانية . وهل نستطيع أن ننكر أثر عمر الخيام[٥] فى الرياضيات والفلك والفلسفة والشعر ؟

وقد ذكر ابن خلكان أن فخر الدين الرازى فريد عصره ، ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه فى علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل[٦] .

ويجب على كل عربى إحياء ما تركه علماء العرب وأدباؤهم من ذخائر علمية وأدبية ، و إخراج تلك الكنوز من أصولها ، ونشرها فى العالم العربى ؛ حتى يشعر العرب بما كان لآبائهم الأولين من أثر فى الحضارة والمدنية ، والعلوم والمعارف ، ويعملوا على أن يعيدوا مجدهم القديم ، و يحيوا آثارهم التالدة . وثقافتهم الخالدة .

---

(١) ارجع إلى مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٩ .
(٢) ولد سنة ٩٨٠ م وتوفى سنة ١٠٣٧ م ويلقب بالشيخ الرئيس .
(٣) ولد فى القرن الثالث للهجرة ، وتوفى سنة ٢٨٢ هـ سنة ٨٩٥ م .
(٤) (٢٢١ هـ — ٢٨٨ هـ).
(٥) ولد فى أواخر النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، وتوفى بنيسابور سنة ١١٢٣ م.
(٦) ارجع إلى كتاب «تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك» تأليف قدرى حافظ طوقان هدية المقتطف سنة ١٩٤١ .

الفصل السابع

اللغـــة العربية

اللغة العربية هى إحدى اللغات السامية الجنوبية ، وهى العربيـة والحبشية وتسمى الجعزية .

وتنقسم اللغة العربية إلى لهجات ، فلهجة فى الجزء الأكبر من بلاد العرب ، ولهجة سبأ فى الجنوب ، ولهجة بلاد العرب فى الشمال . وقد كشف بعض الرحالين آثاراً ونقوشاً فى بلاد الحجاز فى الشمال كتبت بحروف غير معروفة إلى الآن ، ويظهر أنها نقوش سبئية كتبت قبل عصر المسيح ، ويسمى بعضهم الكتابة السبئية الكتابة الثمودية أى كتابة ثمود ، لأنها وجدت فى بلاد ثمود حينما بلغت ثمود مبلغاً كبيراً من القوة . وقد تحدث القرآن الكريم عن حضارة ثمود، وما كان لهذه القبائل من نفوذ وسلطان. ويسمى بعض اللغويين هذه النقوش بلغة الصراصرة ، ويسميها آخرون الكتابة اللحيانية . ولسوء الحظ كانت الكتابة التى عثر عليها قليلة مختصرة لا يحصل منها العالم اللغوى إلا على مادة قليلة جدًّا ، ولكن لا يشك أحد فى أنها كتبت بلهجة عربية متوغلة فى القدم .

وفى بعض الجهات فى شمال الحجاز وما يجاورها من بلاد نجد قد كشفت كتابات عربية ، ونقوش مختصرة أخرى ، وكان معظمها مبعثراً على صخور هنا وهناك . وتشبه كتابتها الكتابة اللحيانية ، ومعظمها رموز ، ولا تحتوى إلا أعلاماً ، ولا يفهم معنى كثير من كلماتها . كل هذا يجعل من الصعب الوصول إلى معرفة اللغة العربية الأولى بالدقة .

وفى القرون الأولى من العصر المسيحى عثر على آلاف من النقوش والكتابة العربية فى الجهات الصخرية فى الجنوب الشرقى من دمشق ، وتسمى لهجة « الصفا » ، أو اللهجة الصفوية ، وهى جهة قريبة من دمشق . وقد حفرت هذه الكتابة على حجارة صخرية ولم يحفر منها شىء بعناية إلا القليل . وكان من الصعب شرح تلك النقوش وتفسير تلك الكتابات القديمة ، لعدم وجود شىء يحاكيها باللغة العربية الحالية . ولو أن تلك الكتابة الأثرية والنقوش القديمة فى لغة الصفا ، واللغة اللحيانية ـ لا نستمد منها أخباراً عن الحوادث الهامة المجهولة ، فإنها لا تزال تعلمنا كثيراً عن حياة القبائل العربية وأعمالهم وحرفهم . تلك القبائل التى حل غيرها محلها . وللأسماء والأعلام التى تؤخذ من تلك الكتابة الأثرية قيمة كبيرة فى نظر العالم اللغوى .

إن العرب الذين كانو يسكنون مملكة الصراصرة[1] كانوا يستعملون اللغة الآرامية فى كتابتهم ، ولكن لغتهم الأصلية كانت اللغة العربية ، ويظهر أثرها فى كتابتهم بالآرامية . وعلى هذا فنحن قادرون على أن نقول : إن هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون قبيل المسيح وبعيد المسيح كانت لهجتهم تشبه اللغة العربية القديمة

---

(١) Nabatians of Syria

كل الشبه، فأصول الأسماء والأفعال ثلاثة أحرف كما فى العربية القديمة، ونهاية الكلمات ونطقها كما فى العربية القديمة ، أما العرب الذين كانوا يسكنون إدِسا وبالميرا فقد كانوا أيضا من سلالة واحدة ، وجنس واحد . ومن الممكن أن تكون كتابة نمارة[1] فى الجنوب الشرقى من دمشق كتابة عربية ، لكن بحروف الصراصرة ، ويرجع تاريخها إلى ٣٢٨ بعد الميلاد .

وفى الوقت الذى كان فيه للغة الآرامية الغلبة والانتشار أثرت تلك اللغة الآرامية فى اللغة العربية تأثيراً عظيماً . وكلما أمعنا فى الفحص والاستقصاء اتضح لنا أن كثيراً من الكلمات العربية التى كانت تستعمل للتعبير عن بعض الأفكار أو المواد التى تدل على درجة معينة من المدنية قد استعيرت من اللغة الآرامية . ومن هذا نستنبط أن العرب قد شعروا بالمدنية التى كانت لدى جيرانهم الآراميين فى الشمال، وأنهم قد تأثروا بها ، فكان لتلك المدنية أثر عظيم فى إعداد العرب لأن يمثلوا دوراً هاما جدا فى تاريخ العالم .

اللغة العربية القديمة :

فى القرن السادس الميلادى كان معظم السكان فى شبه جزيرة العرب يتكلمون لغة واحدة فى كل مكان ؛ تلك اللغة كانت أهم اللهجات العربية ، وهى المعروفة الآن باللغة العربية القديمة ، وكان الشعر العربى فى ذلك الوقت شعراً مهذباً فى جميع

---

(١) النمارة : قصر صغير للروم على مقربة من دمشق جنوبى منطقة الصفا . وينسب إليه نقش يرجع تاريخه إلى سنة ٣٢٨ بعد الميلاد . وهو يشير إلى قبر امرئ القيس بن عمرو الذى كان من ملوك الحيرة ، وامتد نفوذه إلى الشام . ومنطقة الصفا واقعة بين تلال الصفا وجبل الدروز .

أنحاء بلاد العرب الشمالية ، و بلاد نجـد حتى ما وراء نهر الفرات . وكان الشعراء لا يستعملون إلا لغة واحـدة هى اللغة العربية ، ولم تدون القصائد العربية المنسوبة للعصر الجاهلى إلا بعد ذلك العصر ؛ فقـد كانت تنقل بالرواية من راوٍ إلى آخر . فلا غرابة إذا اعتراها كثير من التغيرات . و إن المتتبع لقوانين الشعر العربى ـ الذى له دراية بها من وزن وقافية ـ يرى أن هذه القصائد لم تخرج عنها ، على الرغم من أن علماء النحو ، قد عثروا على أشياء تخالف أصول النحو واللغة ، وذلك لموافقتها للهجة القبائل الخاصة . على أنه من المحتمل أن تـكون هذه المخالفات قد حصلت بعد ذلك، إذا لم تـكن فى سجع أو قافية ؛ لأن التغيير فى هذه النواحى يفسد الشعر ، ويذهب روعته . لـكن هذه التغييرات لم يطل بهـا الزمن ؛ لأن كل لهجة قد تشعبت واختلفت كثيراً عن اللغة العربية ؛ لغة علماء النحو والصرف ، ولا تصلح لأن تنسج منها أوزان الشعر ومقاييسه .

وقد لحظ علماء اللغـة وجود خلافات وفروق صغيرة بين لهجات القبائل بعضها و بعض ، و بين شاعر وآخر . و يظن بعض العلماء أن لغة الشعر عنـد معظم العرب كانت لغة صناعية ، وأن الشعراء فى جميع الجهات العربيـة قد استعملوا فى شعرهم لهجة قبائل معينة فى إنشاد قصائدهم .

إننا نسلم بمثل هذا الظن إذا رأينا هذا الاختلاف مقصورا على الشعراء الذين يجوبون الأقطار ، وقد اتخـذوا الشعر وسيلة لـكسب عيشهم ، وتحصيل قوتهم ، كالنابغة الذبيانى ، والأعشى ، ولـكن حينما نجـد البدو رعاة الغنم الذين يقطنون الجهات الجبلية قرب مكة ينظمون قصائد شعرية بتلك اللهجات نفسها نرى أنها تدور حول شئونهم الخاصة ، من مشاجرات شخصية ، وتنافس فى الزعامة والرياسة والفخر ؛

فرؤساء تغلب يفخرون بالشجاعة والنجدة ، ورؤساء بكر يخاطبون ملك الحيرة بشعر ينبض بالشجاعة والبطولة ، وطلب المبارزة فى الميدان .

وحينما ننظر إلى الشعر العربى الجاهلى نرى أنه ليس هناك أثر لوجود فرق كبير من الوجهة اللغوية . فمن التناقض أن ندعى أن كل هؤلاء العرب الغُيُر على شرف قبائلهم الذين لا يعرفون معظم القراءة والكتابة ـ استطاعوا أن يكلفوا أنفسهم التعبير عن أفكارهم وشعورهم بلغة أجنبية أو صناعية .

وقد اتفق علماء اللغة العربية بالإجماع على أن لغة الشعراء فى الجاهلية كانت اللغة السائدة فى شبه جزيرة العرب . وقد كان عرب البادية فى القرن الثالث الهجرى يعرفون بأنهم يجيدون اللغة العربية الصحيحة التى لم تشبها لكنة الأعاجم ، ولم تفسد سلائقهم العربية . ولهذا عمد النحويون وعلماء اللغة إلى الهجرة إلى البادية ، ومشافهة أولئك الفصحاء ، والنقل عنهم . كانوا يفعلون ذلك ، ويأخذون عن هؤلاء البدو فى الوقت الذى لم يحفظ فيه الواحد منهم عشرين آية من القرآن ، ولم تكن لديه أى فكرة عن النحو . وكانوا يأخذون برأيهم فى التعبير عن بعض الأمور فى اللغة العربية سائلين : هل ورد هذا التعبير أو لم يرد ؟ أصحيحة هذه العبارة أم خطأ ؟

ويتضح لنا أن هؤلاء العلماء المتعمقين فى اللغة لم يعرفوا إلا لغة واحدة هى لغة البدو فى بلاد العرب ، وبعبارة أخرى هى اللغة العربية القديمة . وينسب معظم الشعراء فى العصور الأولى للغة العربية إلى بعض القبائل فى الحجاز ونجد وما يجاورهما وإلى الجهات القريبة من نهر الفرات .

ويجب أن نذكر أن بعض بلاد الحجاز لم يظهر لها أثر كبير فى الشعر العربى القديم ، أما العرب فى الشمال الغربى الذين كانوا خاضعين للرومان فلم يكن لهم

أى نصيب فى ذلك الشعر . وقد أنتجت قبائل تغلب وغيرها شعراء مشهورين كانوا يتدينون بالدين المسيحى . وكان أمراء غسان بالقرب من دمشق يرحبون ويحتفون بمن يظهر لديهم من الشعراء . ويمكننا أن نقول : إن القبائل التى عرفت بالنبوغ فى الشعر العربى يبدو أنها كانت متجاورة فى الإقليم وفى العصر . ثم تفرق الشعراء بعد ذلك إلى طوائف كثيرة فى بلاد واسعة الأرجاء ، وكان الشعراء يحترمون الحرم بمكة ما عدا المسيحيين منهم .

لهجة قريش التى نزل بها القرآن الكريم :

ومن الخطأ الشائع بين الأوروبيين القول بأن اللغة العربية هى لهجة قريش فحسب ؛ فإن هذا الحكم لم يقل به مؤلف عربى يعتد به . حقا إننا نقرأ فى بعض الأحوال عن لهجة قريش وهى لهجة مكة ، ولكن الحكم على اللغة العربية بأنها لغة قريش وحدها حكم يخالف العقل ؛ كما لو قلت فى وصف اللغة الإنجليزية : إنها لغة لندن أو لهجة أكسفورد . ومع الأسف ، قد جعلت تلك الفكرة القائلة بأن اللغة العربية هى لغة قريش أساساً لنظرية خاطئة كثيرا ما تكرر فى العصر الحاضر ؛ تلك النظرية هى أن اللغة العربية القديمة ما هى إلا لغة قريش بمكة . والحق أن لغة المحادثة فى بلاد الحجاز لم تتفق من جميع الوجوه مع لغة الشعراء ، ولكن يمكننا أن نقول : إن قبيلة قريش كانت تتكلم اللغة العربية الفصحى ؛ لغة القرآن الكريم . وقد كان للقرآن الكريم أثر كبير فى لغة الشعراء فى صدر الإسلام . وقد حُفظ الشعر الإسلامى بشكله الحقيقى أكثر مما حفظ الشعر الجاهلى ؛ لأن رواة الشعر الجاهلى أضافوا إليه ما ليس منه ، ونحلوا شعراءه كثيرا من قصائده .

وقد رفع القرآن الكريم والإسلام من شأن اللغة العربية ، حتى صارت إحدى اللغات الرئيسة الهامة فى العالم . وبقيادة قريش أخضع العرب نصف العالم ، فانتشر الدين الإسلامى ، وخضعت أمم وممالك للسلطة العربية ، والحكم الإسلامى. وقد صارت اللغة العربية لغة مقدسة ، وهذه ميزة أخرى لها . وقد اتضح لعلماء البحث واللغة أن كل العرب تقريبا كانوا يتكلمون لغة تقرب كل القرب من اللغة العربية القديمة ؛ لغة الشعراء القدماء . وقد لعب العرب الذين كانوا يقطنون فى الشمال الغربى من شبه جزيرة العرب دوراً هاما ، ومثلوا فصلا عظيما فى أثناء عصر بنى أمية . وقد انقطعت لغة المحادثة لأهل مكة والمدينة عن أن تكون تلك اللغة العربية لغة الصحراء .

وقد أجمع العلماء والرواة والأدباء واللغويون على أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ؛ وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبى الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشا قُطَّانَ حَرَمه ، وجيران بيته الحرام وولاتَه ، فكانت وفود العرب من كل أصقاع الجزيرة يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها (أهل الله) ؛ لأنهم (الصريح) من ولد إسماعيل عليه السلام ، لم تشبهم شائبة ، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة ، فضيلة من الله جل ثناؤه لهم ، وتشريفا ؛ إذ جعلهم رهط نبيه الأَدْنَيْن ، وعِترته الصالحين .

وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا

من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، وكانوا يفعلون ذلك حينما تجتمع تلك الوفود بالأسواق المطيفة بمكة .

ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عَنعنة تميم ، ولا كَشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا عجرفية قيس ، ولا الكسر الذى تسمعه من أسد وقيس ، مثل تِعلمون : ونِعلم فى قولك تَعلمون ونَعلم ، ومثل شِعير و بِعير بدلاً من شَعير و بَعير .

وقد نزل القرآن بلغة قريش ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر » ، وهى أفصح قبائل هوازن ، وكان مُسترضَعاً فيهم . وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : « أفصح العرب عُليا هوازن ، وسُفلى تميم » . ومن عليا هوازن قبائل سعد بن بكر ، وجُشَم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثَقيف .

وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يُستَحَبُّ أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مُضَر . وقال سيدنا عمر رضى الله عنه : « لا يُمْلِيَنَّ فى مصاحفنا إلا غلمان قريش وثَقيف » . وقال سيدنا عثمان : « اجعلوا المُمْلِيَ من هُذَيْلٍ ، والكاتبَ من ثَقِيفٍ » .

خصائص اللغة العربية ومميزاتها

تمتاز اللغات السامية من سائر لغات البشر بوفرة كلماتها ، واطراد القياس فى أبنيتها ، وتنوع أساليبها ، وعذوبة منطقها ، ووضوح مخارج حروفها . وتفضلها اللغة العربية فى كل ذلك ؛ لتصونها زمن جاهليتها قروناً سحيقة فى شبه جزيرة العرب، وتقدمها فى الطريقة النظرية التى نشأت عليها ، آمنة شر الامتزاج بلغة الفاتحين ، أو لهجة المغيرين ، حتى ظن كثير من العلماء الباحثين أنها لغة وليدة مواضعة ، واصطلاح متعمد ، من حكماء أهلها ، لا أنها لغة فطرية تدريجية ، وهى من أقدم اللغات السامية ، بل هى أصلها على رأى كثير من علماء عصرنا الغربيين والشرقيين.

ولا يمكننا أن ننسى أن الإعراب ، والإيجاز ، والسجع ، وكثرة المترادفات ، ودقة التعبير من خصائص اللغة العربية .

واللغة العربية الفصيحة التى نحن بصدد الكلام فيها نشأت من الآرامية فى الشمال ، والسبئية فى الجنوب ، إلا أن آرامية الشمال تغلبت على السبئية فى القرون القريبة من الإسلام ، متمثلة فى العدنانية مع بقاء الحميرية مستعملة فى بعض مواطن اليمن إلى ما بعد الإسلام بقليل ؛ ولكن العدنانية فى جملتها لم يحفظ كيانها بعد الإسلام ، بل تغلبت عليها المضرية بنزول القرآن بلغة مضر ، ولأن أكبر أهل الحل والعقد من العرب كانوا من مضر وخاصة قريش .

ولم توضع اللغة العربية كلها فى وقت واحد ، ولا يعلم بالضبط أى الأنواع الثلاثة: الاسم ، والفعل ، والحرف وضع قبل غيره. والطريق إلى معرفة اللغة النقل المحض ، أو استنباط العقل من النقل . ومن شأن اللغوى أن ينقل مانطقت به العرب ولا يتعداه.

ومن شأن النحوى أن يتصرف فيما ينقله اللغوى ويقيس عليه ، فيقيس المنثور على منثور العرب ، ويقيس الشعر على شعرهم .

واللغة العربية غنية لا يستطيع أن يحيط بها أحد . قال أحد العلماء : إن لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا يستطيع أن يحيط به إنسان غير نبى . قال ابن فارس : إن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها ، وإن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير . وإن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله ، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير ، وكلام كثير .

قال أستاذنا العالم الجليل المرحوم الشيخ أحمد الإسكندرى : « إن أول من صنف فى جمع اللغة الخليل بن أحمد صاحب كتاب العين المشهور ، وألف بعده أبو بكر بن دريد كتاب الجمهرة ، نسجه على منوال العين ، ثم ألف أتباع الخليل كتباً شتى فى اللغة ، منها المطول والمختصر ، ومنها العام فى أنواع اللغة ، والخاص بنوع منها ، كالأجناس للأصمعى ، والنوادر واللغات لأبى زيد الأنصارى ، والنوادر واللغات للفراء ، والتذكرة لأبى على الفارسى ، والتهذيب للأزهرى ، والمجمل لابن فارس ، وديوان الأدب للفارابى ، والمحيط للصاحب بن عباد ، وغير ذلك مما لا يحصى » .

وقد حكى عن الصاحب بن عباد أن بعض الملوك أرسل إليه رسالة يسأله القدوم عليه ، فقال له فى الجواب : أحتاج إلى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التى عندى . وقد ذهبت هذه الكتب كلها فى الفتن التى نشأت من التتار وغيرهم ، حتى إن الكتب الحية الآن فى اللغة من تأليف المتقدمين والمتأخرين لا تكفى حمل جمل واحد . ولم يلتزم المؤلفون فى معظم هذه الكتب الصحيح فى اللغة ، بل جمعوا فيها ما صح ، ونبهوا على ما لم تثبت صحته غالباً . وأول من التزم الصحيح واقتصر عليه

الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، ولهذا سمى كتابه بالصحاح. وأعظم كتاب ألف فى اللغة بعد عصر الصِّحاح كتاب المحكم والمحيط الأعظم لأبى الحسن على بن سيده ، الأندلسى الضرير ، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . ثم كتاب القاموس للفيروزابادى . ولم يصل كتاب من هذه الكتب فى كثرة التداول إلى ما وصل إليه الصِّحاح . ولم تنقص رتبته ولا شهرته بوجود هذه الكتب ؛ لالتزامه ما صح ، فهو فى كتب اللغة كصحيح البخارى فى كتب الحديث . وليس المدار فى الاعتماد على كثرة الجمع ، بل على شرط الصحة .

وقال السيد محمد مرتضى فى كتاب تاج العروس معلقا على القول بأنه لم يصل واحد من هذه الكتب إلى ما وصل إليه الصِّحاح بأن هذا الحكم صحيح بالنسبة إلى زمانه ؛ فقد بلغ القاموس بعد ذلك فى الاشتهار مبلغ ظهور الشمس فى رابعة النهار. قال السيوطى : « ومع كثرة ما فى القاموس من الجمع للنوادر والشوارد فقد فاتته أشياء ظفِرت بها فى أثناء مطالعتى لكتب اللغة ، حتى هممت أن أجمعها فى جزء مذيلا عليه ». وقد يسر الله هذا للسيد مرتضى صاحب تاج العروس ، فجمع ما ظفر به من الزوائد عليه فى مسوَدَّة لطيفة .

قال ابن فارس : لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها . قال جل ثناؤه : « وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين ، نزلَ به الروحُ الأمين ، على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين ، بلسانٍ عربىٍّ مبين . » فوصفه جل ثناؤه بأبلغ ما يوصف به الكلام ، وهو البيان (١) .

وقال جل ثناؤه : « خلَقَ الإنسانَ علَّمه البيانَ . » فقد ذكر البيان على جميع ما تفرد بخلقه وإنشائه ؛ من شمس وقمر ، ونجم وشجر . فلما خص جل ثناؤه اللسان العربى بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عن اللغة العربية ، وواقعة دونها . فإن قال

(١) ارجع إلى المزهر لجلال الدين السيوطى ج ١ ص ١٨٧ـ٢٠٠

قائل : قد يقع البيان بغير اللسان العربى ، لأن كل من أفهم بكلامه بلغته فقد بَيَّن .

قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعبر عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فهذا أدنى مراتب البيان ؛ لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يسمى متكلماً ، فضلا عن أن يسمى مُبيناً أو بليغاً . وإن أردت أن جميع اللغات تُبِين إبانةَ اللغة العربية فهذا خطأ ؛ لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية ما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، فى حين أننا نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس ، وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ هذا لا يخفى على ذى نهية وعقل .

وقال بعض العلماء حينما ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن الكريم : وكذلك لا يقدر أحد من المترجمين على أن ينقل القرآن الكريم إلى لغة من اللغات ، أولسان من الألسنة ، كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله بالعربية ؛ لأن غير العرب لم تتسع فى المجاز اتساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى « وإمَّا تخافَنَّ من قوم خيانة فانْبذ إليهم على سَواء.» لم تستطع أن تأتى بالألفاظ المؤدية للمعنى الذى أُودِعَته حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك و بين قوم هدنة وعهد ، فخفت منهم خيانة ونقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم ، وآذِنهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العِلم بالنقض على استواء .

والشعراء قد يُومِئون إيماء ، ويأتون بالكلام الذى لو أراد مريد نَقْله لصَعُب عليه ذلك ، وما أمكنه إلا بمبسوط من القول ، وكثير من اللفظ . ولو أراد أن يعبر عن قول امرئ القيس :

فدَعْ عنكَ نَهْبًا صِيحَ فى حَجَراته[1] .

بالعربية فضلا عن غيرها لطال عليه .

وكذا قول القائل : « والظن على الكاذب[2] » .

« ونِجَارُها نَارُها[3] » و « عَيَّ بالأَسْنَافِ[4] » و « هُو بَاقِعَةٌ[5] » وهو كثير، بمثله فاقت لغة العرب اللغات .

ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والإخفاق، واليقين والشك، والظاهر والباطن ، والحق والباطل ، والمُبين والمُشكل ، والاعتزاز والاستسلام لَعَيَّ به .

---

(١) هذا صدر بيت له من قصيدة ، يذم فيها خالد بن سدوس . قال الشنقيطى وتمامه : « ولكن حديثاً ما حديث الرواحل » . وليس هذا دون صدره فى معناه .

(٢) من قطعة فى حماسة أبى تمام ، للحارث بن هجان الشيبانى ، والبيت الذى فيه هذه الجملة هو قوله :

أنا ابنُ زِيابَةَ إن تَدْعُنِى آتِكَ والظنُّ على الكاذِب

(٣) نجار الشىء : أصله . والنار : السمة . يقال : ما نار هذه الناقة ؟ أى ما سمتها ؟ . و « نجارها نارها » مثل يضرب فى شواهد الأمور التى تدل على علم باطنها ، كما تدل سمة الإبل على أصلها .

(٤) السناف والأسناف : كاللبب للفرس . قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : « عىَّ فلان بالأسناف » إذا دهش من الفزع ، كمن لا يدرى أين يشد السناف . قال :

إذا ما عَيَّ بالأسنافِ قومٌ من الهَوْلِ المُشَبَّهِ أن يكونا

(٥) قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : هو باقعة من البواقع للكيس الداهى من الرجال ، شبه الطائر الذى يرد البقع وهى المستنقعات ـ دون المشارع خوف القناص .

أما عدم القدرة على نقل اللسان العربى إلى شىء من الألسنة على أى وجه كان ففيه نظر . وقد ترجم جمع من العلماء واللغويين القرآن الكريم بالفارسية والهندية واللغات الإفرنجية وغيرها من الألسنة ، وهى تؤدى معناه ، وتبين فحواه بلا شك ، وإن لم تكن من استقصاء المعانى كلها ، ومراتب الفصاحة والبلاغة جلها بمكان العربية . نعم اللغة العربية أفضل اللغات ، ولسان العرب أجود الألسنة وأكملها ، بخصائص توجد فيه ولا توجد فى غيره .

ومما اختصت به لغة العرب بعد ما تقدم قلبهم الحروف عن جهاتها ، ليكون الثانى أخف من الأول ، نحو قولهم : ميعاد ولم يقولوا مِوْعاد وهما من الوعد . ومن ذلك تركهم الجمع بين الساكنين ، وقد يجتمع فى لغة العجم ثلاثة سواكن . ومنها اختلاسهم الحركات فى مثل : فاليوم أشْرَبْ غير مُستحقِبٍ[1] » .

ومنه الإدغام وتخفيف الكلمة بالحذف مثل لم يَكُ ولم أُبَلْ .

ومن ذلك إضمارهم الأفعال مثل : (امرأً أتقى الله) ، و (أَمْرَ مُبْكِياتِك لا أَمْرَ مُضْحِكاتِك) .

ومما لا يمكن نقله ألبتة أوصاف السيف والأسد والرمح ، وغير ذلك من الأسماء المترادفة . ومن المعروف أن العجم لا تعرف للأسد غير اسم واحد ، أما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم . قال ابن خالَوَيْهِ الهمذانى . جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحيّة مائتين . وقد جمع حمزة الأصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى .

---

(١) قال الشنقيطى تمامه : « إثماً من الله ولا واغل » .

ومن العجائب أن أمة وسمت معنى واحدا بمئين من الألفاظ . وقد حدثنا ابن أخى الأصمعى عن عمه : أن الرشيد سأله عن شعر لابن حِزام العُقْلِيِّ ففسَّرَه ، فقال: يا أصمعى : إن الغريب عندك لغير غريب . فقال : يا أمير المؤمنين ! ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ؟

قال ابن فارس : فأين لسائر الأمم ما للعرب ؟ ومن ذا يمكنه أن يعبر عن قولهم : ذات الزُّمَيْنِ ، وكثرةُ ذاتِ اليَدِ ، ويدُ الدَّهر ، وتَخاوصَتِ النجوم ، ومَجَّت الشمس ريقها ، ودَرَأَ الفَيْءَ ، ومفاصل القول ، وأتى بالأمر من فَصِّهِ ، وهو رَحبُ العَطَن ، وغَمْرُ الرِّدَاء ، وهو ضيِّق المَجَمِّ ، قَلِق الوَضِين ، رابطُ الجأش ، وهو أَلْوى بعيد المُسْتَمَرِّ ، وهو جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرَجَّب . وما أشبه هذا من بارع كلامهم. ومن الإيماء اللطيف والإشارة الدالة كثير وكثير .

وإن ما فى كتاب الله تعالى من الخطاب العالى أكثر وأكثر ، قال جل ثناؤه : « ولكمْ فى القصاصِ حياةٌ » . « يَحْسَبون كلَّ صَيحةٍ عليهم هُمُ العَدُوُّ » . «وأُخرَى لَمْ تَقْدِرُوا عليها قد أحاطَ اللهُ بها » . « إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ ، وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شيئا » . « إنما بَغْيُكُمْ عَلَى أنفُسِكم » ، « ولَا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِهِ » . وهو أكثر من أن نأتى عليه .

وللعرب بعد ذلك كِلَمٌ تلوح فى أثناء كلامهم كالمصابيح فى الدجى ، كقولهم للجَموع للخير : « قَثُومٌ » . « وهذا أمر قاتم الأعماق ، أسود النواحى » . « وله قدم صدق » . وفى هذا الأمر مصاعب وقُحَم ، وامرأة حَيِيَّةٌ قَذِعة ، « قليلة الكلام حَيِيَّة » . وذا أمرٌ أنتَ أردتَه ودبَّرتَه ، وتقاذفَت بنا النَّوى ، واشتَفَّ الشراب ، ولك قُرعَةُ هذا الأمر أى خِيارُه . وما دخلتُ لفلانٍ قَريعةَ بَيْتٍ ؛ أى سقف بيت . وهؤلاء قرابين الملك ، وليل أقْعَسُ ، « لا يكاد يَبْرح » . وأقبلت

مَقاصِرُ الظلام، إلى غير ذلك . وهذه كلمات من قُرْحَةٍ واحدة ، وفى رواية من قُدْحَةٍ واحدة ، فكيف إذا جال الطرف فى سائر الحروف مجاله ؟ ولو تقصَّينا ذلك لجاوزنا الغرض ، وما حوته مؤلفات[1] .

واختصت العرب من العلوم الجليلة التى اختصت بها بالإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوتٍ ، ولا تعجب من استفهام ، ولا نعت من تأكيد .

وللعرب العروض وموازين الشعر ، وبها يعرف صحيحه من سقيمه . وقد حفظ العرب الأنساب ، ولم يعن أحد من الأمم عناية العرب بحفظ النسب . وقد انفردت اللغة العربية بالهمز فى آخر الكلام ؛ مثل قرأ وبدأ ، ولا يكون الهمز فى شىء من اللغات إلا ابتداء . واختصت اللغة العربية بالحاء والطاء ، وقيل إن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم ، وانفردت بالألف واللام للتعريف ؛ كقولنا الرجل والفرس. وليست الألف واللام فى شىء من لغات الأمم غير اللغة العربية .

وتمتاز العربية بالتصريف والإعراب ، وبالإعراب تميز المعانى ، وتُعرف أغراض المتكلمين. فإذا قلت ما أحسن زيد برفع كلمة زيد لا يعرف السامع مرادك . أما إذا قلت ما أحسن زيداً بنصب زيد وهو الصواب ـ ظهر بالإعراب المعنى المراد . وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرهم ؛ فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى . يقولون : مِفتح للآلة التى يفتح بها ، ومَفتح لموضع الفتح .

---

(١) ارجع إلى الصاحبى ص ١٢ ـ ١٦ والمخصص للسيوطى ج ١ ص ١٨٩

ويقال امرأة طاهر من الحيض ، وطاهرة من العيوب ؛ لأن الرجل لا يشاركها في الحيض ، بل يشاركها في الطهارة .

ومن فاته علم التصريف فاته كثير ؛ فنحن نقول : وجَدَ المطلوبَ ووجِدَه يجِدُه وَجْداً ، وجِدَةً ووُجُداً ووُجُوداً ووِجْدَانا : أدركه وأصابه وظفر به بعد ذهابه .

ويقال وجَدت الضالَّة . وتأتى وجَد بمعنى علمَ فتنصب مفعولين ؛ مثل : وجدت صدقَك راجحا .

(وَجَد) المالَ وغيره : يجِده ، وِجْداً ، وجِدَةً : استغنى .

وفى التهذيب للأزهرى (وَجَدْتُ فى المال) : يَجِدُ ، ويجُدُ ، وَجْداً ، وجِدَة ، ومَوْجِدَةً ، ووجدانا : غضِبَ . وفى الحديث « إنى سائلُك فلا تَجُدْ علىّ » ؛ أى لا تغضب من سؤالى .

ويقال : وجَدَ به وَجْداً : أى أحبَّه . ووجِدَ به : حزِن .

ويقال القاسطُ للجائر ، وقسَط : جار . والمُقسِط للعادل ، وأقسطَ : عدلَ . فتحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل ، وأمثلة ذلك كثيرة لا تكاد تنحصر :

سنن العرب :

(١) ومن سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ؛ كقولهم عند المدح : قاتله الله ما أشعَره ! والاستعارة ؛ مثل : انشقت عصاهم ؛ إذا تفرقوا . وكشفت عن ساقها الحرب ، وكقولهم للبليد : حمار .

(٢) ومن سننهم أيضا الحذف والاختصار ، كقولهم : والله أفعل ذلك ؛ أى لا أفعل . وكقوله تعالى « واسْأَلِ القَرْيَةَ » أراد أهلها . والزيادة نحو : « ليس كمثله شىء » فالكاف زائدة . وتكون الزيادة فى الأسماء والأفعال والحروف .

(٣) ومن سننهم التكرير والإعادة بقصد الإبلاغ ، بحسب العناية بالأمر ، قال الحارث بن عباد :

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّى لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيَالِ

فكرر قوله (قربا مربط النعامة منى) فى رءوس أبيات كثيرة ؛ عناية بالأمر ، وإرادة الإبلاغ فى التنبيه والتحذير .

(٤) ومن سننهم : إضافة الفعل إلى ما ليس فاعلا فى الحقيقة ، كقوله تعالى : « فَوَجَدَا فيها جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَه » ، فنسب الإرادة إلى الجدار ، ويقال : فلان يريد أن يموت إذا كان محتضرا .

(٥) وذكر الواحد وإرادة الجمع ، كقولهم للجماعة : ضيف وعدوٌّ .

(٦) وذكر الجمع والمراد اثنان ، نحو قوله تعالى : « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » وهما قلبان .

(٧) ومخاطبة الواحد بلفظ الجمع ، نحو : ربِّ ارجعون ، وكقولهم للرجل العظيم : انظروا فى أمرى ، وقول من يعظم نفسه : نحن فعلنا .

ومخاطبة الواحد خطاب الجمع إذا أريد بالخطاب هو ومن معه كقوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النبيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » . فخوطب صلى الله عليه وسلم بلفظ الجمع ؛ لأنه أريد هو وأمته .

(٨) والإخبار عن جماعة وواحد بلفظ الاثنين ؛ كقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا » ؟

(٩) وتحويل الخطاب من الشاهد إلى الغائب ، ومن الغائب إلى الشاهد ، وهو الالتفات ؛ نحو قوله تعالى مخاطبا النبي : « فإن لم يستجيبوا لكم » ثم قال للكفار :

« فاعلموا أنما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ . » يدل على ذلك قوله « فهل أنتم مسلمون » ؟ ومثل هذا فى القرآن كثير .

(١٠) ومنها أن تنسب الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما ؛ نحو قوله تعالى : « مَرَجَ البحرَينِ » إلى قوله : « يخرجُ منهما اللؤلؤُ والمرجانُ . » وإنما يخرجان من الملح لا العذب .

(١١) ومنها أن تنسب الفعل إلى الجماعة وهو لواحد منها ، مثل : « وإذْ قَتَلتم نفساً فادّارأتُم فيها » فالقاتل واحد .

(١٢) أو تنسبه إلى أحد اثنين وهو لهما ، مثل : «واللهُ ورسولُه أحق أن يُرضُوه». وكقوله تعالى: « وإذَا رَأَوْا تِجَارَةً أوْ لَهْواً انْفَضُّوا إليها » والمراد انفضوا إليهما .

(١٣) ومنها أن تأمر الواحد بلفظ أمر الاثنين ؛ نحو : افعلاَ ذلك ، ويكون المخاطب واحدا ، ونحو يا صاحبيَّ ويا خليليَّ ، والمراد يا صاحبي ويا خليلي .

(١٤) والإتيان بلفظ الماضى وهو حاضر أو مستقبل ؛ نحو : « أتى أمر الله » أى يأتى ، و « كنتم خير أمة » أى أنتم ، وبالعكس نحو: « فَلِمَ تَقتُلُون أنبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ » أى فَلِمَ قتلتم ؟ ونحو : «واتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّيَاطِينُ » أى ما تلت .

(١٥) ووصف الشىء بما يقع فيه ؛ نحو : يومٌ عاصفٌ ، وليلٌ نائمٌ أو ساهرٌ .

(١٦) ومنها التوهم والإيهام ؛ وهو أن يتوهم أحدهم شيئاً ، ثم يجعل ذلك كالحق ؛ نحو قولهم : (وقفت بالرَّبعِ أسأله) وهو أكمل عقلا من أن يسأل رسما يعلم أنه لا يَسمع ولا يَعقِل ، لكنه تفجع لما رأى الساكنين قد رحلوا ، وتوهَّم أنه يسأل الرَّبعَ : أين ذهبوا ، وذلك كثير فى أشعار العرب[1] .

---

(١) ارجع إلى الصاحبي صفحة ١٩٢ .

(١٧) ومنها الفرق بين الضدين بحرف أو حركة كيدوى من الداء ، ويداوى من الدواء .

(١٨) والبسط بالزيادة فى عدد حروف الاسم والفعل ، ولعل أكثر ذلك لإقامة الوزن ؛ كفُرقُود فى فَرقَد ، ويرقود فى يرقُد ، كقول الشاعر :

ولَيلةٍ خامدةٍ خُمودا طَخياءَ تغشَى الجدىَ والفُرقُودَا

فزاد فى الفرقد الواو وضم الفاء حتى يستقيم وزن الشعر وتُسَوّى قوافيه ، وكذلك زاد الواو فى قوله : (لو أن عمرا هَمَّ أن يرقُودَا) أى يرقد [١] .

(١٩) ومنها الإضمار للأسماء ؛ مثل : ألا يا اسلمى أى يا هذه .

(٢٠) والإضمار للأفعال ؛ مثل : أثعلبا وتفر ، أى أترى ثعلبا وتفر ؟

(٢١) والإضمار للحروف ؛ مثل : (ألَا أيُّهذا الزاجرى أحضُرَ الوَغَى) أى أن أحضُرَ الوغَى . وفى كتاب الله : « ألم غُلِبت الرومُ » ؛ أى لقد غلبت الروم [٢] .

(٢٢) ومنها التعويض ، وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة ، كإقامة المصدر مقام الأمر ؛ نحو فضربَ الرقاب ، وإقامة الفاعل مقام المصدر ، نحو ليس لوقعتها كاذبة ، أى تكذيب ، وإقامة المفعول مقام المصدر ، نحو بأيكم المفتون ، أى الفتنة ، والمفعول مقام الفاعل ، نحو : حجاباً مستوراً ، أى ساتراً ، والفاعل مقام المفعول نحو : « لا عَاصِمَ اليَوْمَ من أمْرِ اللهِ » أى لا معصوم ، « وعيشةٍ راضيةٍ » أى مَرْضِيٌّ بها .

(٢٣) ومنها تقديم الكلام وهو مؤخر فى المعنى ؛ كقوله : (ما بال عينك منها الماء ينسكب) ، أراد ما بال عينك ينسكب منها الماء . وقوله تعالى : « ولولا كلمةٌ

---

(١) ارجع إلى فقه اللغة لابن فارس صفحة ١٧٣ .

(٢) ارجع إلى الصاحبي صفحة ١٩٦ — ١٩٧ .

سَبقَت من ربِّك لكان لِزاماً وأجلٌ مُسمى » ؛ فأجل معطوف على كلمة ، والتأويل ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى - أراد الأجل المضروب لهم وهو قيام الساعة - لكان العذاب لازما لهم[1] .

(٢٤) ومنها تأخير الكلام وهو مقدم فى المعنى نحو : « يا مريمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسجدِى واركعِى مع الراكعين » والركوع قبل السجود .

ونحو : « آتُونِى أُفْرِغْ عليه قِطْراً » أى آتونى قطراً أفرغه عليه .

ونحو : كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال ، أى كفانى قليل من المال .

(٢٥) ومنها الاعتراض بين الكلام وتمامه ؛ كقولك : اعمل - والله ناصرى - ما شئت ، والمراد اعمل ما شئت .

(٢٦) والإشارة إلى المعنى ؛ نحو : طويل النِّجاد ، يريدون طول الرجل ، وفى هذا إشارة وإيماء بغير تصريح ، ونحو : غمْر الرداء ، يشيرون إلى الجود .

(٢٧) ومنها الكف عن ذكر الخبر اكتفاء بما يدل عليه الكلام ؛ كقول الشاعر :

إذا قلت سيروا نحو ليلى لَعلَّها ... جرى دون ليلى مائل القَرْن أعْضَبُ

فقد ترك خبر لعلها .

(٢٨) ومنها إعارة الشىء ماليس له، كقولهم : مربين سمع الأرض وبصرها . وإجراء مالا يعقل مجرى من يعقل ، كقوله فى جمع أرض أرضون ، وكقوله تعالى : « كلٌّ فى فَلَكٍ يَسبحون » ، وقوله : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » .

---

(١) ارجع إلى الصاحبى صفحة ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢٩) والاقتصار على ذكر بعض الشيء والمراد كله ، كقوله تعالى : « أو تحرير رقبةٍ مؤمنةٍ » ، فذكر الرقبة والمراد العبد .

(٣٠) والعرب تصف الجمع بصفة الواحد ؛ كقوله جل ثناؤه : « والملائكةُ بعد ذلكَ ظهيرٌ . » ويقولون : قومٌ عَدْل، وقومٌ رِضاً .

وربما وصفوا الواحد بلفظ الجمع ؛ كقوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يَعمُروا مساجدَ اللهِ » ، أراد أن يعمروا المسجد الحرام .

(٣١) ومما اختصت به اللغة العربية ترك العرب الجمع بين الساكنين ، وقد يجتمع فى غيرها ثلاثة سواكن .

(٣٢) وتخفيف الكلمة بالحذف ؛ مثل لم يَكُ ، والأصل لم يكُنْ . وقد جاء القرآن بجميع هذه السنن ؛ لتكون حجة الله عليهم آكد .

قال الفارابى : « هذا اللسان كلام أهل الجنة ، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلىّ من كل خسيسة ، والمُهذَّب مما يُستهجَن ، فبُنى على مبان خالف بها جميع اللغات من إعراب أو جده الله لهم ، وتأليف بين حركة وسكون حلاّه به . والعرب تميل عن الذى يلزم كلامها الجفاء ، إلى ما يُبايِّن حواشيه ويُرقِّقُها . وقد نزه الله لسانها عما يجفيه .

ولم تكن الكُنَى لشيء من الأمم إلا للعرب ، والكُنْيَةُ إعظام ، وما كان يؤهل لها إلا ذو الشرف . ثم ترقَّوْا عن الكُنَى إلى الألقاب الحسنة ، فقلّ من المشهورين فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، إلا أن ذلك ليس خاصا بالعرب ؛ فلم تزل الألقاب فى الأمم كلها من العرب والعجم . ويقال : اختص الله العرب بأربع : العمائم تيجانها ، والحِبَى حيطانها ، والسيوف سيجانها ، والشعر ديوانها .

ومما لا يمكن نقله البتة إلى أى لغة من اللغات أوصاف السيف والأسد والرمح، وغير ذلك من الأسماء المترادفة . ومن المعلوم أنه ليس للأسد فى غير اللغة العربية إلا اسم واحد ، أما العرب فقد أخرجوا له خمسين ومائة اسم . وجمع أبو عبد الله بن خالَوَيْه الهمذانى خمسمائة اسم للأسد . ومن العجائب أن أمةً وسعَت معنى واحدا بمئين من الألفاظ . فأين لسائر الأمم ما للعرب ؟

ومن سنن العرب المحاباة ؛ وذلك أن تجعل كلاما بحذاء كلام فيؤتى به على وزنه لفظا ، و إن كانا مختلفين معنى؛ فيقولون : الغدايا والعشايا ، فقالوا الغدايا لانضمامها إلى العشايا . ومثله قولهم : (أعوذ بك من السَّامَّة واللَّامَّة) فالسَّامَّة : مأخوذة من قولك سَمَّت إذا خَصَّت ، واللَّامَّة أصلها ألَمَّتْ ، لكن لما قرنت بالسَّامَّة جعلت فى وزنها . ومن هذا الباب كتابة المصحف « والليلِ إذا سَجَى » بالياء ، وهو من ذوات الواو لمَّا قُرِن بغيره مما يكتب بالياء .

وقد تكفلت كتب المعانى والبيان والبديع ببسط ما اشتمل عليه كلام العرب من فنون البراعة والجمال فى الأسلوب . وقد سأل أبو إسحق الكندى الفيلسوف العربى أبا العباس المبرد فقال : إنى أجد فى كلام العرب حشوا ؛ يقولون : عبدالله قائم، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد .

فأجابه أبو العباس : إن المعانى مختلفة ؛ فقولهم : عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه . فانظر إلى تفاوت هذه المعانى مع تغيير يسير فى اللفظ .

معرفة الألفاظ الإسلامية :

كانت العرب فى جاهليتها على إرث من إرث آبائهم فى لغاتهم وآدابهم ، ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الإسلام حدثت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من موضع إلى آخر بزيادة زيدت ، وشريعة شرعت . فكان مما جاء فى الإسلام ذكر المؤمن والمسلم ، والكافر والمنافق ؛ فإن العرب إنما عرفت المؤمن من الإيمان ، والإيمان هو التصديق ، ثم زادت الشريعة شروطاً وأوصافاً ، بها سمى المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت من إسلام الشىء ، ثم جاء فى الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر . فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا فى الفسق إلا قولهم فَسقَت الرّطبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق هو الإفحاش فى الخروج عن طاعة الله تعالى .

ومما جاء فى الشرع : الصلاة والصوم ، والحج والزكاة ، فالصلاة فى اللغة : الدعاء ، والصوم : الإمساك ، والحج : القصد ، والزكاة : النمو . وقد زاد الشرع فيها ما زاد . ومثل هذا جميع أبواب الفقه ، فإذا سئل الإنسان عن شىء من هذه الأشياء قال : إن له معنيين : لغوى وشرعى ، ثم ذكر المعنى اللغوى ، وهو ما كانت العرب تعرفه ، ثم المعنى الشرعى وهو ما جاء الإسلام به .

وقد حدثت فى صدر الإسلام أسماء ؛ كقولهم لمن أدرك الإسلام من أهل الجاهلية مُخضرَم[1] . ومن الأسماء التى كانت فزالت بزوال معانيها المِرْباع والنشيطة والفُضول .

(١) المخضرم من الشعراء : من قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ؛ مثل حسان ابن ثابت ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الجعدى .

ومن الأسماء التى تركت أيضاً الأتاوة والمَكْس والحُلْوان ، وقولهم أنعِم صباحاً ، وأنعِمْ ظلاماً ، وأبيتَ اللَّعْنَ ، وقول المملوك لمالكه : رَبِّى [١] ، وتسمية من لم يَحُجّ صَرورة [٢] ، والإبل التى تساق فى الصَّداق النَّوافج .

ومما كره فى الإسلام من الألفاظ قول القائل : خَبُثَت [٣] نفسى ، واستأثر الله بفلان ، وحِجْراً محجوراً . وكان هذا عند العرب لمعنيين : أحدهما عند الحِرمان إذا سئل الإنسان قال حِجراً محجوراً ، فيعلم السائل أنه يريد أن يحرمه . ومنه قوله :

حَنَّتْ إلى النَّخلة القُصوى فقلت لها : حِجرٌ حرام ألا تلك الدَّهاريسُ

والوجه الآخر : الاستعاذة . كان الإنسان إذا سافر فرأى من يخافه قال . حجراً محجوراً ؛ أى حرام عليك التعرّض لى . وعلى هذا فُسِّرَ قوله عز وجل : « يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشرَى يومئذ للمجرمين . ويقولون : حجراً محجوراً . » يقول المجرمون ذلك كما كانوا يقولونه فى الدنيا .

---

(١) ارجع إلى كتاب البُلْغة فى أصول اللغة للسيد محمد صديق حسن طبعة القسطنطينية سنة ١٩٢٦ هـ ص ٤٩ ، وإلى كتاب فقه اللغة لابن فارس ص ٤٤ ـ ٤٧ .

(٢) الصَّرورة : المتعبِّد الذى يجتنب النساء وطيب الطعام ، وفى الإسلام من لم يحج .

(٣) قال الشاعر :

وأسلَمْنَ فيها رَبَّ كِندةَ وابنَه ورَبَّ مَعَدٍّ بينَ خَبْثٍ وعَرعَرِ

الفصل الثامن

ثروة اللغة العربيـة

إن نظرة واحدة إلى معاجم اللغة العربية تدلنا على أن اللغة العربية غنية ،وغنية جدا ، بألفاظها وتعبيراتها ، وما فيها من مفردات ومترادفات . ولا عجب ؛فاللغة العربية تتألف من ثمانين ألف مادة ، والعلماء يقولون إن المستعمل منها عشرة آلاف. ومن الواجب أن نشكر لأصحاب هذه المعاجم ماقاموا به من مجهود عظيم يستحق الإعجاب والتقدير، من كل من ينطق بتلك اللغة ، و إن كان مجهودهم لم يستوعب كل ألفاظ اللغة .

و يزداد إعجابنا بثروة اللغة العربية القديمـة ، إذا تذكرنا مقـدار السهولة فى الحياة والمعيشة عنـد العرب القدماء ، وتذكرنا أنهم كانوا يعيشون فى صحراء ، كان مستوى المعيشة فيها محدودا ، ومحدودا جدا . وربما كان لتلك البيئة أثر فى أن أفكارهم كانت محدودة فى العصر الجاهلى ، قبل أن يتأثروا بغيرهم ، ممن اتصلوا بهم ، قبيل ظهور الإسلام ، و بعد انتشاره فى كل الأقطار . ومع هذا نجد أن فى اللغة العربية ثروة دونها كل ثروة ، وأن المعنى الواحـد يمكن التعبير عنه بكثير من الأساليب ، من كلام العرب وتعبيراتهم ، كما سنبين فيما بعد بالأدلة القاطعة .

وقد انتفع علماء اللغة بما اقتبسه الشعراء من الألفاظ فى شـعرهم ، ومن طرق الاستعارة والمجاز والكناية التى أكثروا استعمالها فى قصائدهم .

وفى الأدب العربى القديم فن من فنون الشعر هو الهجاء ، وقد أكثر الجاهليون من قوله ، وساعدهم فى إنشاده بتلك الكثرة طبيعة الحياة والبيئة ؛ فأضافوا إلى المعجم العربى كثيرا من التعبيرات التى اخترعوها ، والألفاظ التى ابتكروها . وقد اختفى الآن معظم هذا النوع من الشعر ، فلا تجد اليوم شاعرا يهجو ، أو يمضى وقته فى الهجاء الشعرى .

ومع أن علماء اللغة لم يدونوا فى معاجمهم إلا الألفاظ التى كثر ورودها ، وشاع استعمالها بين جميع القبائل ، وتركوا الألفاظ القليلة الورود ، أو التى وردت من حين لآخر ، ولم يكثر تداولها إلا بين قبائل خاصة ـ مع هذا نجد أن اللغة العربية غنية بمفرداتها وأساليبها. وسيبقى المعجم العربى على الدوام مرجعا هامًّا لتوضيح العبارات الغامضة فى جميع اللغات السامية الأخرى ، إذا راعى الباحث الاحتراس والدقة .

فاللغة العربية بثروتها فى أصول الكلمات ، وبما فيها من ضروب الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية ، تصلح للأغراض العلمية والأدبية. فهى لغة العلم والأدب. ومن السهل أن تكتب بها ما تشاء ، وأن تترجم إليها ما تشاء . وبالاشتقاق نستطيع أن نعبر باللغة العربية الصحيحة عما لدينا من الأفكار الجديدة ، أو المخترعات الحديثة ، أو المصطلحات العلمية ، بألفاظ وعبارات مختصرة واضحة ، فمثلا يقال :

غفَره أى سَتَره . وغفر الله له ذنبه : عفا عنه . وغَفْرا ، وغُفرانا ، ومغفِرة ، واستغفره من ذنبه ، واستغفره إياه : طلب منه المغفِرة . والغَفُور والغَفَّار : من صفات الله تعالى . والمستغفِر : من يطلب المغفِرة . وجاءوا جَمًّا غفيراً ، وجمَّ الغفير ، والجمَّ الغفيرَ : أى جميعًا ، شريفهم ووضيعهم ، لم يتخلف أحد ، وكانت فيهم كثرة .

ويقال : كمَلَ ، وكمُل ،وكمِل كمالًا ، وكُمولا ، فهو كامل وكَميل ، وتكامَل ، وتكمَّلَ ، وأكمَلَه ، واستكمَلَه ، وكمَّلَه : أتمَّه ، وجمَّله . وأعطاه المالَ كمَلاً أى كاملا . والمستكمِل : من بطلب الكمال . والمِكْمَل : الرجل الكامِل للخير والشر . والتكامُل ، والتكمّل ، والإكمال ، والاستكمال ، والتكميل كلها مصادر .

ولقد أعجب المستشرقون بثروة اللغة العربية ، وكلماتها التى لا حدَّ لها ، واعترفوا جميعا بثروتها فى ألفاظها ومترادفاتها . وقد سمى القاموس قاموساً محيطا لأنه عميق مملوء بكثير من الجواهر الثمينة التى تخفى على الطالب المثابر ، والبحاثة المجد .

يقول (رِينان) : « إن لغويا من العرب كتب فى متن اللغة رسالة ذكر فيها خمسمائة اسم للأسد » . وكتب آخر مائتى كلمة عن الثعبان . وقد قيل : إن الفيروزابادى كتب رسالة عن العسل ، وتركها من غير تكملة ، بعد أن ذكر ثمانين مترادفا لتلك الكلمة . ويقال : إن فى اللغة العربية أكثر من ألف كلمة مختلفة مرادفة لكلمة « سيف » . وإن (دى هامَر بيرجْستوُل[1]) المستشرق الألمانى قد أحصى الكلمات التى تتعلق بالحمَل فى أدب اللغة العربية فوجدها تبلغ ٥٧٤٤ كلمة .

فاللغة العربية حافلة بثروة لغوية عظيمة ، ويكفى دليلا على صحة هذه الدعوى أن فى المهجور من ألفاظها سبعين ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم . ذهب إلى ذلك المرحوم العلامة أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى ، وقد كان فيما وضعه من أسماء الجواهر والفلزات فى المؤتمر الطبى ببغداد قبيل وفاته دليل آخر على أن اللغة العربية تشتمل على كنوز ثمينة من المفردات ، وإن كانت هذه اللغة لا تواتى بعض حاجة المخترعين ،

---

(١) De Hammer Burgstoll

فليس العيب فيها ، وإنما العيب واقع على أبنائها الذين أهملوها ، ولم يفتشوا عن ثرواتها الضخمة فى كل علم وفن .

وليست اللغة العربية غنية فى مفرداتها فحسب ، ولكنها غنية فى صيغ قواعدها أيضا . وإن نظرة واحدة إلى صيغ جمع التكسير ، وصيغ المصدر ، واسم المصدر تدلنا على أن فى اللغة العربية ثروة لفظية لا تحد .

وقلما تمكننا القصائد الشعرية من تكوين فكرة واضحة عن لغة المحادثة ، لغة الحياة العادية عند العرب ؛ فالشعر العربى يختلف عن النثر ، لأن فى الشعر ميلاً خاصا إلى الصناعة والتأنق ، ومراعاة الوزن والقافية . أما القرآن الكريم فهو تنزيل من حكيم حميد ، ولا يمثل اللغة العربية فى الشكل الذى كان يستعمل فى المحادثة ؛ فهو فوق لغة البشر ، لايستطيع أحد أن يأتى بمثله مهما أوتى من الفصاحة والبلاغة .

والحق أن لغة المحادثة عند العرب تظهر فى النثر العربى القديم ، من الخطب القديمة ، والأحاديث الشريفة ، وأقوال الخلفاء الراشدين ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، وتاريخ الغزوات الحربية فى العصر الجاهلى ، وفى المدة الأولى من صدر الإسلام . فهذه كلها من أحسن النماذج لأسلوب النثر العربى القديم .

وبالموازنة بين اللغة العربية ، وأى لغة أخرى من اللغات السامية الشمالية أو الجنوبية يمكننا أن نقول : إن اللغة العربية أغنى تلك اللغات جميعها ، ولا تقل فى ثروتها عن اللغة اللاتينية أو الإغريقية قديماً ، ولا تقل عن الإنكليزية أو الألمانية أو الفرنسية حديثا ، بل إننا لا نكون مدّعين إذا قلنا : إن اللغة العربية من حيث المفردات تفوق جميع اللغات الحية ، وتمتاز بضروب كثيرة من أسباب النمو التى منها : الاشتقاق والمجاز .

وإذا تأملنا قواعد النحو فى اللغة العربية وجدناها منظمة مرتبة منطقية ؛ فلكل أداة شرط جواب ، ولكل فعل فاعل ، ولكل مبتدأ خبر ، وللفاعل موضع خاص فى الجمل ، وللمفعول به موضع معين ، والفاعل مرفوع ، والمفعول به منصوب ، والمضاف إليه مجرور دائما .

وإذا كانت الأفكار واضحة فى نفس الكاتب أو الخطيب أو المؤلف ، فمن السهل جدا أن يعبر عنها بكثير من العبارات العربية الصحيحة .

يقول « نُولْدِكه » المستشرق الألمانى الكبير : « إن من الخطأ الشائع أن نظن أن اللغة العربية فقيرة لا تصلح لبحث الأمور المعنوية ؛ فعلى العكس يندر أن نجد لغة أخرى كاللغة العربية تصلح لأن تكون وسيلة للتعبير عن الفلسفة القديمة ، وأصول حكمة الأولين » .

وقد صدق « نُولْدِكه » فيما قال ؛ فقد وسعت اللغة العربية كل ما ترجم إليها فى العصر العباسى من الفلسفة والحكمة ، والطب ، والكيمياء ، والمنطق ، والفلك ، وكثير من العلوم الأخرى . وبهذا صارت اللغة العربية صاحبة السيادة العلمية والفلسفية والأدبية والدينية فى ذلك العصر .

ولدى البدو القدماء ميل بفطرتهم لاستعمال الأمور المعنوية أو المجردة . وقد كان لهذا الميل أثر كبير فى التعبيرات اللغوية عن الأمور المعنوية . ومن السهل أن تترجم إلى اللغة العربية فى العصر الحاضر أى كتاب علمى أو فلسفى إذا كنت على علم دقيق بأصول العربية ، واقفا على أسرارها ، متأدبا بآداب اللغة التى تترجم منها .

ولله دَرُّ المرحوم حافظ إبراهيم بك شاعر النيل حيث قال فى قصيدته :

[لسان حال اللغة العربية] :

وسعتُ كتابَ اللهِ لفظا وغايةً ... وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضِيق اليومَ عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسمـــاءٍ لمخترعاتِ ؟
أنا البحرُ فى أحشائه[1] الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاصَ عن صَدَفاتى ؟
فيا ويحَكم أبلَى وتبـــلَى محاسنى ... ومنكم — وإن عَزَّ الدواء — أساتى
فلا تَكِلونى للزمانِ فإننى ... أخافُ عليكم أن تحينَ وفاتى

* * *

سقَى اللهُ فى بطن الجزيرةِ أعظُماً ... يَعِزُّ عليها أن تلينَ قناتى[2]
حفظنَ ودادى فى البِلى وحفظتُه ... لهنَّ بقلبٍ دائم الحسراتِ
وفاخرتُ أهلَ الغربِ — والشرقُ مُطرقٌ ... حياءً — بتلك الأعظُمِ النخِراتِ[3]
أرَى كلَّ يومٍ بالجرائد مَزلقاً[4] ... من القـــبرِ يُدنينى بغيرِ أناةِ
وأسمعُ للكُتّاب فى مصر ضجةً ... فأعـــلمُ أنَّ الصائحين نُعاتى[5]
أيهجرنى قومى عفا الله عنهمُ ... إلى لغـــةٍ لم تتصلْ برواةِ ؟
إلى معشر الكتاب والجمع حافلٌ ... بسطت رجائى بعد بسطِ شَكاتى
فإما حياةٌ تبعثُ الميْت فى البِلى ... وتنبت فى تلك الرموسِ[6] رُفاتى
وإمّا ممـــاتٌ لاقيامةَ بَعده ... ممـــاتٌ لعمرى لم يُقَس بممات

يقول « إرْنِسْت رِينان » المستشرق الفرنسى : « إنَّ مما يثير عجبى أن لغة كاللغة العربية قد نشأت فى بلاد صحراوية كبلاد العرب — تصل إلى درجة الكمال فى

---

(١) أعماقه . (٢) رمحى . (٣) البالية . (٤) هفوة .
(٥) الناعى : الذى يأتى بخبر الموت . (٦) الرمس : تراب القبر .

خيام البدو» . ورينان معروف بشدة تعصبه ، وهو ضد العرب والساميين ، ومع ذلك قد اعترف بأن اللغة العربية لغة غنية ، صالحة للتعبير عن الأفكار الدينية والفلسفية والعلمية بطريقة لا وجود لها فى أى لغة أخرى ، فهى تفوق أخواتها من اللغات السامية فى ثروتها اللفظية ، وفى جمال تعبيرها ، وفى تركيباتها المنطقية فى القواعد .

كانت اللغة العربية غنية بألفاظها وعباراتها قبل الإسلام ، فلما نزل القرآن الكريم ، وانتشر الدين الإسلامى فى القرنين : السابع والثامن الميلاديين ، اتسعت ثروة هذه اللغة ، وأكسبها القرآن الكريم حياة جديدة ، وظهر جمالها فى كل بلد أشرقت فيه شمس الإسلام . فكان للقرآن أثر فيها من الناحية اللغوية بزيادة مفرداتها ، وأما من الناحية الأدبية فقد أفاض عليها جمالا فنيا ، وبيانا سهلا مؤثرا ، وأما من الناحية العلمية فقد أحدث فيها علوما لسانية وبيانية وتشريعية من نحو وصرف وبلاغة ، وفقه وأصول .

وقد ظلت اللغة العربية حاملة لواء العلم حقبة طويلة من التاريخ تنتهى بانتهاء القرون الوسطى ؛ لأنها فى هذا الزمن كانت لغة العلماء . وكان للقرآن الكريم أكبر الأثر فى المحافظة على هذه اللغة فى تلك العصور . وكان للشعراء والأدباء واللغويين نصيب آخر فى المحافظة على تلك اللغة : قواعدها ومعاجمها ، وآدابها وتاريخها فى القرون الوسطى ؛ فقد حافظوا على اللغة العربية القديمة ، ولم يستعيروا شيئا من اللغة العامية المنتشرة بين العامة وغيرهم .

ولما فتح العرب بلاد الفرس بين (٦٤٠ - ٦٥١ م .) اعتنق الشعب الفارسى الدين الإسلامى ، وحلت اللغة العربية محل اللغة الفارسية . فصارت لغة الدولة الرسمية ،

ولغةَ العلم والأدب . ولا يستطيع الإنسان أن يمر على هذ الحادث العظيم فى التاريخ اللغوى للغة العربية من غير أن يذكر شيئاً من نتائجه .

ويسرنا أن نقتبس ماذكره « نُولْدِكه » فى هذا الشأن حيث يقول : « إن اللغة اليونانية لم تؤثر فى الحياة الفارسية إلا تأثيراً سطحيًّا ، ولكن العربية قد أثرت فيها كل التأثير ؛ فتدينت إيران بالدين العربى ، والأخلاق والعادات العربية » .

لم تصل إلينا اللغة العربية بجميع أوضاعها اللغوية ، وقد عجز الرواة عن رواية كل ما أنشأه العرب من شعر ونثر ؛ ولذلك جاءنا قُل من كُثر . ومع ذلك فقد كان فى هذا القليل ثروة أدبية ضخمة ؛ فقد دون المتأخرون ما تلقوه ، وما سمعوه من الثقات من الرواة عن أيام العرب وأخبارهم ، وأمثالهم وأشعارهم ، فبلغ ذلك ما بلغ من الأسفار حتى تجاوزت دوائر العَدِّ والحصر . وقد ذهب كثير من شعرهم ولغتهم وأخبارهم بذهاب الرواة ، وبقى فى صدورهم ولم ينقل ، وأخذوا فى أكفانهم كثيراً من علوم العرب وفنونهم حيث لم يجدوا من يطبع لهم تلك الذخائر فيحفظها ويصونها لهم[1] .

وكان لكل شاعر عربى راوية يحفظ عنه ما يقول ذلك الشاعر وما ينشده حين يصول ويجول . وكان كل راوية من الرواة يحفظ من القصائد والأراجيز ، وفنون الشعر ، ما يفوت العد والحصر . قال الأصمعى وهو من متأخرى الرواة : « ما بلغت الحُلُم حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب » .

---

(١) قال أحد العراقيين :

وأخذت فى كفنى علوماً لم أجد ... من يحفظنَّ حقوقَها ويصونُ

ورقيقَ أسرارٍ جعلت لها الحَشا ... مستودَعاً هى فى الدفين دفينُ

وكان خلف الأحمر أروى الناس للشعر ، وأعلمهم بجيده ، ولا يكاد يمترى أحد فى أن العرب كانوا أحفظ الناس ، حتى أن الهمذانى ادعى فى كتاب «الوشى المرقوم» أنه لم يصل أحد إلى أخبار العرب والعجم إلا بالعرب[١] .

وفى مقدمة « أقوم المسالك » بتصرف أن الآداب كانت قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم، تؤدى بلغتين: الحميرية فى اليمن، والقرشية فى الحجاز. وباللغة الثانية لغة قريش جاء القرآن الكريم، ولم تدخل العجمة فى اللسان إلا بدخول الأمم المختلفة فى الإسلام، وتطاول السنين . ولا يخفى مافى اللغة العربية من اتساع وسعة فى المجال ، لا سيما فى الأشياء التى تتصل بمعيشتهم فى البادية ، أو تتكرر رؤيتهم لها ، أو تكثر حاجتهم إليها ؛ فقد يكون للشىء الواحد عدة أسماء بمراعاة تعدد أحواله وصفاته .

وبكثرة الترادف عند العرب اتسعت لهم دائرة الشعر، فللعسل ثمانون اسماً، وللثعبان مائتان ، وللأسد خمسمائة ، وللجمل ألف ، وللسيف ألف كذلك ، وللداهية أربعة آلاف اسم . ولا شك أن استيعاب مثل هذه الأسماء يستدعى حافظة واعية ، وذاكرة قوية. وللعرب من قوة الحافظة والذاكرة ، وحدة الفكر مالا يستطيع أحد أن ينكره. ومن مشهوريهم حماد الراوية الذى ذكر يوما للخليفة الوليد أنه ينشد له فى الحال مائة قصيدة ، وكل قصيدة من عشرين إلى مائة بيت ، فتعب المستمع قبل أن يتعب المنشد .

---

(١) ارجع إلى كتاب « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ، للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ص ٣٩ ، ج ١ الطبعة الثانية . المطبعة الرحمانية (١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م)

(٢) نقل ذلك عن تاريخ دروى وزير المعارف بفرنسا .

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كان الشعر علم قوم ، ولم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يرجعوا إلى ديوان مدوَّن، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك. وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا قَلَّ ذلك، وذهب عنهم كُثرُه.

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا قُلُّهُ ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير ».

وعن حماد الراوية قال : أمر النعمان بن المنذر فنسخت له أشعار العرب فى الكراريس ، ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عبيد الثقفى قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار . فمن ثَمَّ كان أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة .

ولما كنا قد قررنا لك أن اللغة العربية من أغنى اللغات كلماً ، وأوسعها عبارات وأمثالاً وحكما ، سنضع أمامك فصولاً صغيرة ، فى نواحٍ متعددة من المعانى ، مراعين الاختصار فيما نقول ، وقد اخترنا هذه الأمشاج من الجزء الثانى من كتاب « نجعة الرائد وشرعة الوارد » لليازجى ، يقول :

١ — فى العلم والعلماء :

يقال فلانٌ من ذوى العلم ، ومن حَمَلةِ العلم ، ومن أولِى العرفان ، ومن العلماء المحققين ، ومن الراسخين فى العِلم ، ومن ذوى البَسطة[1] فى العلم . وإن فلاناً لعالمٌ

(١) التوسع .

علاَّمة ، وعالم نِحرير[١] ، وعالم فاضلٌ ، وهو من صُدور العلماء وأعلامهم ، وأفاضلهم وفحولهم . وهو عالم أمتِه ، وإمامُ وقتِه ، وعالم عصرِه ، وهو عَلاَّمة العلماء ، وعميدهم ، وعُمْدَتُهم ، وإمامهم وقدوتهم .

وتقول : فلان بحر العلم الزاخر ، وبدر العلماء الزاهر ، وكوكبهم اللامع ، ونِبراسهم[٢] الساطع .

ويقال : تَضَلَّع[٣] فلانٌ من العلم ، وتبحَّرَ فيه ، وتعمَّق ، وأَوْغَل[٤] فى البحث ، وأَمْعَنَ فى التنقيب ، وتَقَصَّى فى التدقيق . وقد اسْتَجْلَى غوامضَ العلم ، وخاضَ عُبابه[٥] ، وأحصى مسائله ، واسْتَقْرَى[٦] دقائقه ، واستخرج مخبَّآته ، ومَحَّص[٧] حقائقه ، ووقف على أغراضه ، وجمع أشتاتَه ، واستقصى أطرافه ، وأحاط بأصوله وفروعه .

وهو حُجَّة فى علم كذا ، وإمامٌ فى علم كذا ، وهو عالم فنِّه ، وواحدُ فنِّه ، وهو من ثِقات هذا العلم ، وهو فيه راسخُ القدمِ ، طويلُ الباع ، غزير المادة ، واسع الاطلاع . وإنه لبحرٌ لا يُسْبَرُ[٨] غَوْرُه ، ولا يُنال دَرَكُه[٩] ، وهو إمام عصره غيرَ مُدافَع ، ورئيس فنِّه غيرَ مُعارَض .

ويقال : فلان من طلبة العلم ، وانقطع لطلبه ، وخلاَ لطلبه ، وتخلَّى له ، وقَصَر عليه نفسَه ، ووقف عليه جَهدَه ، وقد نبغَ فيه . وخرَّجه[١٠] فلان ، وتخرَّجَ على فلان ، وهو خِرِّيجه[١١] . وقد حذَق علم كذا ، ومَهَره ، ومهرَ فيه ، وأتقنه وأحكمه ،

---

(١) حاذق متقن (٢) مصباحهم (٣) امتلأ (٤) أبعد (٥) معظمه (٦) تتبع
(٧) خلص (٨) لا يقاس عمقه (٩) نهايته (١٠) أى درّبه ومرّنه
(١١) أى تلميذه الذى تخرج على يديه

ومَلَك عِنانَه[١] ، وملك قِيادَه[٢] وتَوَفَّر حظه منه ، وأخذ منه مكانه ، و بلغ منه موضعاً جليلا ، وأصبح ممن يرمى بالأبصار ، و يشار إليه بالبَنان[٣] .

وتقول : طابت العلم على فلان ، ووقفت فيه على فلان ، ودرَسته عليه ، وحَصّنته عليه ، وأخذته عنه ، واقتبسته عنه ، وتلقيته عنه ، وتلَقَّنْتُه منه ، وقد تأدَّبت عليه ، وتخرَّجت عليه ، وسمعت عليه كتاب كذا ، وقرأت عليه علمَ كذا .

وهو مُوَقِّفى ومدرسى ، ومؤدِّبى ومخرِّجى ، وشيخى وأستاذى .

وقد استضأتُ بِمشكانِه[٤] ، واستفدتُ منه علما ، واقتبست منه علما ، وحملت عنه علما كثيرا[٥] .

٢ — فى الأدب :

يقال فلان أديب فاضل ، بارع مُتَفَنِّنٌ ، غزير الأدب ، واسع الرِّواية ، واسع الاطلاع .

و إنه لكاتب مُجيد ، وشاعر بليغ ، بليغ العبارة ، لطيف الكنايات ، بديع الاستعارات ، حُلو المجاز ، مُستملَح السجع ، مُستعذَب النظم .

و إن له نثرا آنَقَ من النَّوْرِ[٦] فى الأكمام[٧] ، وسجعا[٨] أطرب من سجع الحمام ، ونظما أحسن من الدُّرِّ فى النظام . و إن ألفاظه الزّلالُ أو أرقُّ ، ومعانيَه السحر أو أدقّ . إذا تكلم مَلَك الأسماع والقلوب ، و إذا أخذ القلم تدفَّق تدفُّقَ

---

(١) من عنان الفرس ، وهو : سير اللجام (٢) من قياد الدابة وهو رسنها
(٣) أطراف الأصابع (٤) بمصباحه (٥) ارجع إلى كتاب نجعة الرائد وشرعة الوارد لليازجى جـ ٢ طبعة مطبعة المعارف ١٩٠٥ ص ٢ ـ ٦ (٦) الزهر (٧) الأكمام جمع كم وهو غلاف الزهرة (٨) تغريداً .

اليَعْبُوب[١] . وإنه لمتضلِّعٌ من فنون الأدب ، عارف بأخبار العرب ، بعيدٌ بمذاهب الكلام ، عليم بمواضع النقد ، وهو من خواصّ أهل الأدب وأئمتهم . وإن له اليدَ الطُّولَى فى صناعة الأدب ، وله القِدْح المُعَلَّى فى صناعتى النظم والنثر[٢] .

٣ — فى الحفظ :

يقال فلان وَعِىٌّ ، سريع الحفظ ، واسع الحفظ ، قوىُّ الحافظة[٣] ، قوى الذاكرة ، قوىّ الذِّكر ، بعيد النسيان . وقد حفظ الكتاب واستظهره ، ووعاه على ظهر قلبه ، وأدَّاه عن ظهر قلبه ، وعن ظهر الغيب ، وقد ارتسم على لوح قلبه ، وانطبع على لوح حافظته ، وعَلِقَتْه حافظته ، ووَعَتْه ذاكرته .

وفلان غايةٌ فى الحفظ ، وهو آية من آيات الله فى قوة الحافظة ، إذا تلا عن لوح قلبه فكأنما يتلو فى لوح مسطور .

وتقول فلان ضعيف الذاكرة ، بليد الذاكرة ، ضيّق الحافظة ، قليل المحفوظ .

٤ — فى التأليف :

تقول : هذا كتاب نفيس جليل ، جامع ، غزير المادة ، جَمُّ الفوائد ، قريب المنال ، دَانِى القُطوف[٤] ، سهل الأسلوب[٥] ، عذب المَوْرِد ، ناصع البيان ، واضح التعبير ، تُدْرَك فوائده على غير مَئونة[٦] ، ولا كَدِّ ذهن ، ولا جَهد فكر ، ولا إرهاق خاطر .

---

(١) الجدول الكثير الماء (٢) ارجع إلى نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، للمازجى ، ج ٢ ص ٦ — ٧
(٣) القوة التى تحفظ (٤) جمع قطف بالكسر وهو ما يقطف من الثمر (٥) الطريقة
(٦) كلفة .

وقد تصفّحت مؤلَّف كذا فإذا هو كتاب أنيق ، حسن، فصيح الخطبة ، حسن الديباجة : مُحكَم الوضع ، متناسِق التبويب ، مُطَّرِدُ الفصول ، وهو كتاب فريد فى فنه، مبسوط العبارة ، مُسهَب[١] الشرح، مُستوعِب[٢] لأطراف الفن ، قد استوعب أصول هذا العلم ، وأحاط بفروعه ، واستقصى غرائب مسائله ، ولم يَدَعْ آبِدَةً[٣] إلا قيَّدها، ولا شاردة إلا رَدَّها إليه: لم يُصنَّف فى بابه أجمع منه ، وقد نُزِّهَ عن التعقيد والإشكال، والإبهام واللَّبس، واللَّغو[٤] والحشو[٥] والرَّكاكة .

وتقول هذا مؤلف مختصَر ، وجيز وموجز ، مُدْمَج التأليف ، مُحكَم الحدود ، جَزْل التعبير ، قد لُخِّصَتْ فيه قواعد العلم أحسن تلخيص ، وحرِّرت مسائله أحسن تحرير .

وعليه شرح لطيف كافل ببيان غامضه ، و إيضاح مُبهَمه، وحَلِّ مشكِله، وتفصيل مُجمَله ، و بَسْطِ موجزه ، وتقريب بعيده ، والكشف عن دقائق أغراضه ، ومكنون أسراره .

٥ — فى الفصاحة :

تقول هذا كلام فصيح مُحَبَّر[٦] ، متخيَّر الألفاظ ، مُنتقَى الأساليب، مهذَّب اللفظ ، مُنقَّح العبارة ، مُحكَم السَّبك .

وهذا كلام عليه طابَع[٧] الفصاحة ، وعليه رَوْنق[٨] الفصاحة ، وقد خلعت الفصاحة عليه زخرفها ، وقد نُسِج على مِنوال[٩] الفصاحة ، وطبع على غِرَار[١٠] الفصاحة ، وكأنه الدُّرُّ المَرْصوف[١١] ، واللؤلؤ المَنضُود .

---

(١) مطول (٢) مستوف (٣) مسألة شاردة (٤) ما لا معنى له (٥) مايزاد فى الكلام بغير فائدة (٦) منمق (٧) أثرها وعلامتها (٨) من رونق السيف وهو: ماؤه وطلاوته (٩) نول (١٠) الغرار القالب ، يصنع الشىء على مثاله (١١) المنظوم .

وتقول فى التفصيل : هـذا كلام فصيح جَزْل[١] ، فَخْمٌ متين الحبك[٢] ، مُحكَم النسج .

وفلان مطبوع على جزالة الألفاظ ، وفخامة الأساليب ـ ويقال: هذا كلام رقيق عَذْب ، سائغ سهـل ، رشيق ، سَلِسٌ ، رخيم الحواشى ، رقيق الحواشى ، خفيف على السمع ، سهل على الألسنة ، حسن الانسجام ، يدخـل الآذان بلا استئذان ، يفعل بالألباب فعل السحر ، وتعشَقه الأسماع لعذوبته .

وتقول فى ضد ذلك : هـذا كلام غليظ فَظٌّ ، جافٌّ نافر ، ثقيل على السمع ، ثقيل على الألسنة ، تمُجُّه[٣] الأسماع ، وتنبو[٤] عنه الآذان .

وتقول: هذه لغة مهجورة، وألفاظ متروكة ، وإنها لَلُغة وَحْشِيَّةٌ ، ولغة حُوشِيَّة .

وتقول: هذا كلام ركيك ، سخيف ، سقيم، ساقط ، مبتذَل ، سُوقيُّ الألفاظ، لم يُحكِمه طبع ، ولم يُعِنه ذوق ، وليس عليـه للفصاحة ظل ، وليس عليـه للجزالة رَوْنَق[٥] . وإنه لـكلام تمُجُّه الأذواق السليمة ، وتقتحمه[٦] الملـكات الراسخة ، وهو مما لَا كَتَه[٧] الأفواه حتى مَجَّتْه .

وتقول فى وصف متـكلم : رجل فصيح لَسِنٌ مُفَوَّه ، فصيح اللفظ ، فصيح اللسان ، فصيح المنطق ، حُرُّ الـكلام ، جَزْل الخطاب، بيِّن اللهجة ، حَسَن السَّبك، سليم الذوق ، لطيف الذوق ، بصير باختيار الألفاظ ، عليم بمواقع الـكلم ، يتخير من الألفاظ أحسنها مسموعا ، وأقربها مفهوما .

---

(١) خلاف الرقيق (٢) النسج (٣) تقذفه وتلفظه (٤) تصد وتعرض (٥) طلاوة (٦) تزدريه (٧) مضغته

وإنَّه لا يُعْلَم أفصح منه منطقا ، ولا أبين عبارة ، قد أنزلت الفصاحة على لسانه ، وأعطتْه الفصاحة قيادها ، وهو أفصح من نطق بالضاد ، وأفصح من سحبان[1] وائل.

وتقول فى خلاف ذلك: هو رجل ثقيل اللسان ، كليل اللسان ، بَطىء المنطق ، مُتَلَكِّئُ المنطق ، وإنه لرجل أعجم ، وبالرجل عُجمة ، وبه لُكْنَة ، وهى العُجْمَة والعِىّ .

وهو رجل أَلَفٌ ، وهو العَيِىُّ البَطِىء الكلام ، إذا تكلم ملأ لسانه فمه . وكلمته فتلجلج فى جوابه ، وهو رجل لَجْلَاج ، وفى منطقه حُبْسة ، وعُقْلة ، وعُقْدة ، وقد عُقِد لسانه . ويقال: قد توقف الرجل فى كلامه، وتلجلج وتلكَّأ وتلعثم .

ويقال : رجل تَأْتَاء: وهو الذى يتردد فى التاء إذا تكلم ، ورجل تَمْتَام: وهو الذى يرد الكلام إلى التاء والميم ، ورجل فَأْفاء : وهو الذى يتردد فى الفاء .

ويقال: تفصَّح الرجل وتفاصح إذا تكلف الفصاحة ، أو تشبه بالفصحاء . وإنه يتشدَّق فى كلامه إذا لَوَى شِدقه[2] للتفصُّح - ويقال قد تقعَّر فى كلامه ، وتعمَّق ، وتفهَّق ، وتَفَيْهَقَ إذا تكلم من أقصى الفم .

٦ — فى البلاغة :

يقال: هذا كلام بليغ ، مُشرِق المعانى ، مُتَلائِم الأطراف ، مُتَناسِق الأجزاء ، آخِذٌ بعضه بأعناق بعض .

---

(١) هو رجل من باهلة يضرب به المثل فى الفصاحة، وكان من خطبائها وشعرائها . قيل إنه خطب فى صلح بين حيين نصف يوم فما أعاد كلمة (٢) جانب فمه .

وتقول: هذا كلام بالغ حد الإعجاز، وإنه لكلام يملك القلوب، ويَسْتَرِقُّ الأفهام، ويَسْتَعْبِد الأسماع ـ وهو عنوان البيان ، وآية البراعة ، تتمثَّل البلاغة فى كل فِقرة من فِقَرِه ، تكاد تدركه الأفهام قبل الأسماع .

وتقول فى ضده : هذا كلام غَثٌّ[١] ، سقيم ، فاسد المعانى ، مُضطرِب المبانى[٢] ، قَلِق التراكيب ، مُخْتَلُّ الأداء ، بادِى التكلف ، قد فَشَتْ فيه الركاكة والخَلط واللَّغْو . وإنه لكلام مُبهَم مُغْلَق مُعَقَّد ، ينبو[٣] عنه الفهم ، وتحار فيه البصائر ، وتُعرِض عنه القلوب ، لا يَشِف ظاهره عن باطنه ، وإنما هو ألفاظ مسرودة ، وجمل متقطعة ، مُتنافِرة اللُّحمَة ، سقيمة المعانى ، مُلْتبِسة التعبير ، كأنها ضرب من المُعَمَّيَات ، وكأنها رَطانة الأعجام .

وتقول فى وصف المتكلم : رجل بليغ الكلام ، بليغ العبارة ، رصين التعبير ، واضح الأسلوب ، مُشرِق الدِّيباجة ، يضع لسانه حيث شاء ، ويبلغ بكلامه كُنْهَ القلوب ، سُخِّرَتْ له الألفاظ ، وأُوتِىَ فصل الخطاب[٤] .

هو من أُمراء الكلام ، إذا افتَنَّ فَتَنَ الألباب ، وسحر العقول ، وخَلَب الأسماع . وإن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ، وإن كلامه العَسَل أو أعذب ، وإن بيانه السحر أو أغرب ، وإن كلامه أَنْدَى على الأفئدة من زلال الماء ، وإنه لآية من آيات الله فى بلاغة التعبير ، وهو أبلغ من الجاحظ ، وأبلغ من قس بن ساعدة .

وتقول فى خلاف ذلك : فلان عَيِىٌّ ، وعَىٌّ وفَهٌّ ، عَيِىُّ اللسان ، حَصِرُ اللسان ، كَلِيلُ الذهن ، بليد الطبع ، جامد القريحة ، خامد الفكرة ، مُظلِم العبارة ، مُنْحَطٌّ

---

(١) لا طلاوة عليه (٢) الألفاظ (٣) يرتد (٤) القول الفاصل بين الحق والباطل .

عن مقامات البلغاء ، قد ملكت لسانه الركاكة ، وملك ذهنه العِيُّ . وإن به لعِيًّا فاضحا ، وهو أعيا من باقل[١] .

٧ — فى الخطابة :

يقال : فلان خطيب مِصْقَع[٢] ، قوىُّ العارضة[٣] ، فسيح الباع ، بعيد الغاية ، طَلْق البديهة ، سَمْح القريحة ، حسن البيان ، ناصع البيان ، عَذْب المنطق ، خَلَّاب المنطق ، رفيع الصوت .

وإنه لفصيح بليغ ، طليق اللسان ، سريع الخاطر ، ثَبْت[٤] البديهة ، حاضر الذهن[٥] ، كأنما يتلو عن ظهر قلبه ، لا يَتَلَكَّأُ[٦] فى منطقه ، ولا يتلجلج ولا يَتَلَعْثَمُ ، ولا يتوقَّفُ ، لا تناله حُبْسة[٧] ، ولا ترهقه[٨] عُقْلة[٩] ، تجرى الفصاحة بين شفتيه ، وتجرى البلاغة بين لسانه وفؤاده ، إذا تكلم تَحَدَّرَ تَحَدُّر السيل ، وتَدَفَّق تَدَفُّقَ اليعبوب[١٠] ، وملأ الأسماع والقلوب .

وإن فلانا صادق الفِراسة بما فى الضمائر ، كأنه اطلع على ما تُكِنُّ[١١] أَحْنَاء[١٢] الضلوع ، وكأنه ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق ، وقد فَجَّر الله ينابيع الحكمة على لسانه ،

---

(١) رجل من بنى إياد ، اشترى ظبياً بأحد عشر درهما ، فعرضه على منكبيه ، وأمسك يديه من الوراء . ولما كان فى بعض الطريق سئل : بكم اشتريت هذا الظبي ؟ فأشار بأصابعه العشر ، ومد لسانه ؛ كناية عن الأحد عشر . فأفلت الظبي ، ولحق بالصحراء . (٢) بليغ (٣) البيان (٤) ثابت

(٥) ارجع إلى نجعة الرائد ، جـ ٢ ص ١٣ — ٢٠

(٦) يتوقف (٧) احتباس منطق (٨) تدركه (٩) حُبسة (١٠) النهر الشديد الجرى

(١١) تخفى وتستر (١٢) جمع حِنو بالكسر وهو كل ما فيه اعوجاج من البدن

وتدفَّقتْ سُيُول البلاغة على لسانه ، إذا أفاض فى كلامه مَلَكَ أَعِنَّة[١] القلوب ، وقوَّم زَيْغَ[٢] النفوس ، وخشعت له الأبصار ، وسكنت الجوارح[٣] ، وخَفَقَت الأفئدة ، وطارت النفوس خَشْيَةً ورِقَّة .

ويقال فى الذم : فلان مُتَشدِّق[٤] ، ثَرْثَار[٥] ، غَثُّ المنطق ، تَفِهُ[٦] الكلام.

إذا تكلم انصرفت عنه الوجوه ، وأعرضت عنه القلوب ، وانقبضت منه الصدور ، وسَئِمَتْه النفوس .

٨ — فى الكتابة والإنشاء :

يقال: فلان كاتب مُجيد ، بارع مُتَأَنِّقٌ ، مُتَفَنِّن ، رَشِيق اللفظ ، مُنَمَّق العبارة ، بديع الإنشاء ، صحيح الديباجة ، حسن الترسُّل ، مصقول العبارة ، سهل الأسلوب ، ناصع البيان ، سليم الذوق ، مُتَفَنِّن فى ضروب الخطاب ، مقبول الإطناب ، بليغ الإيجاز ، قد أُنْزِلت الفصاحة على قَلَمه ، وأنزلت البلاغة على فؤاده .

وإنه لمن أغزر الكتَّاب مادة ، وأطولهم باعا ، وأوسعهم مجالا ، وأسرعهم خاطرا.

وإن فلانا لمن أكابر الكتَّاب ، ومن الكتبة المجيدين ، مُتْقِن لأدوات الكتابة والإنشاء ، مُتضَلِّع من علوم الأدب ، مُحِيط بأسرار البلاغة ، حافظ لأقوال الفصحاء ، وخطب البلغاء ، مُطَّلِع على أشعار العرب ، جامع للحِكَم المسطورة ، والأحاديث المنقولة ، لا يَغيب عنه شىء من طرائف الكلام ولطائفه ونوادره ، عارف بفصيح اللغة وركيكها ، عليم بأسرار اللفظ واشتقاقه ، وحقيقته ومجازه .

---

(١) جمع عِنان وهو سير اللجام (٢) اعوجاج (٣) الأعضاء
(٤) يلوى شدقه عند الكلام (٥) كثير الكلام (٦) لا معنى لكلامه

وإنه ليتعهّد[١] كلامه، ويبالغ فى تنقيحه وتهذيبه، لا ترى فى كلامه ركاكة ولا تعسُّفا، ولا قلقا ولا تكلّفا.

ويقال فى الذم: فلان من ضعاف الكتّاب، سقيم العبارة، ضعيف الملكة، مُتطفّلٌ على موائد الكتبة، بعيد عن مذاهب البلغاء، عامِّىُّ اللفظ، مُبتذل التراكيب، ضعيف النقد، سَيِّئُ اختيار الألفاظ، لم يصافح راحة الأدب، ولم يرتضع أخلاف[٢] الفصاحة، وقد ألِف مَضاجع الركاكة، قَعَدَ به طَبْعُهُ عن مُجارَاة البلغاء[٣].

٩ — فى الشعر:

يقال: فلان شاعر متفنن، مجيد مُفْلِق[٤]، بليغٌ فحل، بعيد الغاية، رفيع الطبقة، وهو شاعرُ عصره غيرَ مدافَع، وشاعر مطبوع، وهو من فحول الشعر، ومن أمراء الشعر، وزعماء القول، جيد الشعر، رصين الشعر، مُنَضَّدُ[٥] اللفظ، مرصَّف[٦] المعانى، رائق الأسلوب، رشيق اللفظ، دقيق المعنى، دقيق الفكر، لطيف التخيُّل، شريف المعانى، ليس فى شعره تكلُّف ولا تعسُّف[٧]، ولا تعقيد ولا غموض، ليس فيه حشو ولا لَغْو، ولا ترى فى قوافيه قلقاً ولا ضعفاً ولا نفوراً.

ويقال: فلان من قالة الشعر، وصاغة الشعر، وصاغة القريض[٨]، وإن له شعراً صافىَ الديباجة، كثير الطلاوة[٩] والطُّرف والبدائع، وإن شعره ليتدفّق سلاسة،

---

(١) يراجعه وينقحه (٢) جمع خلف بالكسر وهو للناقة كالضرع للشاة.
(٣) ارجع إلى (نجعة الرائد ج ٢ ص ٣٠ — ٣٥)
(٤) يأتى بالعجيب فى شعره (٥) منسق (٦) منسق (٧) أن يأتى المعنى من غير وجهه
(٨) الشعر (٩) الرونق

يجول فيه رونق الحسن ، رائق النسيب ، حُلو التغزُّل ، حسن التشبيهات ، بديع الاستعارات ، لطيف الكنايات .

وفلان إذا رام نظم الشعر قامت الألفاظ فى خدمته ، وتلبَّبت[1] المعانى لدعوته ، ولا يزال يأتى بالبيت النادر ، والحكمة البليغة ، والمعنى البديع .

وإنه ليبتكر المعانى ويبتدعها ، وهذا معنى لم يسبق إليه ، ولم ينازعه فيه منازع .

وإن فلاناً لينظِم اللآلئ ، ويُسْكِرُ الألباب ، ويسحِر العقول ، ويخلُب[2] القلوب ، وكأن معانيه السحر البابلىّ ، وكأن كلامه قد صيغ من خالص النُّضار ، وإنه لشعرٌ حَرِىٌّ بأن يكتب على جبهة الدهر ، ويعلّق فى كعبة الفخر .

وهذا الشعر من قلائد فلان ، ومن فرائده ، ونفائسه ، وبدائعه وغرره وحسناته .

ويقال : نبغ فلان فى الشعر إذا أجاده ، وممن ينظم الشعر وينسجُه ، ويحوكه ويصوغه ، ويقرِضه وينشئه .

وإنه ليرتجل الشعر ويبتدِهُه ، ويقوله على البديهة ، وهذه الأبيات من عفو[3] الساعة ، ومن فيض الخاطر ، وفيض القريحة ، وإنه لسريع الخاطر ، طلق البديهة ، فيّاض القريحة ، حاضر الذهن .

وتقول فى الذم : فلان شاعر ضعيف ، سخيف النَّظم ، مهلهل الشعر ، مقصِّر عن طبقة الفحول من الشعراء ، لا ملَكة عنده للنظم ، وليس فى سليقته الشعر .

وإنه متخلِّف الطبع ، سقيم الخاطر ، ناضح القريحة ، خامد البديهة ، صَلْد[4] الخاطر .

---

(١) تجمعت (٢) يخدع (٣) مما أخذ لحينه على غير كلفة (٤) صلب

وإنما هو شُوَيْعر ، وشُعْرُور ، ومتشعِّر ، رثّ الألفاظ ، قلق الأساليب ، سقيم المعانى ، مبتذَل المعانى ، فاسد التعبير ، كثير التكلف ، شديد التعمُّل ، وهو ينظم بالصنعة ، وإنما هو عَرُوضىّ ، وإنما هو مقطِّع أبيات ، ووزّان التفاعيل . وإنما هو وَزَّان لا شاعر ، وإن شعره لتافه فى الذوق ، وإنه لجاف الكلام ، ليس على كلامه بِلَّة الفصاحة ، وليس على شعره طلاوة ولا حلاوة ، ولا رونق ولا رشاقة ولا بداهة ، ولا قدرة له على الاختراع ، ولا فضل فيه للاستنباط . ولا تكاد ترى فى كلامه إلا مترقَّعا[١] .

وتقول : هذه قصيدة عَائِرة[٢] ، وقافية شاردة .

ويقال : هذه قصيدة من غُرَر[٣] القصائد ، ومن عيون الشعر ، ومن محكَم الشعر وجيده . وهذه قصيدة حَذَّاء أو منقطعة القرين ، وهى من قلائد الشعر أى البواقى على الدهر . وهذه قصيدة حكيمة أى فيها كلام حكمة ، وهذا البيت فقرة هذه القصيدة ، أى أجود بيت فيها ، وهو بيت القصيد .

وتقول : هذه قصيدة من سفساف الشعر أى من رديئه .

وتقول : شعر فلان أحسن من حوليات زهير ، وأحسن من اعتذارات النابغة ، وحماسيات عنترة ، وهاشميات الكميت ، ونقائض[٤] جرير ، وخمريات أبى نواس ، وتشبيهات ابن المعتز ، وزهديات أبى العتاهية ، ورَوْضيَّات[٥] الصَّنَوْبَرِىّ ، ولطائف كشاجم .

---

(١) موضع إصلاح (٢) من قولهم عار الفرس يعير إذا ذهب على وجهه
(٣) خيارها (٤) التى ناقض بها الفرزدق فى الهجاء (٥) قصائده فى وصف الرياض

١٠ — فى النقد :

يقال : نقدتُ الكلام وانتقدته ، وتدبرته ، وتأملته ، وتبصَّرته وميّزته ، ونظرتُ فيه ، وأعملت فيه النظر ، وقلّبت فيه النظر ، وأنعمت فيه النظر ، وحككتُ معدنه ، وسَبرتُ[١] غَوْرَه ، وعجَمْتُ عوده أى اختبرتُ صلابته .

وفلان نَقَّاد بصير من جهابذة[٢] أهل العلم ، ومن ذوى البصائر النافذة ، صحيح النقد ، صائب الفكر ، ثاقب النظر ، دقيق النظر ، شديد التنقيب ، دقيق البحث ، بعيد الغَوْر[٣] ، يغوص على الحقائق ، ويكشف عن الغوامض ، خبير بمحاسن الكلام ومساوئه ، عليم بصحيحه وفاسده ، بصير بجيده وسَفْسَافِه .

وتقول : هذا كلام لا يثبت على النقد ، وإن فيه لمطعناً ومأخذاً ، ومَغْمَزاً ، وفيه موضع للنقد ، وموضع للقول .

وتقول: هذا كلام لم يصدر عن علم راسخ ، ولم يُمْلِه علم صحيح ، إنما هو ضَرْبٌ من الخَبْطِ أى التكلم على غيْر هُدى ، وهو بعيد عن جادة[٤] الصواب ، وإن بينه وبين الصواب مراحل .

وقد كان الوجه أن يقال كذا ، والصواب أن يقال كذا ، ولو قيل فى موضعه كذا لكان أسلم ، وكان أقرب إلى الصواب ، وكان هو الوجه ، وهو الصواب .

وتقول : هذا كلام قد حُصِّن[٥] عن نظر الناقد ، وإنه لكلام لا غبار عليه ،

---

(١) قست عمقه (٢) مفردها جهبذ بمعنى النقاد الخبير والكلمة فارسية معربة
(٣) كناية عن التعمق فى الأمور (٤) طريق (٥) لا شبهة عليه

ولا وجه فيه للاعتراض ، ولا شبهة فيه لناظر ، ولا مطعن فيه لغامز[١] ، ولا سبيل عليه لآخذ ، ولا معترض ولا طاعن ولا قادح .

١١ — فى الجدل :

يقال: فلان جَدِل شديد المِراء[٢] ، متين الحجة ، قوى الحجة ، ناصع البرهان ، سديد البرهان ، حاضر الدليل ، صحيح الاستدلال ، بصير بمواضع الحق ، واستنباط الأدلة .

وقد جادل خصمه ، وماراه[٣] ، وناظره ، و باحثه ، وناقشه ، وحاجَّه .

وقد احتج على خصمه بحجة دامغة[٤] ، وجاءه بالدليل المفحم[٥] ، وأيد قوله بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، والأدلة الواضحة .

وقد أفحم خصمه وأبكمه ، وقرعَه[٦] بالحق ، ودحض[٧] حجته وأدحضها ، وزيف[٨] برهانه .

وتقول: هذا هو الحق اليقين ، والحق المبين ، وقد سَفَر الحق ، وحصحص[٩] الحق ، ووضَح الصبح لذى عينين .

وإنه لأمر لا مرية فيه ، ولا مراء فيه ، ولا ريب فى صحته ، ولا موضع فيه لشبهة ، وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان ، وقد تناصرت عليه الحجج ، وقام عليه برهان العقل ، وصححه القياس ، وأيده الوجدان .

---

(١) عائب (٢) الجدال (٣) جادله (٤) تدفع الباطل (٥) المسكت
(٦) رماه به (٧) أبطلها (٨) أظهر زيفه أى فساده (٩) ظهر وثبت

وتقول فى خلاف ذلك : فلان ضعيف الحجة ، ركيك البرهان ، واهن الدليل ، ضعيف البصيرة ، بليد الفكر ، خامل الذهن .

وهذا قول مدفوع ، وقول مردود ، لا ينهض ولا يسمع ، ضعيف السند ، واهى الدليل ، بعيد عن شبَه الصحَّة ، ليس فيه شىء من الحق ، وليس عليه للحق ظل .

وهذا أمر ظاهر البطلان ، لا تعتَل صحته ، ولا يقوم عليه دليل ، ولا تؤيده حجة ، ولا ينهض فيه برهان ، ولا يثبت على النظر .

وهذه حجة واهية ، وواهنة ، وإن حجته لأوهى من بيت العنكبوت ، وأوهن من شبح باطل . وتقول : هذه أدلة متعارضة ، وحجج متخاذلة ، وبينات متناقضة ، يصادم بعضها بعضا ، ويجادل بعضها بعضا ، ويقدح بعضها فى بعض ، ويدفع بعضها فى صدر بعض .

ويقال : فلان متعنت ، يمارى فى الباطل ، ويتحكم فى الجدال ، ولا تراه إلا معاندا أو مكابرا ، أو مغالطا أو مشاغبا .

١٢ — فى حسن المنظر وقبحه :

يقال : فلان جميل المنظر ، جميل الخَلق ، حسن الصورة ، وضىء الطَّلعة ، صبيح الوجه ، مشرق الجبين ، وضَّاح[1] المحيَّا ، ظريف الهيئة ، بديع المحاسن ، معتدل الأعضاء[2] .

---

(١) الأبيض الحسن اللون

(٢) ارجع إلى نجعة الرائد ، ج ٢ ، ص ٤٥ — ٤٧

ويقال فى ضد ذلك: هو قبيح المنظر، بشع المنظر، ذميم الخلقة، مشوّه الخَلْق، جَهِم[١] الوجه، كريه الطلعة، قبيح الهيئة.

وهو أقبح خلق الله صورة، وأقبح من الجاحظ، وأقبح من القرد.

١٣ — فى الكبر والتواضع:

يقال: فلان متكبر، متعظم، متعجرف، مُتَغَطْرِف، مُتَغَطْرِس، منتفِخ مختال.

وإنه لشديد الكبر، والكبرياء، والعجرفة والغطرفة، والغطرسة، والتيه، والخيلاء. وإنه لرجل مَزْهُوٌّ، معجَبٌ بنفسه، فيه زَهْوة وعُجْب وإعجاب.

وتقول من الكناية: صعَّر الرجل[٢] خدَّه، ولوى شِدْقه، ونفخ شِدْقَيْهِ، وشَمَخ بأنفه أى رفعه كِبْرا؛ ورفع رأسه كِبْراً، وجاء ثانى عِطْفه أى جانبه، وهو من الرأس إلى الوَرِك.

وهو أزهى من ديك، وأَزْهَى من غراب.

وترفَّع كِبْرا، ونأى بجانبه، وسما بنفسه تيها واستِكْبَاراً.

وتقول فى خلاف ذلك: هو متواضع النفس، خافض الجناح، متجافٍ[٣] عن مقاعد الكبر.

١٤ — فى الذكاء والبلادة:

يقال: فلان ذكىّ فَطِن، فَهِيمٌ، لَوذَعِىٌّ[٤] أَلْمَعِىٌّ[٥]، حاد الذهن، متوقد الذهن، صافى الذهن، ذكىّ القلب، حديد الفهم، سريع الفهم، سريع الفطنة، سريع الإدراك، صادق الحَدْس، يقظ الفؤاد.

---

(١) كريه (٢) أماله وأعرض به كبراً (٣) متنح (٤) الذكى المتوقد (٥) الذكى المتوقد

وقد فَطِن للمسألة ، وتفطَّن لها ، وزَكِنَها وتنبَّه لها .

وإنه لَفَطِنٌ ، ذَهِنٌ ، وإنه لآية من آيات الله فى ذكاء الفهم ، وصفاء النفس ، ولطافة الحس ، وإنه ليفهم من الإيماء قبل اللفظ ، ومن النظر قبل الإيماء .

وتقول فى ضده : هو بليد ، غبىّ ، أبله ، غافل ومغفَّل ، ضعيف الإدراك ، بطىء الحس ، سقيم الفهم ، بليد الفكر ، مغلق الذهن ، خامل الذكاء ، مظلم البصيرة .

فيه بلادة ، وفَدامة ، وغباوة ، وبَلَهٌ ، وبلاهة ، وغَفْلة .

لا يتنبه للحق ، ولا يكاد يَذْهَن[1] شيئاً ، ولا يكاد يعى قولا ، ولا يستضىء بنور بصيرة .

١٥ — فى الصبر والجزع :

يقال : فلان صابر للأمور ، وصبور ، وقد صبَر على المكروه ، وصَبَّر نفسه ، وتصبَّر واصطبر[2] .

وقد وطَّن فلان نفسه على الصبر ، ولاذ بالصبر ، وتجلَّدَ على مضض المِحَن .

ويقال : أصابه كذا فعَضَّ على ناجذيه[3] ، أى صبر على ما نابه ، وما زال فى أمره رابط الجأش[4] ، وإنه لرجل صُلب العود ، لا تَردعه النوائب ، ولا تنال من صبره الملِمَّات[5] ، ولا يلين جنبه لحادث .

ويقال فى ضده : جَزِع الرجل ، وهلِع ، وهو أشد الجزَع وأفحشه ، وبه جَزَعٌ وهَلَعٌ ، وقد نزلت به نازلة فانحلت عقدة صبره ، ولحقه من الأمر ما عيل به

---

(١) يعقل ويفهم (٢) ارجع إلى نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، لليازجى ، ج ١ ص ٩٠ — ٩٢ و ص ١٠٤ (٣) الضرسان فى أقصى الفم (٤) المراد به القلب (٥) الشدائد

صبره ، وضاق به ذَرْعه ، ونَفَد صبره ، وقد خانه الصبر ، وبات رهين البلابل[١] ، وبات لا يملك دمعه ، ولا يملك قلبه ، وكاد يقضى عليه من الغم .

١٦ — فى السموّ إلى المعالى والقعود عنها :

يقال: فلان خطير النفس ، بعيد الهمة ، يسمو إلى معالى الأمور ، ويصبو إلى شريف المطالب ، ويتسوَّر شرفات[٢] العز ، ويمُدُّ فى وجوه المجد غررا[٣] ، وقد بنى له مجدا مُؤَثَّلا[٤] ، وتسنَّم ذِرْوَة[٥] الشرف ، وصعد إلى فروع العلا ، ووثب إلى قمة الشرف ، وبلغ إلى رفعة لا تُسامَى ، وعزة لا تُغالَب ، ورتبة لا يسمو إليها أمل ، وغاية تتراجع عنها سوابق الهمم .

ويقال فى ضد ذلك : فلان قاعد الهمة ، عاجز الرأى ، متخاذل العزم ، ضعيف النفس ، صغير الهمة ، لا تطمع نفسه إلى مأثَرة ، ولا تسمو همته إلى منقبة[٦] .

وقد رضى بالهُونِ صاحبا ، وأخلد إلى الصَّغَار[٧] ، ورضى من جهله بالدُّون ، وقَنِع من زمانه بالنصيب الأخس ، وقعد عما تسمو إليه النفوس العزيزة ، وترقى إليه الهمم الشريفة . هَمُّه فى قدحين من لبن، وقصعة من ثريد[٨] .

١٧ — فى الكَيْسِ والحمق وذكر الجنون والخرف :

يقال: فلان أريب[٩] لبيب ، كَيِّس ، وكَيْسٌ[١٠] ، فَطِن ، عاقل ، نبيل[١١] ، حصيف[١٢] ، رصين، وافر اللُّب ، مستَحكم العقل .

---

(١) الهموم والوساوس (٢) الشرفة: أعلى الشىء (٣) الغرة: البياض فى وجه الفرس
(٤) راسخاً (٥) ارتقى أعلى الشرف (٦) مفخرة (٧) اطمأن إلى الذل والامتهان
(٨) مرق يفت فيه الخبز (٩) عاقل (١٠) عاقل ظريف (١١) ذكى
(١٢) مستحكم العقل

عنده كَيْس وفطنة ، ونُبْل ودهاء ، وأُرْبَة ، وحَصافة ، ورَصانة .

وهو من ذوى العقل ، واللب ، والحِجَا والنُّهَى[١] . ومن ذوى الألباب والأحلام ، وأولى الأبصار ، ومن ذوى العقول الثاقبة ، والأحلام الراجحة ، والعقول الوافرة ، والأفهام النَّيِّرَة ، والأذهان الصَّافية .

وهو من أكمل الرجال عقلاً ، ومن أشدِّهم رأياً ، ولم أرَ أغزر منه عقلاً ، ولا أنفذ بصيرة ، ولا أصح تمييزاً .

ويقال فى ضد ذلك : هو أحمق ، أخرق ، رقيع سخيف ، ناقص العقل ، خفيف العقل ، ضعيف التمييز .

فيه حُمقٌ وحماقة ، وخُرق ورَقاعة ، وسُخف وسَخافة .

وإنه لرجل سَرِفٌ[٢] العقل ، ورجل مأفونٌ[٣] ، وهو رجل لاحَصاةَ[٤] له .

ويقال رجل أهوج وأرعن ، وهو الأحمق القحل ، معه هَوَج ورعْنٌ ورُعُونة .

ويقال فيما فوق ذلك : قد اختلط الرجل وجنَّ ، واختل عقله ، وخُبِل ، واستُلِب عقله ، وبه اختلاط وجنون وخَبل — وقد مسَّه الجنون ، وبه مسٌّ من جنون ، ومَسٌّ من خَبَالٍ .

وتقول : عَتِهَ الرجل عتَهاً وعتاهاً ، وعُتِه : إذا نقص عقله من غير جنون ، وهو عَتِهٌ ومعتوه .

ورجل مُوَسْوِسٌ إذا كان يحدث نفسه ، وبه وَسْوَاسٌ ، وقد اعترته الوساوس ، فإذا تناهى جنونه قيل به جنون مُطْبق ، ورأيته وقد جُنَّ جنونه ، وثار ثائر جنونه .

---

(١) العقل (٢) فاسده (٣) ناقص العقل (٤) عقل

وتقول : قد خَرِف الشيخ ، وأَفنَد إفناداً : إذا ضعف عقله من الهَرم ، و به خَرَف وفَنَدٌ ـ وقد أخرفه الهَرَم ، وأفنده الكِبَرُ ـ ورأيته وقد طفئت شعلة ذهنه ، وقد سقطت عنه التكاليف ، وأصبح لا يُسأل عما يفعل ، وعادَ لا يعلم من بعد علم شيئاً .

١٨ — فى الشجاعة والجبن :

يقال فلان شجاع باسل ، بئيس ، مِقْدام جرىء ، فاتك ، صارم .

وهو ثَبْت الجَنان[١] ، رابط الجأش[٢] ، صادق البأس ، جرىء الصدر .

وهو من ذوى الشجاعة والبسالة ، والشدة والبأس ، والإقدام والحماسة ، والجرأة ، والصَّرامة والنجدة .

وهو رجل مِغوار[٣] ، وفتاك ، وخَوَّاضُ غمرات[٤] ، وهو أشجع من أسامة[٥] ، وأجرأ من السيل .

وتقول فى خلاف ذلك : هو جبان ، فَشِل ، هَيَّاب ، رِعْدِيد[٦] ـ فيه جبن وجبانة ، وفَشَل ورِعْشَةٌ .

وورد عليه من الهول ما خلَع قلبه ، وهزمَ فؤاده ، وزلزلَ أقدامه ، وكسر رأسه ، وفَتَّ فى ساعده .

١٩ — فى الرِّقَّة والقسوة :

يقال : رَقَّ له ، وشَفِق عليه ، وأشفق عليه ، ورَئِفَ به ، وعطَف عليه ، وحَدِب عليه ، ولان له ، ولَطَف به ، ورفق به .

---

(١) ثابت القلب (٢) المراد به القلب (٣) كثير الغارات (٤) شدائد
(٥) علم جنس للأسد (٦) الذى يرعد عند القتال جبناً

وقد رقّ له قلبه ، ولانَ له فؤاده ، ورفرف عليه بجناحه ، وخفض عليه جناح رحمته ، وهو رجل رءوف ، عطوف ، رحيم ، شفيق ، رفيق ، رقيق القلب .

وتقول : هذه حالة يرثى لها ، وإنها لحالة تتوجع لها القلوب رقة ، وتنفطر لها القلوب رحمة ، وترقُّ لها الأكباد الغليظة ، وتلين لها القلوب القاسية ، ويتصدَّع لها فؤاد الجلمود ، ويبكى لها الحجر الأصم .

ويقال : رفرف الرجل على ولده إذا تحنَّى عليه ، وحَنَت المرأة على ولدها ، وحَدِبَت عليهم ، وأشبلَتْ عليهم إذا أقامت عليهم بعد زوجها ولم تتزوّج .

ويقال فى خلاف ذلك : هو قاسى القلب ، غليظ الكبد ، جافى الطبع ، خشن الجانب ، فَظُّ الأخلاق ، فيه قسوة ، وغِلظَة ، وجفاء ، وخشونة ، وفظاظة .

وقد قسا قلبه على فلان ، وثنى عنه عِطْف رحمته .

وتقول : لفلان قلب لا يعرف اللين ، ولا تدخله رحمة ، وإن له قلباً أقسى من الحديد ، وأصلب من الجلمود .

٢٠ — فى سهولة الخُلق وتوعُّره :

يقال : فلان سهل الأخلاق ، سَلِس الطباع ، لَيِّنُ العريكة ، دَمِث[1] الطبع ، ليِّن الجانب ، رقيق الحاشية ، رضىّ الأخلاق ، سَلِس القياد[2] .

فى خلقه لينٌ وسهولة ، وسلاسة ، ودَمَاثة . وإن أخلاقه أسلس من الماء ، وألْيَن من أعطاف النسيم .

---

(١) لين سهل (٢) سهل الانقياد

وتقول فى ضده : هو شَرِس شَكِس ، سيئ الخلق ، فجّ الطبع ، فظ الأخلاق ، جافى الطبع ، غليظ الطبع ، شديد الشكيمة[١] ، شديد التصلُّب ، لا تلين صفاته ، ولا تنحل عقدته ، كأنه قُدَّ من صخر ، وكأنما طُبع[٢] من جلمود .

وهو فى منتهى الشراسة والشكاسة ، والفظاظة والجفاء ، والخشونة والغِلظة .

٢١ — فى الحلم والسَّفه :

يقال : فلان حليم الطبع ، واسع الخلُق ، رَحْب الصدر ، واسع الأناة ، وقور النفس ، راجح الحلم ، خافض الجناح ، رصين رزين ، وادع[٣] ، وقور ، حصيف ، مُتَّئد ، متأنٍّ ، متثبِّت .

وفيه حلم ووقار ، وسكينة ، ورجاحة ، ورزانة ، ورصانة ، ورِفق ، ودَعة أو حَصَافة ، وتُؤَدة ، وأناة .

ويقال فى خلاف ذلك : هو سفيه نَزِقٌ خفيف طائش — وإنه لحاد الطبع ، طائش الحلم ، قصير الأناة . وإن فيه لسفهاً ، وسفاهة ، ونزقاً ، وخفة ، وطيشاً وحدّة[٤] .

٢٢ — فى الغضب وإطفائه :

يقال : قد غاظنى هـذا الأمر ، وأسخطنى ، وأغضبنى ، وأثار حَنَقى ، وأضْرَم غيظى ، وأوْغَر[٥] صدرى .

ورأيته مُغْضَباً مُحنَقاً يغلى من الغيظ ، ويفور من الغضب ، ويتوقَّد ويتلظى ، ويتوهَّج ويتأجَّج .

---

(١) صعب الخلق (٢) خلق (٣) من الدعة وهى السكينة
(٤) ارجع إلى نجعة الرائد ، ج ١ ، ص ٩٦ . (٥) أحمى

ويقال : امتلأ الرجل غيظاً، وهاج هائجُه ، وثار ثائرُه ، وطار طائره ، ووغِر[1] صدره . وقد غضب حتى كاد يخرج من ثيابه ، وكاد يتميز[2] من الغيظ ، وقد انفطرت مرارتُه من الغيظ .

وتقول فى الاسترضاء : أعتبْتُ الرجل من عَتْبه أى أزلت عُتْبَه ، وقد سَرَّيت من غضبه ، وسكَّنت غضبه ، وأزلت امتعاضه ، ولِنْتُ له حتى لان ، ورضىَ بعد سُخطه ، وسكنت ثورته ، وانكسرت حدة غضبه ، وثاب إليه حلمه ، ورجعت أناته .

٢٣ — فى الطمع والقناعة :

يقال: فلان طمَّاع حريص ، نَهِم جَشِع ، شَرِه، كثير الأطماع ، واسع المطامع ، شديد الحرص ، وإن فيه لطمعاً وحرصاً ونهَماً ونَهْمة ، وجشَعاً وشَرَهاً .

وتقول فى ضده : قَنِع فلان بما قسم له ، ورضى به ، واكتفى به ، وإنه لرجل قنوع، عفيف النفس ، انصرفت نفسه عن الشىء ، وإنه ليَعِفُّ عن المطامع الدنيئة ، وفيه قناعة ورضاً ، وعفّة وعفاف ، وإنه ليقنَع من الدنيا باليسير ، ويجتزئ منها بالكَفَاف .

٢٤ — فى تقدم الرجل على أقرانه :

يقال : سبق فلان أقرانَه فى العلم والفضل ، وبذَّهم وفاقَهم ، وبرَّز تبريزاً . وإن له فى هذا المقام القدمَ السابقة ، وهو أسبقهم غيرَ مدافَع ، وأفضلهم غيرَ معارَض .

---

(١) غلى (٢) يتقطع

وفلان سَبَّاق إلى الغايات ، وسابق لا يُجَارَى ، ولا يُبَارَى ، ولا تُرَامُ غايته ، ولا يُدْرَكُ شَأْوه[١] ، ولا يُشق غباره ، ولا تلحق آثاره ، وقد بان سَبْقُه على خَصْمه ، وحاز قصب السَّبْق .

٢٥ — فى القدوة والاحتذاء :

يقال : حَذَوْتُ حَذْوَ فلان ، ونَحَوْتُ نحوَه ، واقتديْتُ بسيرته ، ونَهَجْتُ سبيله ، وسلكتُ طريقتَه ، وقَفَوْتُ إثْرَه ، وجريْتُ على مِنهاجه ، وتخلّقتُ بأخلاقه ، وتحلَّيْتُ بحليته ، واستننتُ بسنته[٢] ، وجريت على أسلوبه .

ويقال : إنه يُضارع فلاناً ويحاكيه ، ويتشبّه به ، ويتمثَّلُ به .

٢٦ — فى العزّة والذِّلة :

يقال : فلان عزيز الجانب ، حصين الناحية ، وإنه لفى مَنَعَة من قومه ، وفى حِمًى لا يُقْرَب ، وفى حِرْزٍ حريزٍ لا يناله طالب ، ولا يَطمع فيه طامع . وإن له عزةً قعْساء[٣] ، وقد أقام تحت ظلال العز .

ويقال فى خلاف ذلك : فلان ذليل ، عاجز مَهين ، مستضعَف ، مستذَل ، مقصوص الجناح ، مهيض[٤] الجناح .

وقد ذلّ الرجل وخَشَع ، وخضع واستكان ، وتصاغر ، وتضاءل ، ولانت شوكته ، ولانت قناته . وقد أذلَّه فلان ، وأرغمه ، وعَفَّر وجهه ، وأذلَّ ناصيته[٥] .

---

(١) غايته (٢) اقتديت بطريقته (٣) ثابتة منيعة (٤) مكسور (٥) ارجع إلى نجعة الرائد ، ج ١ ص ٣٩١ .

الفصل التاسع

جمال اللغة العربية
وميراثها العلمى والأدبى

اللغة العربية لغة موسيقية الألفاظ، دقيقة الأوزان، تمتاز بجمال التعبير، وسحر الأداء. ويتجلى سر جمالها فى هذا الفن القولى الذى وعته، وذلك المجهود الأدبى الذى خلفته، كما تمتاز بما فيها من طرق الإبانة المختلفة التى تملك القلب والحس والسمع. وإن الذين درسوا هذه اللغة ووقفوا على أسرار بلاغتها يدركون جمالها اللغوى البديع. ولا عجب؛ فقد نزل بها القرآن الكريم، وهو فى الذروة العليا من الفصاحة وقوة البيان، وروعة التعبير. والمستشرقون الذين حاولوا دراستها شعروا فى أول الأمر بصعوبتها، ولكن كلما تعمقوا فى دراستها أحسوا جمالها الطبيعى، وعرفوا قدرها، فانكبوا يغوصون وراء لآلئها، فنالت من نفوسهم الإعجاب والتقدير.

ومن هؤلاء المستشرقين «دى ديو[١]»، و«سكلتِنز[٢]»، و«سكريدر[٣]»، و«سكِيد[٤]»، و«هوتِنجَر[٥]» من الهولنديين، ونُولدِكه[٦] و«جزِنيس[٧]» من الألمانيين، ورينان[٨] الفرنسى.

---

(١) De Dieu (٢) Schultens (٣) Schroeder (٤) Scheid
(٥) Hottinger (٦) Noldeke (٧) Gesenius (٨) Renan

عناصر جمال اللغة العربية :

إن عناصر جمال اللغة العربية كثيرة : منها تراكيبها البليغة التى تفوق بها أى لغة أخرى ، وحروفها المرتبة ترتيبا منطقيا بذّت به ترتيب حروف اللغة العبرية ، وقواعدها المنسقة المنطقية. ومن الممكن أن تكون الاستثناءات من قواعدها فى شكل منطق . ومن السهل أن يرى ذلك العنصر بالرجوع إلى أى موضوع أو قاعدة فيها .

وللثروة اللفظية لهذه اللغة أثر فى جمالها . و إذا قورنت اللغة العربية باللغات السامية أو بغيرها من اللغات الأخرى وجد أنها لم تتأثر بكثير من الألفاظ الدخيلة كما تأثر غيرها؛ فهى لغة صافية نقية . ولا يمكن أن يعد ذلك ضربا من العجز أو التقصير . فهى غنية بمفرداتها الأصلية الكثيرة . وقد نشأ هذا عن المركز الجغرافى لبلاد العرب . فالعرب منذ جاهليتهم لم يختلطوا اختلاطا شديدا بغيرهم من الأمم المجاورة ، كما نشأ ذلك عن الأدب العربى القديم . فالألفاظ التى جمعها اللغويون كانوا يحرصون فى جمعها على أن تكون مما نطق به الشعر القديم . وللقرآن الكريم أثر آخر فى المحافظة عليها ، والضن بها من أن تصير لغة ممسوخة . فالقرآن هو الوثيقة الخالدة فى أيدى العلماء واللغويين. ولا شك أن هذا التنزيل الحكيم - وهو الحجة السماوية، والكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كان ذا أثر فى أننا نرى أنفسنا اليوم قادرين على قراءة اللغة - التى كان ينشد بها امرؤ القيس شعره - وفهمها ، مع طول العهد بيننا و بينه ، وامتداد الزمن ، وتطاول الحقب . يقول « لَنزِنْج[1] » :

« فى الوقت الذى صارت فيه اللغات الأخرى من اللغات السامية ميتة ، وتغيرت واختفت فى كثير من أشكالها ومعانيها نجد اللغة العربية قد بقيت حية صافية كاملة، لم يمسها تغيير أو موت » . ولا عجب؛ فقد كانت الأمة العربية تسكن شبه جزيرة

(١) Lansing

تكاد تكون مغلقة ، فهى لذلك لم تختلط بغيرها من الشعوب إلا قليلا ، ولهذا بعدت هذه اللغة كل البعد عن الأسباب التى تؤدى إلى فساد اللغة وانحطاطها . وقد كانت المحافظة على الأدب القديم من دواعى بقاء هذه اللغة بدوية صافية ، لا تشوبها شائبة . فلولا القرآن الكريم ، وكتب الأدب القديم لصعب على سكان مصر وسورية ومراكش وعمان أن يفهم أحدهم الآخر ، ولتغيرت لغة الكتابة تغيرا عظيما . ولكن وجود أدب اللغة قد حفظ لغة الكتابة وأبقاها واحدة ؛ لتكون صلة بين الناطقين بالضاد ، وكان رادعا دائما للألفاظ الدخيلة التى تتسرب إلى اللغة الأدبية ، ولغة المحادثة .

وأهم عنصر من عناصر جمال اللغة العربية هو من غير شك أدب لغتها العظيم ؛ ففى الشعر العربى وحده يستطيع العرب أن يتحدوا بلاغات العالم كله . فالشعر العربى فى العصر الجاهلى وفيما تلاه من عصور ـ غنىٌّ بفنه الذى ظهر فيه . وما من شك فى أن العرب لم يقولوا الشعر إلا فى فن واحد ، هو فن الغناء . أما الفرنجة ـ ومنهم اليونان والرومان ـ فقد قالوا الشعر فى فنونه الثلاثة : فى الغناء ، وفى القصص ، وفى التمثيل . ولكن ما أثر عن العرب فى الشعر الغنائى يفوق بكثرته وجماله كل ما قيل فى أدب أى أمة قديمة أو حديثة .

ومن أسرار جمال اللغة العربية هذا النحو الذى هو قطعة دقيقة من التفكير العربى ، ثم ما وعته هذه اللغة من مجهود أدبى لا يمكن أن تدعيه لغة من اللغات ؛ ففى بغداد وقرطبة ملأ المؤرخون والعلماء والأدباء مكتبات ضخمة بعلومهم وآدابهم . وقد ضرب العرب بسهم وافر فى كل ضرب من ضروب المعرفة الإنسانية ، وأحاطوا بفلسفات العالم كله ، وثقافات اليونان والفرس والهند والصين . وفى المكتبة العربية بقرطبة

أكثر من أربعمائة ألف مجلد فى شتى المعارف والفنون . ولولا طغيان البرابرة شرقا وغربا لجاءنا تراث ضخم يدعو إلى العجب ؛ ففى الشرق أطاح التتار بخلافة العباسيين، وأنشئوا جسورا من المجلدات الحافلة بالعلوم والفنون فى نهر دجلة . وفى الغرب أعمى التعصب بعض الطوائف الأوروبية ، فقضوا على البقية الباقية من عرب الأندلس . وفى أثناء تلك الفتن المبيدة أتلفت وفقدت مئات الألوف من المجلدات الضخمة .

مآثر العرب فى العلم والفلسفة :

ومما لا مجال للشك فيه أن للعرب مآثر عظيمة فى العلم والفلسفة لايمحوها الزمن، ولا يطمس نورها الأبلج التعصب الأعمى ؛ فعلم الجبر وعلم الهيئة مدينان بوجودهما للعرب خاصة . ولقد عُنى العرب بجميع العلوم ، وأضافوا إليها كثيراً من أفكارهم ، كما نقلوا فلسفة أفلاطون وأرسطو ، فأوضحوا غامضها ، وكانوا أمناء على المعرفة . ولولا مجهود العرب فى هذه الناحية ماأشرق عصر الإحياء والنهضة فى أوروبة، أو لتأخر قرونا.

وما من شك أيضاً أن اللغة التى تحمل كل هذا لغة مرنة طيعة ، فيها سَعة ، وفيها جمال أدبى ، وقدرة فائقة على التعبير . بل لا نكون مغالين إذا قلنا : إن الأدب العربى فى القرون الوسطى كان أدباً عالميًا بمعنى الكلمة ، وهذا ما لا تستطيع أن تدعيه أمة لأدبها فى هذا العصر . ولا يغض من جمال اللغة العربية وقدرتها التعبيرية أنها لغة صعبة على كل من يريد السيطرة عليها ، بفهم أسرارها ، والإحاطة بدقائقها ؛ فقد كتب أحد المبشرين بمصر سنة ١٨٦٤ م . يقول :

« إنى أفضل أن أسير على قدمى من الإسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح ، وأجوب إفريقية ماشياً على قدمى، من أن أتعهد مرة واحدة بالسيطرة على اللغة العربية» .

قد يكون هذا القس مبالغاً فيما ادعاه، ولكن الحق الذى لاشائبة فيه أن الصعوبة

الأولى فى اللغة العربية على الأجانب هى فى نطقها نطقاً صحيحاً[1] ، وفى وجود حروف عربية لا مقابل لها فى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية . ويشكو الأجنبى صعوبة النحو العربى ؛ وذلك لأن قواعد الإنجليزية مثلا سهلة مبسطة . وقد يكون لعلماء النحو العربى مندوحة فيما ذهبوا إليه حين أكثروا قواعده، وفرعوا مسائله ؛ فقد كان ذلك حرصاً منهم على اللغة ، بعثه الخوف على القرآن الكريم، كما يشعر الأجنبى حين يتعلم العربية بأنها تختلف فى أسلوبها عن اللغات الأوروبية اختلاف الشرق عن الغرب . والذين يرمون اللغة العربية بأنها صعبة على الناشئين والمتعلمين عامة ربما لا يكونون منصفين فى دعواهم ؛ فكل لغة من اللغات لا تخلو من صعوبة على المبتدئين ، غير أن هذه الصعوبة تختلف باختلاف الأحوال المحيطة بكل لغة .

وأصول الكلمات فى اللغة العربية ثلاثة : فاء الكلمة وعينها ولامها . وهذا أصل الموازين الصرفية فيها . وفى هذه الموازين وكثرتها وتنوعها ما يدل على غنى هذه اللغة ، وثرائها اللفظى . وفى اللغة العربية ألوف من الألفاظ صارت مهجورة ، وهى مبثوثة فى بطون المعاجم ،وأسفار الأدب القديم . ومن أجل ذلك كان الدارسون لنصوص الأدب العربى فى عصوره القديمة فى حاجة شديدة إلى شرح كثير من الألفاظ، حتى يستطيعوا أن يفهموا النص الأدبى ، ويتذوقوا ما فيه من جمال التعبير .

وقد ذهب المستشرقون إلى أن اللغة العربية أكبر من أن تعرف معرفة تامة ، يحاط فيها بكل أسرارها ؛ فهى بحر زاخر لا ترى سواحله ، وأن إجادة أى علم من علومها لا تمكن الطالب من فهم أسرارها؛ فربما يستطيع القارئ أن يقرأ القرآن الكريم،

---

(١) وقد يشترك معهم فى صعوبة النطق الصحيح إلى حد ما المتعلمون من أبنائها فى أول تعلمهم لها؛ لطغيان اللغة العامية المتأثرة بالألفاظ الدخيلة التى لا حصر لها .

وأن يفهم أسلوبه الحكيم . فإذا ولى وجهه شطر كتب الأدب القديم ، وحاول فهمها ، وجد نفسه فى بحر خضم ، ومحيط عميق ، عاجزاً عن فهم بعض ما يقرأ ، ولعل السر فى ذلك يرجع إلى طول عمر هذه اللغة وتغلبها على حوادث الزمن ، بخلاف غيرها من اللغات ، انظر إلى ما كتبه (إيُون كِيث فَالكُونَر (١)) تلميذ الدكتور (رَايْت (٢)) المستشرق الإنجليزى بعد أن نال درجة الشرف من جامعة كمبردج فى اللغات السامية ، و بعد أن درس اللغة العربية دراسة خاصة فى جامعة « ليبزج » ثم حضر إلى أسيوط ، والتقى بأساتذة هذه اللغة بمصر يقول :

« إنى سائر بنجاح فى اللغة العربية ، ولكنها صعبة جدًّا . لقد عرفت مقداراً كبيراً ، وأستطيع التفاهم مع الخدم ، ولدىّ مدرس يقوم بتعليمى هذه اللغة ساعتين كل يوم » . و بعد أن قضى خمس سنوات فى دراسة مستمرة كتب مرة أخرى وهو فى عدن فى ١٧ من يناير سنة ١٨٦٦م . يقول :

« إنى أحسن التكلم باللغة العربية ، ولكنى سأحتاج إلى وقت طويل ، حتى أستطيع أن أخطب بها » .

وفى نصوص هذه اللغة القديمة والحديثة أمثلة رائعة ، ونماذج بارعة ، توقف القارئ على شىء كثير من جمالها فى التعبير ، ودقتها فى الإفصاح عن خلجات النفوس ، وتصوير العواطف الإنسانية .

يقول بعض بنى قيس بن ثعلبة ، وقيل هو بشامة (٣) بن حسن النَّهْشَلى :

إنا محيُّوكِ يا سَلمَى فحيِّينَا وإن سقَيْتِ كرامَ الناسِ فاسْقِينَا

---

(١) Ion Keith Falconer (٢) Dr. Wright

(٣) ليس له ترجمة فى كتب الأنساب ، والظاهر أنه إسلامى .

وإن دعوتِ إلى جُلَّى[١] ومكرُمةٍ ... يوما سراةَ[٢] كرامِ الناسِ فادْعينا

إن تُبتدر[٣] غايةٌ يوما لمكرمةٍ ... تلق السوابقَ منا والمصلِّينا[٤]

وليس يَهلِكُ منا سيدٌ أبداً ... إلا افتلينا[٥] غلاماً سيِّدا فينا

إنَّا لنُرْخِصُ يوم الرَّوْع[٦] أنفسَنا ... ولو نُسام[٧] بها فى الأمْن أُغْلِينا

بيضٌ مفارِقُنا ، سُودٌ مراجِلُنا ... نأسو[٨] بأموالنا آثارَ أيْدينا

إنى لَمِنْ مَعْشرٍ أفنَى أوائلَهم ... قيلُ الكُماةِ[٩] : ألا أيْنَ المحامُونا ؟

وفى هذه الأبيات رقة وجزالة ؛ فالكلمات والجمل مطردة ، والحروف متناسقة، صافية النغم ، فضلا عما فيها من شعور صادق ، وخيال يقظ ، ومعان إنسانية كريمة، وصفات يعدها العرب جل مفاخرهم .

ثم انظر إلى قول معن بن أوس، ومافيه من عظمة الفضل والوقار ، ودقة التصوير، وجمال العبارة :

لعمركَ ما أهويتُ[١٠] كفِّى لريبةٍ ... ولا حملتْنى نحوَ فاحشةٍ رجلِى

ولا قادنِى سمعِى ولا بصرِى لها ... ولا دلَّنى رأيى عليها ولا عقلى

وأعلمُ أنى لم تُصِبْنى مصيبةٌ ... من الدهر إلا قد أصابت فتًى قَبْلى

ولستُ بماشٍ ما حييتُ لمنكرٍ ... من الأمر لا يمشى إلى مِثْلِهِ مثلى

---

(١) الجلى: الأمر العظيم (٢) السراة : أشراف الناس وعظماؤهم (٣) تبتدر : يسرع الناس إليها
(٤) المصلين : الذين يلون السابقين . والأصل فى هذا التعبير أن الجواد الذى يسبق غيره إلى نهاية حلبة السباق يسمى المجلى، والذى يليه المصلى (٥) افتلينا غلاما : فطمناه عن الرضاع
(٦) الروع : الفزع والمراد الحرب (٧) نسام بها : تطلب منا (٨) نأسو : نداوى
(٩) الكماة : المحاربون الشجعان (١٠) أهويت كفى : مددتها

وسترى أن للفراق لوعة يتدفق منهـا الحنين والذكرى حين يقول ابن الجهم فى الفراق :

يا رحمتاَ للغريب بالبلد النـا ... زحِ[1] ، ماذا بنفسه صَنَعا

فارقَ أحْبابَه فما انتفعُوا ، ... بالعيشِ من بعدِه ولا انتفعا

ويقول فى الفراق والشوق :

اعْلمِى يا أحَبَّ شىء إليَّا ... أن شوقِى إليكِ قاضٍ[2] عليَّا

إن قضَى اللهُ لِى رجوعاً إليكُمْ ... لا ذكرتُ الفراقَ ما دُمْتُ حَيَّا

إن حَرَّ الفراقِ أنْحَلَ جِسْمِى ... وكوَى القلْبَ مِنِّى الشوقُ كيَّا

وقال البحترى يمدح محمد بن على بن عيسى القُمِّى :

ذاكَ وادى الأَراكِ فاحبِسْ قليلا ... مُقْصِراً من صبابَةٍ[3] أو مُطيلا

قف مشوقا أو مُسْعِداً أو حزينا ... أو معيناً أو عاذراً أو عذولا

إن بين الكَثيبِ فالجِزْعِ فالآ ... رامِ ربعا لآل هندٍ مُحيلا[4]

لم يكن يومُنا طويلا بنعما ... نَ[5] ولكن كان البكاءُ طويلا

قد وجدنا محمدَ بنَ عليٍّ ... غايةَ[6] المجدِ قائلا وفعُولا

ولقينا شمائلا تنثُرُ المِسْـ ... ـكَ سحيقا كما لقينا الشَّمُولا[7]

ورأينا سيما نَدًى[8] وسَماحٍ ... لم نُرد بعدها عليه دَليلا

---

(١) النازح : البعيد (٢) قاض علىّ : مهلكى (٣) الصبابة : الشوق

(٤) الكثيب والجزع والآرام : أسماء أماكن فى بلاد العرب . وربعاً مُحيلا : منزلا مضت عليه أحوال أى سنون طويلة (٥) نعمان : اسم مكان (٦) غاية : نهاية (٧) الشمائل : الطباع والأخلاق . والشمول : الخمر ، والمراد أن طباعه تملك الألباب لحسنها (٨) سيما ندى : علامة كرم وجود .

أَشْعَرِيٌّ كَفَاهُ عيسى بن مُوسى شرفاً بات للسِّمَاك رَسِيلا[١]

فألفاظ البحترى كما يقول صاحب المثل السائر : إنهـا كنساء حسان ، عليهن غلائل مصبغات ، قد تحلَّين بأصناف الحِلَى . ولا شك؛ فالبحترى فى هذه الأبيات سلس العبارة ، عذب الموسيقا ، له ديباجة الحرير ، واطراد الماء الجارى .

وهل رأيت شعراً أرق من قول الشاعر :

رُبَّ ورقاءَ هَتوفٍ[٢] فى الضحا ذاتِ شجْوٍ[٣] صدَحَتْ فى فَنَنِ[٤]
ذكرت إلْفاً ودهراً سَالفاً[٥] فبكت حُزْناً فهاجت حَزَنِى
فبكائى رُبمـا أرَّقَهـا وبُكاها رُبمـا أرَّقَنِى[٦]
ولقدْ تشكُو فمـا أفْهَمُهَا ولقَدْ أشْكُو فما تَفْهَمُنِى
غيرَ أنِّى بالجوَى أعْرِفُهـا وهْى أيْضًا بالجوى تَعْرِفُنِى[٧]

وما أجمل قولَ أبى الطيب المتنبى فى المدح :

كالبدْرِ من حيثُ التفتَّ وجدْتَه يُهْدِى إلى عينيك نورًا ثاقبا[٨]
كالبحر يقذِفُ للقريبِ جواهراً جوداً ويبعثُ للبعيـد سحَائبا
كالشمس فى كبد السماءِ وضَوْءُهَا يَغْشَى البـلادَ مشارقاً ومغاربا

ويقول ابن المعتز فى الكرم وقد أجاد وأبدع :

ليس الكريمُ الذى يُعطى عطيَّتَهُ عن الثناء وإنْ أغْلَى به الثَّمَنَا

---

(١) السماك : نجم عظيم الارتفاع . والرسيل هو الرسول ، والمراد أن شرفه بلغ السماك فى العلو والرفعة (٢) ورقاء هتوف : حمامة صائحة (٣) ذات شجو : حزينة (٤) صدحت فى فنن : صاحت على غصن (٥) سالفاً : سابقاً (٦) أرقها : منع نومها
(٧) الجوى : الحزن وحرقة الوجد (٨) ثاقباً : ساطعاً

بل الكريمُ الذى يُعطى عطيَّتَهُ لغير شىء سوى اسْتِحْسانِهِ الحسنا
لا يَسْتَثِيبُ[١] ببذْلِ العُرْفِ مَحْمَدَةً ولا يَمُنُّ إذا ما قلَّدَ المِنَنا

ثم تأمل أبا الطيب حين يقول ، فترى فى قوله حكمة رائعة ، وفلسفة عالية :

نحن بَنُو الموتَى فما بالُنا نَعافُ[٢] ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ
تبخَلُ أيْدِينا بأرْوَاحِنا على زمانٍ هى من كَسْبِهِ
فهذه الأرواحُ من جَوِّهِ وهذه الأجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ
لو فكَّرَ العاشِقُ فى منتهى حُسْنِ الذى يَسْبِيهِ[٣] لم يَسْبِهِ

وهذا أعرابى يغنِّى فيروقك غناؤه ، وتطرب لنغماته المرقصة ، وموسيقاه الجميلة :

أقولُ لصاحبى والعِيسُ تَهوى بنا بين المنيفة فالضِّمارِ[٤]
تمتع من شميم عَرارِ[٥] نَجْدٍ فما بعد العشيَّةِ من عَرارِ
ألا ياحبّذا نفحاتُ نجْدٍ وريَّا روضِهِ غبّ القِطارِ[٦]
وعيشُك إذ يَحُل القومُ نجدًا وأنتَ على زمانك غير زارِ[٧]
شهور ينقضين وما شعَرْنا بأنْصافٍ لَهُنَّ ولا سِرارِ[٨]

ولرسول الله صلوات الله عليه ، وهو أفصح من نطق ، وأبلغ من تكلم ، قوله : يا خيلَ الله اركبى . ما عالَ[٩] من اقتصَد . من بدَا جفَا[١٠] . حدِّث عن البحر

---

(١) يستثيب : يطلب الجزاء (٢) نعاف : نكره (٣) يسبيه : يملك عقله
(٤) العيس : الإبل . تهوى : تجد فى سيرها . المنيفة والضمار : اسما مكانين
(٥) العرار : نبت طيب الرائحة من نبات البادية . (٦) حبذا : حسنت وطابت . نفحات : رائحة . ريا : رائحة . غب القطار : بعد المطر (٧) غير زار : غير عاتب . والمراد أن زمانه ذاك قد صفا من المنقصات فلم يجد فيه ما يسوءه ويعاتب الدهر عليه (٨) السرار : الليالى المعتمة فى أواخر الشهر (٩) عال : افتقر (١٠) بدا : استوطن البادية . جفا : خشنت طباعه .

ولا حرج . كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له . المجالسُ بالأمانات . كرم العهدِ من الإيمان . كل الصيد فى جوف الفَرا[١] . هدنة على دخَن[٢] ، وجماعة على أقذاء[٣] . التوبةُ تهدِم الحوْبةَ[٤] . اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظرُ بنور الله . احذروا مَن لا يرجى خيرُه ، ولا يؤمن شره . الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلةً . أصحابى كالنجوم، بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم .

وفى هذه الحكم النبوية ترى فنًّا جميلاً من القول ، قلَّت فيه حروف الكلمات، وكثرت المعانى ، وجلّ عن الصنعة ، ونزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يامحمد « وما أنا من المتكلِّفين » .

وفيما تقدم من النصوص يشعر القارئ الذى يتذوَّق الأدب ، ويكون على حظ من معرفة جيده من رديئه بأن أساليب اللغة العربية تمتاز بما فيها من جمال وعذوبة ، وأن الصنعة البيانية فيها قد بلغت الذروة الرفيعة .

---

(١) الفرا : الحمار الوحشى ، والمراد أنه أكبر ما يُصاد (٢) دخن : حقد ، والمراد أن الكف عن الحرب كان لعلة لا لصفاء النفوس (٣) الأقذاء : جمع قذى وهو ما يقع فى العين فيؤلمها ، أو فى الشراب فيوسخه (٤) الحوبة : الجريرة والذنب .

مركز اللغة العربية

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، والقرآن الكريم : « لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَديه ولا مِنْ خَلفِه ، تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميد » . ولا يمكن أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى ترجمة كاملة تتجلى فيها بدائع الصيغ التى أعجزت أبلغ الفصحاء ؛ لأن المترجم قد يضطر إلى الشرح فيقع فى التحريف . وقد قامت بترجمته بعض الجماعات المسيحية التبشيرية ؛ فجاءت ترجمته مشوهة ، ضاع فيها الغرض البلاغى ، وفقد منها الإعجاز اللفظى والمعنوى . وترجم معناه محمد على الهندى . وعلى كل مسلم - سواء أكان فارسيا أم تركيا ، صينيا أم حبشيا ، هنديا أم أفغانيا - أن يحفظ من القرآن الكريم القدر الضرورى للصلوات الخمس ، ويعرف قليلا من اللغة العربية .

وقد كسبت اللغة العربية بحكم وضعها الدينى مكانة سامية بين اللغات الحية قديما وحديثا . والفضل فى ذلك للقرآن الكريم الذى صانها من كيد كل عابث . وبهذه الخاصة صرنا الآن نقرأ شعر امرئ القيس ، ونفهمه بعد مراجعة يسيرة ، وأنت تعرف كم قرنا مر على هذا الشاعر الجاهلى ، وان تجد ذلك فى سائر اللغات .

وكل أمة استظلت براية الإسلام ، غمرطوفان العربية لغتها ، فكتبت بالكلمات العربية ، والعبارات الاصطلاحية فى المؤلفات الدينية والعلمية . يقول المرحوم الأستاذ (بروْنِي[1]) المستشرق الإنجليزى الكبير : « إن من الصعب أن تكتب لغة

---

(١) Browne

فارسية خالية من اللغة العربية ، كما أن من الصعب أن تكتب لغة إنكليزية خالية من اللغة الإغريقية أو اللاتينية . ومن الممكن فعل ذلك فى حدود معينة ، لكن النتيجة هى أن من الصعب فهم ما يكتب من غير التجاء إلى المعجم . وحينما أكتب هذا، أمامى صحيفة فارسية، مادتها سهلة ، وأفكارها واضحة، ومع ذلك فإن الكتّاب أنفسهم شعروا بأنهم مضطرون لكتابة هامش لما يكتبون ، شارحين معانى اثنتى عشرة كلمة على الأقل من مائة كلمة ، بما يرادفها من الكلمات العربية ؛ حتى يستطيع القارئ الفارسى العادى أن يفهمها ، مثل : دَارَاد : صِراط . خُهْر : وَطَن . فارْهِخْت : أدب . وهكذا . والكلمات : صراط ، وطن ، أدب : ألفاظ عربية استعارتها الفارسية. والكتب الفارسية حتى القديمة منها لاتخلو من الكلمات العربية كما يظن » .

وقد قال أحد الحكماء : « وضعت الحكمة فى ثلاثة أشياء : مخ الإفرنج ، وأيدى الصينيين ، ولسان العرب » .

الأدب العربى أدب عالَمى :

انتشرت اللغة العربية على وجه الأرض انتشاراً عظيما ، ولها صلة كبيرة بالنوع الإنسانى أكثر من أى لغة أخرى . ولا عجب ؛ فقد كان الأدب العربى فى العصور الوسطى يعد أدباً عالميا ، واللغة العربية حاملة لواء التراث الثقافى العالمى . وفى العالم اليوم نحو سبعين ألف ألف من الناس يتكلمون اللغة العربية، كأنها لغة لهم. وكثير منهم يعرفون شيئا من أدبها فى القرآن الكريم ، وفى جزائر فلبين تكرر سورة الفاتحة قبل طلوع الفجر ، ويسمع القرآن الكريم فى وادى هملايا ، وفى كثير من جهات العالم. وبعد الفجر يقرأ الإيرانيون شيئا من القرآن فى صلاتهم. وفى شبه جزيرة العرب يقرأ القرآن،

وينادى المؤذنون للصلاة . وفى بلاد الصين تكرر الأدعية والصلاة . وفى وادى النيل تنهض اللغة العربية ، وكثيرا ما تسمع الله أكبر ، الله أكبر . وفى الصحراء وبلاد البربر تسمع الأدعية والصلوات . وفى تونس والجزائر ومراكش يسمع القرآن والدعاء. وفى تركيا القديمة ، وأفغانستان ، وسومطرة ، وروسيا الجنوبية يعلَّم القرآن فى المدارس .

واللغة العربية منتشرة لا فى بلاد العرب فحسب ، بل فى مصر وبغداد ، وديار بكر، وسورية وفلسطين ، وفى شمال إفريقية ، حتى فى مستعمرة الكاب . وفى سنة ١٣١٥ م ابتدأت اللغة العربية تعلم فى الجامعات الأوروبية لغرض التبشير . واليوم نجد اللغة العربية وآدابها تدرس وتفحص بدقة فى « ليدن وكمبردج » ، ومعهد اللغات الشرقية بلندن وبرلين، كما تدرس فى مصر ودمشق وبغداد .

ومن الآثار الأدبية الخالدة فى الأدب العربى قبل الإسلام المعلقات العشر، وتسمى « المذهبات » ، ولا تزال بين أيدينا . ويسلم أدباء اللغة العربية بأن عصر المعلقات كان العصر الذهبى حقا للأدب العربى الجاهلى . وقد أنشد هذه المعلقات زهير بن أبى سلمى، وامرؤ القيس ، وطَرَفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلزة اليشكري ، والأعشى ، والنابغة الذُّبيانى ، وعُبيد بن الأبرص . وكانوا جميعا ـ ما عدا لبيدا ـ وثنيين من عباد الأوثان . وينسبون إلى ما يسميه الإسلام العصر الجاهلى . وقد كانت هذه القصائد نموذجا حسنا لمن أتى بعد ذلك العصر من الشعراء .

ويرى « البارون دى شِلين » أن المعلقات مشهورة بسلامتها فى اللفظ ، وعلوها فى اللغة ، وكمالها فى الأسلوب الشعرى .

أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية :

كان للقرآن الكريم أثر كبير فى الأدب العربى ؛ فمنه استمد وحيه ، وقد تجلى هذا الأثر فى عذوبة أسلوبه ، وقوة وقعه فى النفوس، وروعته فى القلوب، وجماله فى المعنى والموسيقا. ولم يستطع أحد من المترجمين أن يحاكى القرآن الكريم فى أسلوبه. وحاول كثير من المستشرقين محاكاته فى السجع فعجزوا. وقد يبدو هذا الأمر عجيبا من أولئك المحاكين أو طالبى المحاكاة ؛ فإن من كانوا يعدون أساطين هذه اللغة ، وفرسان البلاغة العربية من العرب أنفسهم قد عجزوا عجزا فاضحا فى كل محاولة أرادوها . فكيف بأولئك الأعاجم من مستعربى هذا العصر ؟

ولا يستطيع أحد من المبشرين أن ينكر جمال القرآن الكريم وروعته . يقول (بِنْرِيس[1]) فى مقدمته لكتابه (معجم القرآن): هناك كثير من الجمال الباهر، أفكار شعرية عالية، تكسى بلغة غنية ترتفع إلى درجة دونها أى ترجمة. وإن كثيرا من محاسن القرآن التى يعجب بها المستشرق لا يستطيع أن يفهمها المبتدئ من المستشرقين . وإن الإيجاز الجميل الذى يزيد كثيرا فى قوة التعبير والتأثير يُحير هؤلاء المترجمين .

وإننا لنفخر باللغة العربية كل الفخر ؛ فإنك تجد من العسير جدا على طلاب دراسة لغات الفرس والترك والهنود المسلمين ، ولغات البلاد الإسلامية الأخرى أو آدابها أو طرق التفكير فيها من غير إجادة اللغة العربية إجادة تامة . ولا يقدر العربية ويجلها إلا من يجيدها ، ويتعمق فى دراستها .

أثر اللغة العربية فى اللغات الأخرى :

وقد كان للغة العربية تأثير كبير فى اللغات والشعوب الأخرى بعد ظهور الإسلام؛ فقد اتخذت اللغة الفارسية الحروف الأبجدية العربية حروفاً لها ، واستعارت كثيرا من

(١) ارجع إلى : Dictionary of the Koran, by Penrice.

كلماتها وعباراتها وجملها . والأثر العربى واضح كل الوضوح فى اللغة الفارسية وآدابها. وقد لاحظ « رِينَان[١] » أن كل الكلمات عربية فى بعض الكتب الفارسية ، ولو أن القواعد غير عربية . وثلاثة أرباع الكلمات فى اللغة الهندوستانية مأخوذة من العربية . واللغة التركية مدينة فى كثير من كلماتها للعربية . وكانت تستعمل الحروف الأبجدية العربية قبل عهد المرحوم مصطفى كمال باشا . وقد تأثرت لغة شبه جزيرة الملايو باللغة العربية أيضا عندما فتحها المسلمون ، واتخذت حروفها الأبجدية . وكان تأثيرها ملموسا جدا فى إفريقية ، وقد انتشرت فوق كل النصف الشمالى لإفريقية ،

وقد سبق العربُ الرحالين « لِفنجستون[٢] »، وستانلى، وسبَيْك » فى رحلاتهم. وقد استعارت لغات السودان الجنوبى كثيراً من اللغة العربية ، ولم تنج أوروبة نفسها من تأثير تلك اللغة السامية الغالبة الظافرة الفاتحة . وفى اللغتين : الأسبانية والبرتغالية عدد كبير من الألفاظ والاصطلاحات العربية . وإن اللغتين : الفرنسية والإنجليزية مدينتان للغة العربية لدرجة كبيرة فى كثير من الكلمات العلمية التى دخلتهما وقت الحروب الصليبية وقبلها .

ولنذكر هنا مجموعة صغيرة من الكلمات التى أخذتها اللغة الإنجليزية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من اللغة العربية كما هو مذكور فى معجم الاشتقاق للعالم (سكِيت[٣]):

---

(١) المستشرق الفرنسى المتعصب .

(٢) David Livingstone : داود لفنجستون رحالة إنجليزى. كان — وهو غلام فقير — يعمل بمصنع القطن نهاراً، ويدرس فى مدرسة مسائية ليلا . عرف بكثرة حبه للقراءة فى أوقات فراغه ، ثم وجدت لديه الرغبة فى دراسة الطب، فدرسه حتى نال الدكتوراة، ثم سافر إلى إفريقية وخصص حياته بمحاربة الرق، ومحاربة بيع العبيد، والعمل على تحريرهم .

(٣) Skeat's Etymological Dictionary

العربى	الإنجليزى
محمدى	Mohammedan
مجلة ، مخزن	Magazine
هجرة	Hegira
خليفة	Caliph
مملوك	Mameluke
سلطان	Sultan
مسلم	Mussulman
أمير	Emir
أمراء	Emirs
وزير	Vizier
مسلم	Moslem
مفتى	Mufti
قرآن	Koran
الجبر	Algebra
الكيمياء	Alchemy
شيخ	Sheikh
حريم	Hareem
غزال	Gazelle
قهوة	Coffee
زعفران	Saffron

العربى	الإنجليزى
الكؤول	Alcohol
قاض ، حاكم	Hakim
درزى	Druze
شراب	Syrup
قطن	Cotton
بدوى	Bedouin
عربى	Arabesque
مسجد	Mosque
مر	Myrrh
مترجم	Dragoman
تعريف ، جدول	Tariff
خروب	Carob
أريكة	Sofas
سُماق (شجرة)	Summach
طرطير ، تترى	Tartar
صفر	Zero
تمر الهند	Tamarind
أمير البحر	Admiral
صفر	Cipher
يربوع (حيوان)	Jerboa
شراب	Sherbet
مجلس	Mejlis

وقد نقل معظم تلك الكلمات من العربية إلى الإنجليزية عن طريق لغات أخرى كالفرنسية والأسبانية . وهناك كلمات أخرى نقلت مباشرة من العربية إلى الإنجليزية ، ومع هذا قد مرت بعض الكلمات برحلة طويلة من اللغة العربية إلى الإغريقية ، ثم إلى اللاتينية ، ثم إلى الإيطالية ، ثم إلى الفرنسية ، ومن هذه نقلت إلى الإنجليزية . وربما تكون كلمة Magazine بمعنى مخزن ـ أحسن مثل لشرح الطريقة التى وجدت بها كلمة عربية الأصل مأوى فى تربة كل اللغات الأوروبية ، واستعملت فى معان كثيرة مأخوذة من معناها الأصلى ، فهى من الفعل العربى : خَزَنَ بمعنى : جمعَ .

أثر الأدب العربى فى الآداب الغربية

لقد ترك العرب ثروة لغوية وفنية ، وروحية وإنسانية ، فيما تركوه من الكتب العربية . وقد استفاد الغرب والأدب الغربى من الشرق والأدب العربى كثيراً فى القرون الوسطى . وكان للحضارة الشرقية والمدنية العربية أثر كبير فى النهضة الأدبية فى عصر النهضة الأوروبية .

قال الأستاذ (مَاكِيل[١]) : « كما أن أوروبة مدينة بدياناتها لليهود فكذلك هى مدينة بقصصها للعرب » . وقال (وَارْتُون) فى كتابه « تاريخ الشعر الإنجليزى[٢] » حوالى سنة ١٧٧٠ م. : - « إن الحركة (الرومانتيكية) فى العصور الوسطى هى بلا ريب نتاج عربى خالص » .

ولولا ألف ليلة وليلة ما كان هناك (رو بنسون كروزو) . وقد عرف الغرب كثيراً عن الشرق وأبهته وعظمته من ألف ليلة وليلة ، المملوءة بالألوان الفنية ، والمغامرات القوية ، والخيال البديع ، والغرض النبيل .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن القصص الشرقية من عربية وفارسية وهندية كان لها أكبر الأثر فى القصص الغربية . وقد قال (فكتور هوجو) فى مقدمة قصائده الشرقيات : « كان العالم كله فى عصر لويس الرابع عشر مقبلا على الدراسات الإغريقية ، أما الآن فقد أقبل على الدراسات الشرقية[٣] » ؛ لما فيها من فن وجمال وخيال ، وآراء وأفكار .

---

(١) Prof. Mackail

(٢) ارجع إلى كتاب : History of English Poetry, by Warton

(٣) ارجع إلى كتاب : « تراث الإسلام » ج ١ ، ص ١٧٤ من مطبوعات لجنة النشر للجامعيين .

مقامات الهمذانى والحريرى

ومما يشهد للعربية بالقدرة فى التعبير والجمال فى الوصف تلك المقامات التى هى نوع من أنواع النثر الأدبى . ويقال إن الفضل فى ابتكار هذه القصة القصيرة يرجع الى ابن دريد . وقد نسج على غراره بديع الزمان الهمذانى ، ثم الحريرى ، وقد أولع المستشرقون بمقامات الهمذانى والحريرى ولعاً شديداً . والمقامة - كما قلنا - نوع من القصص الأدبى ، تعتمد على الخيال فيما تؤلف من حوادث ، وترمى الى تعليم اللغة ، ووصف الأشياء ، ونقد الأدب ، وتعنى بالعبارات البديعية . ولنذكر كلمة موجزة عن مقامات كل منهما فنقول :

بديع الزمان الهمذانى

(٣٥٨ - ٣٩٨ هـ)

ترجمته :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الملقّب ببديع الزمان الهمذانى ، وقد كان قدوة للحريرى فى إنشاء المقامات ، وقرناً للخوارزمى فى المبادهات والمناظرات .

نسبه ونشأته :

ولد بديع الزمان (بهمذان) وهى مدينة (شمالى فارس) ، ونشأ بها ، وقد كانت هذه النشأة سبباً فى توهم بعض المؤرخين أنه فارسى الأصل . وليس ذلك من الحق

فى شىء . والصحيح أنه فارسى النشأة والمولد ، عربى الأصل والمحتد ؛ فهو يقول فى رسالة له كتبها للشيخ أبى العباس الفضل بن أحمد الأسفرائينى : « إنى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » . ومن هذا يتضح أنه — وإن نشأ فى همذان وتربى فيها — تغلبى مضرى . وتغلب ومضر من القبائل العربية ؛ فهو عربى صميم .

وقد تعلم العلم والأدب وبرع فيهما ، وحذق اللغتين : العربية والفارسية . ولم يدع عالما ولا أديبا إلا اقتبس منه ، وأخذ عنه ، حتى استنفد ما عنده . وقد درس على أبى الحسين بن فارس ، فتلقى عنه كل ما لديه من علم ، ثم ارتحل إلى الصاحب ابن عباد ، فكان له من معارفه وعوارفه أوفر نصيب ، ورحل إلى جرجان ، فأقام فى أكناف الإسماعيلية ، واتصل بأبى سعيد محمد بن منصور ، فقربه إليه ، وجعله من خاصته ، وأفاض عليه من خيراته ، ثم يمم نيسابور فى سنة ٣٨٢ هـ . فتجلت فيها عبقريته ، وعلا شأنه ، وذاعت شهرته ، وأنشأ بها أربعمائة مقامة[1] ، رشيقة اللفظ ، رقيقة السجع ، كانت مثالا احتذاه الحريرى فى إنشاء مقاماته المشهورة . وقد اعترف الحريرى بذلك فى مقدمتها فقال : « وقد أشار مَن إشارته حكم ، وطاعته غنم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع » .

مساجلته للخوارزمى :

ثم تصدى البديع لمناظرة الخوارزمى ، وكان هذا أكبر سنا ، وأنبه ذكرا ، وأعلى عند الرؤساء قدرا ، ولكن البديع أعانته فورة شبابه ، وحدة لسانه ، وحاجته

(١) أطلقت المقامة على كل قصة خيالية مسجوعة العبارة ، محلاة بأنواع البديع ، مشتملة على كثير من الغريب .

الملحة إلى الظهور والشهرة . فظهر على الخوارزمى وأفحمه . ولم يكن يدور فى خلد أحد أن يجرؤ إنسان على التصدى للخوارزمى ، وهو من هو فى سعة العلم ، ورسوخ القدم فى فنون الأدب ، فكانت جرأة البديع على مناظرته أولًا ، وانتصاره عليه ثانيًا — سببا فى ذيوع شهرته فى الآفاق ، وارتفاع قدره عند الملوك والرؤساء . ثم توفى الخوارزمى ، فخلا الجو للبديع ، وصفا له الدهر ، وحالفه الحظ ، وتنقل فى الحواضر ينتجع الأمراء ، ويتكسب بأدبه ، إلى أن ألقى عصا التسيار بهراة[1] ، وأتم الله عليه نعمته ، فوفقه إلى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى أحد وجهائها ، واقتنى بها ضياعا واسعة ، وعاش رخى البال ، قرير العين ، إلى أن وافته منيته فى سنة ٣٩٨ هـ .

وقد اختلف الرواة فى موته ؛ فقال بعضهم إنه مات مسموما ، وقال آخرون بل مات بالسكتة القلبية . وقد عجل بدفنه قبل أن تتحقق وفاته ، فأفاق فى رمسه ، وسمع صياحه بالليل ، فنبش عليه القبر ، فوجد ميتا وقد قبض على لحيته من الفزع .

أخلاقه ومواهبه :

كان البديع ظريفا خفيف الروح ، جميل الصورة ، ذكى القريحة ، شريف الطبع ، حسن العشرة ، طاهر النفس ، خالص الود ، صداقته حلوة ، وعداوته مرة . وكان نسيج وحده ، وأعجوبة دهره فى سرعة الخاطر ، وقوة الحافظة ، وصفاء الذهن ، وتوقد الذكاء ، وحضور البديهة .

قيل إنه كان يسمع القصيدة تلقى لأول مرة ، أو ينظر فى أوراق من كتاب لم يره من قبل ، فيحفظها عن ظهر قلب ، ثم يعيدها لا يترك منها حرفا واحدا ، من غير

---

(١) مدينة كبيرة بأفغانستان .

تردد أو تلعثم . وكانت تلقى عليه القصيدة بالفارسية فيترجمها فى الحال إلى العربية ، ويأتى بها أحسن ما تكون انسجام لفظ ، ودقة معنى . وقد تقترح عليه الرسالة فى أى باب مهما يكن غريبا أو عسيرا ، فيأتى بها عفو الساعة دون تعمل ، ولا كد ذهن. وقد يبدأ بآخر سطر فيها ثم يسير فيها عكسا إلى أن ينتهى بأولها ، فى ألفاظ وعبارات متسقة ، ومعان دقيقة متفقة ، مع الإسراع والإبداع . ولعظم نبوغه ، وسرعة بديهته ، كان أكثر كتابته وشعره مرتجلا . وكانت عباراته لينة سهلة ، قصيرة السجع ، تشهد بأنه لم يتكلف فى صناعتها ، ولم يكدح خاطره .

ولا عجب؛ فقد كان أعجوبة عصره ، وصاحب العجائب والغرائب كما قال الثعالبى فى يتيمة الدهر[1] .

نثره :

نثر البديع سهل رشيق ، لا تعمل فيه ولا تكلف ، ولم يشبه تعقيد ولا تعمق . وهو لهذا يملك الشعور ، ويأخذ بمجامع القلوب . وأكثره من قبيل الشعر المنثور ، ويجمع بين متانة اللفظ ، ورشاقة المعنى ، ودقة الخيال ، وجمال الأسلوب . وهو مملوء بالسجع القصير الفواصل ، والمحسنات البديعية .

شعره :

وله شعر قليل لم يبلغ مبلغ نثره من الجودة والإبداع ؛ لأن إجادة النظم والنثر معاً قلما تتفق لأديب . فشعره يبدو عليه التكلف ، وهو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر . فالبديع لا يعد من الشعراء الذين يصل شعرهم إلى القلوب . وليس فى نظمه

(١) صفحة ١٦٧ ، ج ٤ .

روح الشعر ، ولغة العاطفة والوجدان . وكثيراً ما تجد فى أبياته الركة ونبو الألفاظ وقلقها ، كقوله فى مدح رجل أعطاه رداءه[١] :

أعد نظراً يامَن حبانى ثيابه ولا تدع الأيام تهدمني هدّا

فكلمة هدّا فى هذا البيت أتى بها محافظة على روىّ الشعر ، وهى قلقة فى مكانها ، تمجها الأذن ، وينبو عنها الذوق السليم . ولولا الضرورة لقال تهدمنى هدما .

مقامات البديع :

للبديع أربعمائة مقامة ، نحلها أبا الفتح الإسكندرى على لسان عيسى بن هشام وقد جعلها تدور على الكدية[٢] وفنون الحيلة ، وضمنها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ؛ من لفظ رشيق ، سهل المأخذ ، جيد المعنى ، وسجع جميل كسجع الحمام ، وقد ذهب أكثر هذه المقامات ، ولم يصل إلينا منها غير بضع وخمسين مقامة .

موازنة بين مقامات البديع ومقامات الحريرى :

كانت مقامات البديع هى المثال الذى احتذاه الحريرى فى إنشاء مقاماته ، ولكن مقامات البديع قصيرة فى الغالب . وعلى الرغم من سبقها لم تشتهر اشتهار مقامات الحريرى ، ولم تنل مثل منزلتها فى تقدير الأدب والأدباء ، وإن كانت تفضلها فى عدم التكلف . أما الأفكار فى مقامات البديع فضيقة محدودة ، ليس فيها

---

(١) ارجع إلى المقامة الجاحظية من مقامات بديع الزمان .

(٢) الكُدْية : شدة الدهر ، وما جُمِع من طعام أو شراب : يقال : أكدَى : بَخِل ، أو قلّ خيرُه ، أو قلل عطاءه .

أثر كبير لخيال الروائيين الذى يظهر واضحاً فى مقامات الحريرى ؛ فقد كانت عناية البديع باللفظ فوق عنايته بالمعنى . ولكنها على كل حال لا تخلو من فكاهة أو عبرة. ويستطيع الطالب أن يقرأها ويدرك مراميها بسهولة ، ولا يجد فيها من الغريب ما يجد فى مقامات الحريرى ، التى قصد بها إلى تعليم اللغة ، وجمع شواردها ، وإحياء غريبها . ولذلك كثر فيها التعمق اللغوى ، واحتاجت إلى كثير من الشرح والإيضاح .

وإن مقامات البديع والحريرى والزمخشرى لخير رد على من يزعمون خلو الأدب العربى من القصص ؛ فما هى إلا حكايات خيالية قصيرة ، كتبت بأسلوب سجعى كالشعر المنثور ، وملئت بالألفاظ اللغوية ، والمحسنات البديعية ؛ من جناس ، وطباق ، وتورية وغيرها ؛ لتحقيق الأغراض التعليمية التى قصدت منها .

مقامات الحريرى

يرى بعض المستشرقين أن مقامات الحريرى تستحق أن تكتب بالذهب . ويرى آخرون : أنها أعظم ثروة أدبية للعرب ، ولا يجسر أحد من المستشرقين أن يتجاهل هذا الكتاب الثمين ؛ فالقارئ للمقامات يدرس كل فرع من العلوم الإسلامية من الشريعة والقانون والشعر والتاريخ والآثار القديمة . وقد ترجمها إلى الفرنسية دِى ساس[١] (باريس سنة ١٨٢٢ م) ، وترجمها إلى الإنجليزية « برِستون[٢] ثم كِنَرى[٣] » وكتب الأخير عنها مقدمة للجزء الأول من الترجمة تبلغ مائة صفحة سنة ١٨٦٧ م ، وترجمها إلى الألمانية بتصرف «فون كِرِيمَر[٤]»، وترجمها إلى الفارسية

---

(١) de Sace. (٢) Preston (٣) Chenery (٤) Von Kremer

حميد الدين البلخى، ويصفه (ستانلي لين بُول) بأنه «شكسبير العالم العربى». وقد قال بعد اطلاعه على الترجمة : « لا شك أن من الصعب على معظم الغربيين أن يقدروا جمال هذا الكتاب الثمين ». والمادة التى تستحق الدراسة من مقامات الحريرى غزيرة ووافرة جدا .

وقد ولد الحريرى بالبصرة سنة ١٠٥٤ م، وتوفى سنة ١١٢١ م بها ، وكان قبيح المنظر ، يقتلع شعر ذقنه حينما يشغل بالتفكير . وقد تمتع بصداقة الوزير أنو شروان[١] بن خالد صاحب المواهب الكبيرة . وقد قرّب الحريرى ، ودافع عنه ، وحمله على كتابة المقامات ، فكتبها وأهداها إليه . وكان من أحسن الوزراء علما وأدبا ، معروفا بالكرم والنبل ، صديقا للعلماء والأدباء ، وقد لمح إليه الحريرى فى ابتداء مقاماته حيث يقول: « وبعد ؛ فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب ، الذى ركَدت فى هذا العصر ريحه[٢]، وخبَت[٣] مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان[٤] ، وعلّامة همذان، رحمه الله تعالى . . . فأشار علىّ من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، أن أنشئ مقامات أتلو[٥] فيها تلو البديع » .

كتب خمسين مقامة ، لا ارتباط بينها إلا ظهور أبى زيد البوهيمى أو أبى زيد السروجى من وقت لآخر ، وهو بطل هذه الأقاصيص . قيل إن أبا زيد هذا وردَ البصرة ، واجتمع بالحريرى فى مسجد بنى حرام . وكان هذا الرجل أفاقا فصيح اللسان، صاحب حيلة وأدب ، ذكيا لا ضمير له ، يجمع الصدقات من مدن مختلفة ، وجماعات

---

(١) أنو شروان بن خالد بن محمد القاشانى (ولد سنة ٤٥٩ هـ — ١٠٦٦ م. وتوفى سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م). كان وزيراً للسلطان محمود بن محمد بن مالكشاه ، وذهب معه إلى بغداد ، وعاش فى منزل على شاطئ نهر دجلة . وله رسالة عن السلاجقة طبعت فى ليدن سنة ١٨٨٩ م .

(٢) ريحه : دولته (٣) خبت : خمدت (٤) الحق أن مبتدع المقامات هو أبو بكر بن دريد

(٥) أتلو : أتبع .

متعددة، بعد أن يعظ الناس ويحدثهم عن التقوى والفضيلة ، ثم يذهب بغنائمه ليمتع نفسه سرًا بالانهماك فى المحرم من اللذات .

وجمال هـذه المقامات فى ألفاظها ، وإيجازها ، أما الأفـكار فليست بكثيرة . والحريرى يكثر من اسـتخدام السجع ويسرف فى ذلك ، حتى فاق فيه أستاذه بديع الزمان الهمذانى . والغربيون لا يعجبون بالسجع ، بل يملونه ، ولـكنه كان محبوبا لدى أدباء عصر الحريرى .

وقد كان السجع قديما الأسلوب الطبيعى للخطابة البليغة المؤثرة ، وقد أولع به بعض المؤرخين ؛ فنرى ابن الأثير حينما يذكر نصراعظيما ، أو عملا عجيبا ، يترجم عنه بلغة السجع . وفى المقامات نجد كثيرا من الأشياء التى تصلح لأذواق مختلفة ، نجد علم البلاغة والوعظ الإسلامى ، والشعر السهل ، والقصائد المتقنة ، نجد كل شىء يستطيع الـكاتب المـاهر أن يصوغـه فى لغة مرنة كاللغة العربية . وإن ما يقوله المستشرقون فى نقـد مقامات الحريرى ، يمـكن أن يقال فى كثير من جمهرة الشعر العربى ؛ لفقد الارتباط بين الأفـكار ، وعدم التعفف فى التعبير ، والمبالغة الممقوتة ، فـكل عين جميلة زهرة ، والدموع لآلئ ، والأسنان كذلك ، والشفة ياقوتة ، واللثة زهرة رمان ، والعيون الناظرات سيوف ، والأجفان أغمدة ، والخال نحلة تزحف لتمتص الشهد من الشفتين ، والوجه الجميـل بدر ، والقوام المعتدل كالأَلِف ، والشعر الأسود ليل ، والحب هوى دائم . وتـكثر الإشارات والتلميحات . ويرى (بارون دى سلين) أن المتنبى وابن الفارض مستثنيان من هذا الحـكم ؛ فإنهما أظهرا مقدرة كبيرة فيما أبدعاه من الشعر والأفـكار ، والتأملات الخفية ، والجمال المعنوى ، غير أن من الإنصاف أن نقول الحق فى منزلة مقامات الحريرى الأدبية ، فهى تمتاز بإشراق

الأسلوب، ونصاعة العبارة . والمتأمل يرى أن سجع الحريرى لا كلفة فيه ، على أن القارئ إذا مل هذا النوع من جرس الألفاظ ، وتشقيق الجناس ، فإنه واجد ما يُعوضه عن الملل بالفوائد التى يصيبها - وهى لا ريب كثيرة - فمن ملح أدبية ، إلى أنواع بديعية، ونكات تاريخية ، وحيل شرعية، وكنًى صوفية، وأحاجى نحوية. وقد أشاد العلامة « إرنست رينان » بما فيها من حياة و إبداع ، وأن المؤلف دل على براعة فى كتابتها ، ومعرفته بدقائق المسائل اللغوية .

اللهجات العربية الصغيرة

للغة العربيـة لهجات مختلفة متنوعة ، شأن كل لغة أخرى كثيرة الانتشار فى الأقطار والبلدان . وقد أخطأ علماء اللغة فى نسبة اختلاف لهجات اللغة العربية إلى تأثير اللغات الأجنبيـة التى اتصلت بها . وإننا لا ننكر أنه كان للغات الأجنبية بعض التأثير فى اختلاف اللهجات لا كله . ولو كان لها كل التأثير لاستطاع سكان بلاد العرب الداخليـة أن يتكلموا اللغة العربية كما كان يتكلمها العرب فى تلك الجهات نفسها منذ ألف سنة . ولـكن الواقع أن لهجتهم تغيرت ، وأنهم لا يتكلمون كما كان يتكلم آباؤهم القدماء. وكل مسلم يتمسك بالإسلام يكرر سوراً قصيرة من القرآن الـكريم عدة مرات فى صلواته الخمس كل يوم . ومعظم المسلمين من العرب يفهمون قليلا أو كثيراً مما يقرءونه أو يسمعونه من القرآن الـكريم. فلا عجب إذا قلنا إنه قد كان للقرآن الـكريم أثر كبير فى اللغة العربية ، تلك اللغة الواسعة الانتشار ، أثر لم يؤثره أى كتاب آخر فى العالم، فى أى لغة من اللغات ، وفى أى عصر من العصور .

و بالرغم من أن القرآن الـكريم قد حفظ اللغة العربية ، وأن فريقا من الولاة دفعهم حب تأييد ملـكهم أو ميلهم إلى اللغة العربيـة إلى تقريب العلماء والشعراء والأدباء - ومن هؤلاء آل حمدان ، و بنو بويه - فإن اللهجات قد انتشرت وتشعبت، واختلفت كل منها عن الأخرى اختلافا كبيرا ، مع أنها قد كانت لغة الدين والعلم والحـكومة .

وقد نجح المستشرقون أخيرا فى معرفة هذه اللهجات ، وألّفوا كثيرا من الكتب عنها وعن قواعدها ، وصاروا يعرفون اللغة العامية المصرية ، والعامية فى تونس والجزائر ومراكش وطرابلس ، وتسمى لهجات بلاد المغرب . وتدخل فيها لهجة كانت لغة محادثة فى يوم ما فى جزيرة صقلية ، ولا يعرف عنها الآن إلا قليل . وتتصل بلهجات بلاد المغرب أيضا لهجة مالطة ؛ تلك اللهجة التى تلذ العالم اللغوى ؛ لأنها قد انقطعت عن اللغة العربية العلمية منذ أكثر من تسعمائة سنة ، وصارت متأثرة باللغة الإيطالية ، ومع هذا لا تزال تحفظ كثيرا من الميزات الخاصة بلهجات الشاطئ الإفريقى القريب منها . وقد كون أهل مالطة لهم لغة كتابة حديثة تختلف عن اللغة العربية القديمة ، وطبع بها كثير من الكتب بحروف لاتينية .

وقد درس علماء اللغة أيضا لهجة بلاد الأندلس ، وانتفعوا بكثير من الآثار الأدبية الأندلسية ، كما انتفعوا بكتاب الأجرومية ومعجم (بِدْرُودِى أَلكالا) الذى ألّفه سنة ١٥٠٥ م .

وقد عرف عن لهجات سورية و بلاد العرب الجنوبية والداخلية والأقطار الشرقية الأخرى أكثر مما كان معروفا من قبل . ولا يزال لدى العلماء واللغويين مجال عظيم للبحث ، حتى يمكن ترتيب تلك اللهجات ووضعها فى أقسام معينة .

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن اللهجة العامية للبدو تختلف بعض الاختلاف عن لهجة غيرهم من أهل الحضر . ولا شك أن اختلاف اللهجات ليس بمستحدث ، بل كان معروفا فى العصر الجاهلى . ولا تزال اللهجات العربية فى الأقطار المختلفة تشبه كل منها الأخرى ، مع بعد كل قطر عن الآخر ، واتساع الشقة بين البلاد التى تتكلم العربية ، وكثرة العوائق الطبعية التى تحول بين بعضها وبعضها الآخر ، لكن يجب ألا نظن أن

من السهل أن يفهم أهلُ الموصل أهلَ مراكش ، أو يفهم هؤلاء وأولئك سكان سيناء وبلاد العرب . وهناك فرق كبير بين اللهجات العربية الحالية واللغة العربية القديمة . وليس هناك لهجة عربية حية تشبه اللغة العربية القديمة كل الشبه .

وقد كان لتلك اللهجات العربية الصغيرة أثر فى اللغة الأدبية القديمة ، لغة الشعر والأدب . وكما تأثر بها الشعر تأثرت بها الأغانى فى الجهات المختلفة . وإذا استثنينا شعر أهل مالطة وجدنا أن الشعر العربى متأثر وخاضع لتأثير اللغة العربية القديمة .

وبالأغانى الشعبية والمواليا (المواويل) وقصص العجائز ـ يمكننا أن نرى بالضبط نوع اللهجة العامية وصورتها . وكثيرا ما تتفق مع قواعد العربية القديمة . ومن الصعب الحصول على كتب ثمينة قديمة باللغة العامية .

وفى السنوات الأخيرة حاول المصلحون رفع شأن اللهجة العامية المصرية وإصلاحها حتى تصلح للكتابة العلمية والأدبية . ونرجو أن تتوج هذه المحاولة بالنجاح . ومن الممكن إصلاحها إذا عممنا التعليم ، وصار الشعب مثقفا ، واعتاد الأطفال التحادث باللغة العربية السهلة منذ الطفولة ، فى البيت والمدرسة ، وفى الشارع والأماكن العامة . على أن إصلاح العامية قد يكون ممكنا إذا علمنا أن العامية ما هى إلا عربية محرفة ، دخلتها طائفة كبيرة من الألفاظ الأعجمية . وليس من الممكن أن يرفعها الإصلاح المنشود إلى لغة الأدب الرفيع ، ولكن الذى نرجوه أن تقترب هذه اللغة بقدر الإمكان من لغة الأدب والشعر ، حتى لا يصدم المتعلمون بلغتين تناهض كل واحدة منهما الأخرى .

الفصل العاشر

الخط العربى وتاريخه

ولنذكر هنا ما ذكره العالم البحاثة ، الخالد الذكر جورجى زيدان عن الخط العربى مع بعض التصرف فنقول[1] : بلغت الكتابة مبلغاً كبيراً من الإتقان والجودة فى دولة التبابعة حين رَقِيَت فى الحضارة والشرف ، حتى صارت الكتابة تنسب إليهم ، كما قال الشاعر :

عرفنا الديار كرقم الدَّوا ةِ يذْبُرُها[2] الكاتبُ الحميرى

ثم انتقلت إلى الحيرة وبها المناذرة نسباء التبابعة الذين جددوا ملك العرب بالعراق على يد مرامر بن مرّة ، وعامر بن جَدرة ، وأسلم بن سِدرة ، عن كاتب وحى هود عليه السلام، ثم جزموا[3] منها خط الجزم الذى سمى فيما بعد بالكوفى . ولقرب عهد المناذرة بالبداوة لم يبلغ الخط عندهم حد الإجادة كما كان عند التبابعة[4] ،فتعلمته مضر من حمير .

وقيل إن أول من خط بالعربى إسماعيل عليه السلام ، ثم إن قريشاً وأهل الطائف تعلموا الكتابة من الحيرة عن أهل الأنبار كما قال السيوطى[5] . وذكر ابن خلدون ما يؤيد هذا .

---

(١) ارجع إلى كتاب تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان (٢) يخطها (٣) اقتطعوا

(٤) التبابعة : ملوك اليمن ، والمفرد تُبَّع كسُكَّر . وقد ولد النبى صلى الله عليه وسلم بدار التبابعة بمكة .

(٥) ارجع إلى المزهر للسيوطى

فليس فى آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة إلا قبيل الإسلام ؛ لغلبة البداوة عليهم ، ولأن الكتابة من الصناعات الحضرية ، مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلّفوا نقوشاً كتابية كثيرة ، وأشهر تلك الأمم حمير فى اليمن كتبوا بالحرف المسند ، والأنباط فى الشمال كتبوا بالحرف النبطى ، تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن فى ضواحى البَلْقاء وحُوران .

على أن الذين رحلوا منهم إلى العراق والشام قبيل الإسلام للتجارة ونحوها تخلّقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم ، فرجعوا و بعضهم يكتب بالحرف النبطى أو السريانى أو العبرانى . والأولان ظلا عندهم إلى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتفرع عن الأول الخط النسخى (الدارج) ، وعن الثانى الكوفى نسبة إلى الكوفة ، وكان يسمى قبل الإسلام الحيرى نسبة إلى الحيرة التى بنى المسلمون الكوفة بجوارها ، وهى مدينة عرب العراق قبل الإسلام .

فكان السريان فى العراق يكتبون ببضعة أقلام من الخط السريانى ، ومنه خط يسمونه « الإسترنجيلى » كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس[1] . وقد اقتبسه العرب فى القرن الأول قبل الإسلام ، وكان من أسباب النهضة عندهم ، وعنه تفرع الخط الكوفى ، وهما متشابهان إلى الآن .

والأشهر أن أهل الأنبار هم الذين نقلوه إلى بلاد العرب ؛ فإن رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندى أخو أكيدر صاحب دومة الجندل تعلم هذا الخط من الأنبار ، وخرج إلى مكة ، فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان والد معاوية ، فتعلمه جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بمكة من قريش[2]

---

(١) ارجع إلى اللمعة الشهية (٢) ارجع إلى المزهر ص ١٧٧ ج ٢

عند ظهور الإسلام . من أجل ذلك وهم بعضهم أن أول من نقل الخط إلى العرب سفيان بن أمية .

والخلاصة أن العرب تعلموا الخط النبطى من حوران فى أثناء تجاراتهم إلى الشام، وتعلموا الخط الكوفى من العراق قبل الهجرة بقليل . وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معا : الكوفى لكتابة القرآن الكريم ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه الإسترنجيلى يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية . والنبطى لكتابة الرسائل والمكاتبات العادية .

ومما يدل على تفرع الكوفى عن الإسترنجيلى فى شكله وغيره أن الألف إذا جاءت حرف مد وسط الكلمة تحذف ، وهذه عادة معروفة فى الكتابة السريانية. وكان ذلك شائعا فى صدر الإسلام ، وخاصة فى القرآن الكريم ، فيكتبون « الكتٰب » بدل الكتاب ، و « الظٰلمين » بدل الظالمين .

جاء الإسلام والكتابة غير شائعة ، فلم يكن يعرفها إلا بضعة عشر رجلا أكثرهم من كبار الصحابة ، وهم : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبد الله، وعثمان و إبان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وحاطِب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبو سلمة بن عبدالأشهل ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، وولده معاوية، وجهيم بن الصلت .

و بتشجيع الإسلام تعلم كثير من الصحابة وغيرهم ، ومنهم خرج كتّاب الدواوين للخلفاء الراشدين ، وكتاب الرسائل ، وكتاب القرآن الذى كتب بالكوفى أيام

الخلفاء الراشدين و بنى أمية ، وتفرع الخط المذكور فى هذا العهد إلى أربعة خطوط ، اشتقها قطبة خطاط أهل زمانه ، وكاتب المصاحف لبنى أمية ، ثم اشتهر بعده الضحاك ابن عجلان فى أوائل الدولة العباسية ، فزاد على قطبة . وأربى عليهما إسحق بن حماد وغيره ، فبلغ عدد الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية اثنى عشر قلما وهى :

١ — قلم الجليل . ٢ — قلم السجلات .

٣ — قلم الديباج . ٤ — قلم أسطورمار الكبير .

٥ — قلم الثلاثين . ٦ — قلم الزنبور .

٧ — قلم المفتح . ٨ — قلم الحرم .

٩ — قلم المدامرات ١٠ — قلم العهود .

١١ — قلم القصص . ١٢ — قلم الحرفاج .

وفى أيام المأمون تنافس الكتاب فى تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسى نسبة إلى مخترعه ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلية[1] ، فزادت الخطوط على عشرين شكلا ، وكلها تعد من الكوفى . وأما الخط النسخى أو النبطى فقد كان شائعا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى إذا جاء ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — وهو وزير المقتدر الخليفة العباسى — أدخل فيه تحسينا جعله على نحو ما هو عليه الآن ، وأدخله فى كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل صورة القلم الكوفى إلى صورة القلم النسخى . والغالب فى اعتقادنا أن الخطين كانا شائعين معا فى صدر الإسلام : الكوفى للمصاحف

---

(١) ارجع إلى كشف الظنون ص ٤٦٦ ج ١ .

ونحوها، والنسخى للرسائل ونحوها، وأن ابن مقلة جعل الخط النسخى على قاعدة جميلة؛ حتى يصلح لكتابة المصاحف .

وقد شاهدنا فى معرض الخطوط العربية القديمة فى دار الكتب الملكية عقد نكاح مكتوبا فى أواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ . على ورق مستطيل، فى أعلاه صورة العقد بالقلم الكوفى المنتظم ، وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخى بغاية الاختلال . فابن مقلة حسن هذا الخط تحسينا كبيرا ، وأدخله فى كتابة المصاحف.

ثم تفرع الخط النسخى المذكور بتوالى الأيام إلى فروع كثيرة ، وصارت الأقلام الرئيسة فى اللغة العربية الكوفى والنسخى ، ولكل منهما عدة فروع ، بقى منها بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام ، وهى : الثلث ، والنسخى ، والتعليق ، والريحانى، والمحقق ، والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة ألفوا فيه الكتب والرسائل، بعضها فى أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها ، وأحوال الشق والقط ، والدواة والمداد، والكاغد ، وغير ذلك[1] . وما زال الخط يتفرع إلى اليوم ، ولا يزال إلى ما شاء الله عملا بسنة الارتقاء .

وكان القرآن الكريم فى صدر الإسلام محفوظا فى صدور القراء، لا خوف عليه من الخطأ والاختلاف فى قراءته ؛ لكثرة عنايتهم بحفظه ، وحسن أدائه ، حتى دونوه، وكثر المسلمون ، فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقرءون القرآن بلا حركات ولا إعجام .

وأول ما احتاجوا إليه الحركات ، وأول من رسمها أبو الأسود[2] الدؤلى واضع النحو العربى المتوفى سنة ٦٩ هـ ؛ فإنه وضع نقطا تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها

---

(١) ارجع إلى كشف الظنون ص ٤٦٧ ج ١

(٢) ويقال إن أبا الأسود وضع النحو بإشارة على بن أبى طالب . وكان هذا الإمام متصلا ببعض علماء اليهود فى الكوفة ، الذين كانوا على علم بنحو اللغة السريانية . وهنا تعرض لنا شبهة تأثر النحو العربى بالنحو السريانى .

الحركات ؛ لتمييز الاسم من الفعل والحرف ، ولتمييز الباء من التاء ، أو الجيم من الحاء . ولذلك توهم بعضهم أنه وضع نقط الإعجام .

والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أوالسريان جيرانه فى العراق ؛ إذ كان عندهم نقط توضع فوق الحرف أو تحته ، لتبين نطقه ، أو تعين الكلمة التى هو فيها ؛ اسم هى أوفعل أوحرف ، مثل « كتب » ، فيمكن أن تكون اسما جمع كتاب ، أو فعلا ماضيا معلوما أو مجهولا . وكان عندهم أيضا نقط هى حركات وضعها يعقوب الرهاوى قبيل ذلك الزمن كانت ترسم مع الحروف ، ثم تحولت إلى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث . وما زالت عندهم إلى اليوم . والظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد النقط ، أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : « إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلى ، وإذا ضممت فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف » .

فكان العرب يستعملون هذه النقط ، والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط. وقد شاهدنا فى دار الكتب الملكية مصحفا كوفيا منقطا على هذه الطريقة وجد بجامع عمرو بجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ، كُتِب على رقوق صغيرة بمداد أسود، وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة، وتحته كسرة، و بين يدى الحرف ضمة ، كما وصفها أبو الأسود .

الإعجـــام

لما انتشر الإسـلام واتسعت رقعته ، وتسابق كثير من الأعاجم إليه ، واشتد اختلاطهم بأهله ، فشا اللحن والتصحيف ، والتبس الأمر على الناس ، وصعب عليهم تمييز الأحرف المتشابهة ، كالجيم والحاء ، والسين والشين . ولم تفتهم كثيرا العلامات التى وضعها أبو الأسود ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق فى أيام عبدالملك بن مروان. قال ابن خلكان: « ففزع الحجاج إلى كتابه، وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض . فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها ، فمكث الناس زمنا لا يكتبون إلا منقوطا ، فكان التصحيف يقع مع استعمال النقط ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[1] .

وفى عبارة ابن خلكان هذه غموض لا يفهم المراد منها ، ولا الفرق بين النقط والإعجام ، وهما واحد . ولا يعقل أن يكون المراد بالنقط الحركات ؛ لأنهم إنما عمدوا إليها لكثرة التصحيف ؛ أى اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر أن النقط المذكورة من قبيل الإعجام ؛ لتمييز الحروف المتشابهة . ولكن نصرا هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ، ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا أن القراءة لا تضبط إلا بتنقيط كل الحروف كما هى الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالإعجام .

(١) ارجع إلى كشف الظنون ص ٤٦٧ ج ١

وقد شاهدنا فى معرض الخطوط فى دار الكتب الملكية كتابة على صفحة من ورق البردى مؤرخة سنة ٩١ هـ ، وفيها الإعجام ، ولكنه مقصور على الصور المشابهة للباء ؛ للتمييز بين الباء والتاء والياء ، وصورة حرف الشين لتميزه من السين بثلاث نقط على استواء واحد . وشاهدنا أجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ، ونقط سوداء للإعجام . وقد نجد خطوطا قديمة منقطة ومحركة ، وخطوطا حديثة بلا نقط ولا تحريك .

فيؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات والإعجام من أواسط القرن الأول ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونها إلا حيث يريدون الدقة كالمصاحف ونحوها . وفيما عدا ذلك يفضلون ترك النقط ، لا سيما إذا كان المكتوب إليه عالما .

وقد حكى أن عرض على عبد الله بن طاهر خط بعض الكتاب ، فقال: « ما أحسنه لولا كثرة نقطه » . ويقال : « كثرة التنقيط فى الكتابة سوء ظن بالمكتوب إليه » . وقد يقع بالتنقيط ضرر ، كما حكى عن جعفر المتوكل أنه كتب إلى بعض عماله أن أحص من قبلك من الذميين ، وعرفنا بمبلغ عددهم » . فوقع على الحاء نقطة ، فجمع العامل من كان فى عمله منهم ، وخصاهم فماتوا إلا رجلين .

ولذلك ظل الكتاب مخيرين بين الإعجام والإهمال ، وربما فضلوا الأخير . وقد حدث بسبب ذلك لبس فى كثير من الأحوال ، وبخاصة أسماء الأماكن الغريبة ، أو الألفاظ الغريبة ، وكان الأدباء يستحسنون الإعجام فى كتب العلوم ، ويستهجنونه فى المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات ؛ لأنهم لفرط إدلالهم فى الصنعة ، وتقدمهم فى الكتابة - يكتفون بالإشارة ، ويقتصرون على التلويح ، ويرون الحاجة إلى استيفاء الإبانة تقصيرا[1] .

(١) ارجع إلى أدب الدنيا والدين ص ٥٣

أدوات الكتابة

أما أدوات الكتابة فقد وفى العالم البحاثة جورجى زيدان الكلام عنها فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ اللغة العربية » ، فقال : وظلوا يكتبون إلى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجا ، فكانت دفاتر الحكومة لفائف من الجلد ؛ فلما أفضى الأمر إلى العباسيين غيَّر خالد البرمكى وزير أبى العباس السفاح الدفاتر من الأدراج إلى الكتب ، فظلت أعمال الحكومة تدون فى كتب من الجلد ، إلى أن تصرف جعفر بن يحيى البرمكى بالوزارة فى خلافة الرشيد ، فاتخذ الكاغد (الورق)، وتداوله الناس بعده . وظلوا على ذلك أجيالا لا يكتبون على الجلد والقراطيس ، والورق الصينى ، والتهامى، والخراسانى[1] يصنعونه كراسات أو دفاتر . وكان بعضهم يفضل الرقاع كالفارابى ؛ فقد كانت أكثر كتاباته على الرقاع[2].

---

(١) الفهرست ص ٤٠ (٢) ابن خلكان ص ٢٧ ج ٢

سلسلة الخط العربى على رأى الإفرنج

المصرى
↓
الفينيقى

السريانى ↓ الاسترنجيلى ↓ الكوفى

النبطى ↓ الحيرى والأنبارى ↓ الحجازى (النسخى)

سلسلة الخط العربى على رأى رواة العرب

المصرى
↓
الفينيقى

الصَّفوى - الثمودى - اللحيانى - الحِميرىّ
↓
الكِندِى والنَّبطى
↓
الحيرى والأنبارى
↓
الحجازى
↓
الكوفى

ولنذكر فيما يلى سلسلة الخط العربى كما فى «تاريخ حياة اللغة العربية» للغوى المحقق المرحوم حفنى ناصف بك

عربي ومصري وفينيقي

عربي نسخ	مصري مقدس	مصري للخاصة	مصري للعامة	فينيقي	أسماء فينيقية	مسميات أصلية
ا					ألف	ثور
ب					بيت	بيت
ج					جمل	جمل
د					دلت	باب
ه					هاء	اسم إشارة والعادة أن تقف الأيدي
و					واو	مسمار بزاوية
ز					زين	حربة أو سلاح
ح					حائط	حائط أو سياج
ط					طبة	حية
ى ك					يد	يد
ل					كاف	كف
م					لام	صبع
ن					ميم	ماء
س					نون	سمكة
ع					سامك	دعامة
ف					عين	حامة البصر
ص					فا	فم
ق					صادي	فخ أو منجل
ر					قوف	أذن
ش					ريش	رأس
ت					شين	سن
					تاو	صليب يعلقه على أفخاذ البرابرة

نسخ و یونانی وحمیری وآرامی

عربی نسخ	یونانی قدیم	مسند حمیری	آرامی قدیم
ا	A A	ᵸ ᵸ	K
ب	B B B	ᵹ ᵹ	ᵹ
ج	٦ ٦ ٨	ᵹ	ᵹ
د	◁ P D	ᵸ ᵸ ᵸ ᵸ	ᵸ
ه	∃ E	ᵸ	ᵸ
و	٦ Y Y	ᵸ	ᵸ
ز	I	ᵸ	ᵸ
ح	⊟ H	ᵸ ᵸ	ᵸ
ط	⊕	ᵸ ᵸ ᵸ	ᵸ
ى	٤ ٤	ᵸ	ᵸ
ك	K K	ᵸ ᵸ	ᵸ
ل	٨ ٧	ᵸ ᵸ	ᵸ
م	M M	ᵸ ᵸ ᵸ	ᵸ
ن	٩	ᵸ ᵸ	ᵸ
س	⊞ (?) ٤	ᵸ	ᵸ
ع	O	ᵸ ᵸ ᵸ	ᵸ
ف	٦ ٢	ᵸ	ᵸ
ص	M ٧	ᵸ ᵸ	ᵸ
ق	٩ P ♦	ᵸ	ᵸ
ر	٩ P	ᵸ ᵸ	ᵸ
ش	٤ M	ᵸ ᵸ	ᵸ
ت	T T	ᵸ ᵸ	ᵸ

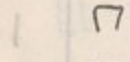
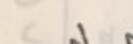
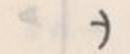
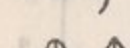
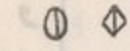
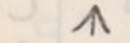
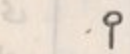
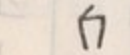
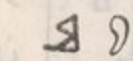
حروف أبجدية شرقيـــــة متنوعة

عبرى مربع	عبرى عادى	فارسى قديم	فارسى رفاع	ندمرى	نبطى	استرنجيلى	سريانى يعقوبى	عربى
א	א	𐎠	𐡀	𐡀	𐡀	א	ܐ	ا
ב	ב	𐎡	𐡁	𐡁	𐡁	ב	ܒ	ب
ג	ג	𐎢	𐡂	𐡂	𐡂	ג	ܓ	ج
ד	ד	𐎣	𐡃	𐡃	𐡃	ד	ܕ	د
ה	ה	𐎤	𐡄	𐡄	𐡄	ה	ܗ	ه
ו	ו	𐎥	𐡅	𐡅	𐡅	ו	ܘ	و
ז	ז	𐎦	𐡆	𐡆	𐡆	ז	ܙ	ز
ח	ח	𐎧	𐡇	𐡇	𐡇	ח	ܚ	ح
ט	ט	𐎨	𐡈	𐡈	𐡈	ט	ܛ	ط
י	י	𐎩	𐡉	𐡉	𐡉	י	ܝ	ى
כ	כ	𐎪	𐡊	𐡊	𐡊	כ	ܟ	ك
ל	ל	𐎫	𐡋	𐡋	𐡋	ל	ܠ	ل
מ	מ	𐎬	𐡌	𐡌	𐡌	מ	ܡ	م
נ	נ	𐎭	𐡍	𐡍	𐡍	נ	ܢ	ن
ס	ס	𐎮	𐡎	𐡎	𐡎	ס	ܣ	س
ע	ע	𐎯	𐡏	𐡏	𐡏	ע	ܥ	ع
פ	פ	𐎰	𐡐	𐡐	𐡐	פ	ܦ	ف
צ	צ	𐎱	𐡑	𐡑	𐡑	צ	ܨ	ص
ק	ק	𐎲	𐡒	𐡒	𐡒	ק	ܩ	ق
ר	ר	𐎳	𐡓	𐡓	𐡓	ר	ܪ	ر
ש	ש	𐎴	𐡔	𐡔	𐡔	ש	ܫ	ش
ת	ת	𐎵	𐡕	𐡕	𐡕	ת	ܬ	ت

نسخ وحميرى ونبطى وأنبارى

عربى نسخ	مسند حميرى	كندى أو نبطى	مبرى أو أنبارى	
ا				
ب				
ج				
د				
ه				
و				
ز				
ح				
ط				
ى				
ك				
ل				
م				
ن				
س				
ع				
ف				
ص				
ق				
ر				
ش				
ت				

نسخ وفينيق وصفوى وثمودى ولحيانى

عربى نسخ	فينيقى	مسند صفوى	مسند ثمودى	مسند لحيانى
ا				
ب				
ج				
د				
ه				
و				
ز				
ح				
ط				
ى				
ك				
ل				
م				
ن				
س				
ع				
ف				
ص				
ق				
ر				
ش				
ت				

نسخ وحميرى وحبشى (إثيوبى) وجعزى وبربرى

عربى نسخ	مسند حميرى	حبشى إثيوبى	جعزى	بربرى
ا	𐩱 𐩲	አ	አ	ⵄ
ب	𐩵 𐩸	ⵀ	ⵀ	ⵁ ⵂ
ج	𐩹	ⵃ	ⵃ	ⵃ ⵄ ⵅ
د	𐩺 𐩻 𐩼 𐩽	ⵄ ⵅ	ⵄ	ⵇ ⵈ
ه	𐩾	ⵆ	ⵆ	ⵉ
و	𐩿	ⵇ ⵈ	ⵇ	ⵊ ⵋ ⵌ
ز	𐪀	ⵉ	ⵉ	ⵍ
ح	𐪁 𐪂	ⵊ ⵋ	ⵊ	ⵎ
ط	𐪃 𐪄 𐪅	ⵌ ⵍ	ⵌ	ⵏ
ى	𐪆	ⵎ	ⵎ	ⵐ
ك	𐪇 𐪈	ⵏ ⵐ	ⵏ	ⵑ ⵒ
ل	𐪉 𐪊	ⵑ ⵒ	ⵑ	ⵓ ⵔ
م	𐪋 𐪌 𐪍	ⵓ ⵔ	ⵓ	ⵕ ⵖ
ن	𐪎 𐪏	ⵕ ⵖ	ⵕ	ⵗ ⵘ
س	𐪐	ⵗ ⵘ	ⵗ	ⵙ ⵚ
ع	𐪑 𐪒 𐪓	ⵙ ⵚ	ⵙ	ⵛ ⵜ
ف	𐪔	ⵛ ⵜ	ⵛ	ⵝ ⵞ
ص	𐪕 𐪖	ⵝ ⵞ	ⵝ	ⵟ ⵠ
ق	𐪗 𐪘	ⵟ ⵠ	ⵟ	ⵡ ⵢ
ر	𐪙 𐪚 𐪛	ⵡ ⵢ	ⵡ	ⵣ ⵤ
ش	𐪜 𐪝	ⵣ ⵤ	ⵣ	ⵥ ⵦ
ت	𐪞 𐪟	ⵥ ⵦ	ⵥ	ⵧ ⵨

عربى ومصرى وفينيقى ومسند وآرامى ونبطى أوكندى وحيرى أوأنبارى

عربى	مصرى للعامة	فينيقى	مسند وآرامى		نبطى وكندى	حيرى وأنبارى
ا	ﻯ	ﻯ	𐩱 𐩠	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ب	ﻯ	ﻯ	𐩨 𐩣	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ج	ﻯ	ﻯ	𐩲	ﻯ	ﻯ	ﻯ
د	ﻯ	ﻯ	𐩵 𐩴	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ه	ﻯ	ﻯ	𐩺	ﻯ	ﻯ	ﻯ
و	ﻯ	ﻯ	𐩻	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ز	ﻯ	ﻯ	𐩼	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ح	ﻯ	ﻯ	𐩽 𐩾	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ط	ﻯ	ﻯ	𐩿	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ي	ﻯ	ﻯ	𐪀	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ك	ﻯ	ﻯ	𐪁 𐪂	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ل	ﻯ	ﻯ	𐪃	ﻯ	ﻯ	ﻯ
م	ﻯ	ﻯ	𐪄	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ن	ﻯ	ﻯ	𐪅	ﻯ	ﻯ	ﻯ
س	ﻯ	ﻯ	𐪆	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ع	ﻯ	ﻯ	𐪇	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ف	ﻯ	ﻯ	𐪈	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ص	ﻯ	ﻯ	𐪉	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ق	ﻯ	ﻯ	𐪊	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ر	ﻯ	ﻯ	𐪋	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ش	ﻯ	ﻯ	𐪌	ﻯ	ﻯ	ﻯ
ت	ﻯ	ﻯ	𐪍	ﻯ	ﻯ	ﻯ

الفصل الحادى عشر

كيف ننهض باللغة العربية ؟

اللغة من مقومات الأمة :

من المسلم به أن اللغة ظل لحياة الأمة ، ومرآة تبدو على سطحها حال تلك الأمة وما هى عليه من نباهة وسمو ، أو ركود وخمول . فاللغة هى الوسيلة الواحدة التى تسجل بها الأمة علومها ، وتدون آدابها ، وتكتب تاريخها ، وتستوعب نتاج عقول أبنائها ، فى مختلف نواحى النشاط البشرى . فهى ـ لذلك ـ ألزم لوازم الأمة الحية المستقلة التى تشعر بوجود ، وتحس كرامة ، فإن كانت الأمة جسما فاللغة الروح ، أو شمسا فاللغة الشعاع .

زد على ذلك أن اللغة أهم الروابط التى تربط الجيل الحاضر بالأجيال السابقة ، وتنقل إليه فى وضوح وصدق الجهود التى بذلوها فى دعم الحضارة الإنسانية ، وما كشفوه من مخبآت هذا الكون ، وما أطلعهم الله عليه من أسراره ؛ فيتسنى للنابتة أن يبنوا على هذا الأساس ، ويسيروا فى تلك السبيل . ومن أجل ذلك عنيت الدول الحية بلغاتها الوطنية قراءة وكتابة وأدبا ، وجعلتها فى مقدمة المواد الدراسية ؛

إذ هى الأساس الذى ينهض عليه تدريس جميع المواد . فإذا كان الطالب ضعيفا فى لغته صعب عليه أن يتابع أستاذه فى فهم دروسه ، كما يتعصى عليه فهم ما يقرأ ساعة المطالعة والاستذكار ؛ فيؤدى ضعفه فى اللغة إلى ضعفه فى بقيـة المواد مهما يجتهد المدرسون . وإن من أهم مظاهر عناية الأمم الحية بلغاتها العمل على نشرها بالوسائل المختلفة فى الإذاعة ، والبعوث التعليمية ، والـكتب والمجلات ، والمعاهد التى تنشئها فى البلاد الأخرى ؛ إذ أن سـيادة اللغة لون من سيادة أهلها ، وانتشارها إشـعار برقى أصحابهـا .

وإن أنس لا أنس ماذ كره الراحل (ولهلم غليوم) إمبراطور ألمانيا السابق، وقد جمع رجال التعليم من نظار ومدرسين ، وكانت العناية كبيرة بدراسة اللغتين الإغريقيـة واللاتينية فى المدارس الألمانية قائلا : « إننا لا نريد أن نـكون إغريقيين ، ولا نود أن نـكون لاتينيين ، بل نريد أن نـكون ألمانيين ، فنعنى باللغة الألمانية ، والأدب الألمانى» . وإننى اليوم أحذو حذو الإمبراطور غليوم، فأنادى بالعناية باللغة العربية ، والأدب العربى ، ورجال اللغة العربية ؛ لأنها اللغة القومية ، ولغة الوطن ، فإحياؤها إحياء للوطن ، والنهوض بها نهوض بالوطن .

وقد يحدث أن تتفرق الأمة الواحدة ، وتصير دولا مختلفة ، وتسير كل دولة منها فى واديها ، ضاربة صفحاً عن أبناء عمومتها وشقيقاتها ، غير أن اللغة ـ مع كل هذا ـ تبقى رباطاً متيناً ، وحصناً حصيناً تلوذ به هذه الدول ، فيجمع بينها إذا كرثها خطب، أو نزل بها رزء . ولا أدل على ذلك من حال انجلترة وأمريكا اليوم ، فساسة انجلترة يحاولون التوحيد بين الدولتين الآن ما دامت اللغـة تجمع بين الأمتين ، وتصل بين الشعبين : الإنجليزى والأمريكى .

اللغة العربية فى حاضرها وماضيها :

واللغة العربية لها كل ما تقدم من مميزات ، وتزيد أنها لغة الدين ، وبذلك ضمنت لنفسها البقاء والنماء ، مادامت الدنيا ، ومادام فى الأرض مسلم يقرأ القرآن الكريم. وقد ورثت - فى العصور الوسطى - حضارات الأمم القديمة كلها من يونان ورومان وفرس وساميين ومصريين ، وتمثلت كل ذلك ، وطبعته بطابعها ، وزادته ونمته ؛ فصار أصيلاً بعد أن كان دخيلاً ، وصميماً بعد أن كان ضعيفاً غريباً ، وقامت بأعباء الملك الواسع ، والسلطان العريض ، وما يقتضيه ذلك من آداب وعلوم وفنون ، فأضافت بذلك إلى سلسلة الحضارة الإنسانية حلقة لامعة ممتازة ، كما زادت فى صرح المدنية العالمية طابقا شامخاً باذخاً .

غير أنه عدت عليها العوادى ، فوقفت نموها ، وصوحت زاهر مجدها فى العصر التركى ، ولا غرابة ؛ فتلك سبيل الكائن الحى ، وسنة الله فى خلقه : قوة ثم ضعف ثم بعث ، وهذا ما كان ؛ ففى مستهل القرن التاسع عشر قيض الله للشرق العربى يقظة على يد المصلح الكبير محمد على باشا ؛ إذ نقل جل ما فى أوروبة من علوم وفنون إلى مصر ، وصاح باللغة العربية فأجابته ، وناداها فلبته ، ناهضة من قبرها ، ممزقة أكفانها ، نافضة عن نفسها غبار القرون الطويلة ، والآماد المتلاحقة ؛ لتثبت أنها لغة العلم والحضارة ، والمخترعات والمبتكرات ، ولغة القرآن ، وأنها هى فى كل أوان ، غنية ثرية ، عذبة جميلة .

نهضت اللغة العربية بحاجات هذا المصلح فى العلم والصناعة ، والزراعة والتجارة ، حتى جاء إسماعيل ، فأنشأ مدرسة خاصة لتخريج معلميها ، هى دار العلوم ، ومن هنا دخلت اللغة العربية فى طور جديد . قال المغفور له الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده :

« إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا ، لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » .

هل اللغة العربية فى المدارس ضعيفة ؟

منذ عشر سنوات مضت أو تزيد ونحن نسمع الحملات العنيفة ضد مدرسى اللغة العربية بالمدارس الثانوية والابتدائية ، وجل هذه الحملات تهدف إلى غاية واحدة ، هى ضعف التلاميذ فى هذه اللغة ضعفاً هائلاً لا يحسن السكوت عليه ، وليس هناك أسباب لهذا الضعف إلا إهمال بعض مدرسى هذه اللغة من ناحية ، وعجز بعض آخر عن إيصال معلوماته إلى أذهان التلاميذ ، وتحبيبها إليهم من ناحية أخرى . ومن الحجج التى يستند إليها هؤلاء القائلون بالضعف لدعم حملاتهم أنهم كانوا يشتركون فى الامتحانات ، وإذا كثير من الطلاب يكتبون عامية فاضحة ، كأنهم لم يجلسوا إلى مدرس ، أو لم يسمعوا عن قواعد . فياللعجب ! متى كان إهمال بعض الطلبة دليلا على ضعف اللغة العربية بالمدارس وعجز مدرسيها ؟ وكيف يتحمل مدرسو اللغة العربية بالمدارس تبعة هذا الضعف وحدهم إن كان هناك ضعف ؟

وإذا كانت الامتحانات قياسا مضبوطا فى نظر هؤلاء الناقدين فعليهم أن يعودوا إلى امتحان التلاميذ فى شهادة الدراسة الثانوية ؛ حتى يتبين لهم أضعافا كانوا أم أقوياء فى اللغة العربية ؟

إن مدرسى اللغة العربية بالمدارس الثانوية والابتدائية يجاهدون ، وكل شىء فى مصر يحاربهم حتى المدرسة والبيت ، ومع ذلك نجحوا وفاقوا فى أداء رسالتهم ؛ فإذا كان لدى الناقدين شبهة فى ذلك فليكن الدليل عليها من عمل هؤلاء المدرسين : من إعدادهم لدروسهم ، وشرحها ، من أعمال تلاميذهم فى أثناء السنة ، وفى الامتحانات أيضا ، وليكن كل ذلك موازنا بأعمال غيرهم من المدرسين ، فذلك أشبه

بالمعقول، وأقرب إلى الصواب. أما أن يكون الدليل الوحيد إهمال بعض الطلبة فذلك مالا يسلم به إنسان .

غير أن تلك الحملات ـ من ناحية ثانية ـ تكشف لنا عن معنى سام ، وحقيقة رائعة ، نقدرها حق قدرها . ذلك أن المسئولين فى وزارة المعارف أحسوا القومية المصرية ، وعرفوا أن هذه القومية لا قوام لها إلا باللغة العربية ؛ فإذا ضعفت هذه اللغة ذهبت معها القومية ، وصار المصريون كالأوروبيين فى لغتهم ، وذلك أصل الخوف ، وأس البلاء . هذا الإحساس جميل جدا ، وأجمل منه أن نواجه بالتبعة ذويها ، وأن نلقيها على مستحقيها ؛ فتلاميذ المدارس بالوضع الحالى فى قلة حصص اللغة العربية ليسوا ضعافاً فى اللغة العربية ، بل يمكن أن نعد التلاميذ فى اللغة العربية أقوى منهم فى سائر العلوم . وإذا أردت الدليل القاطع على ذلك فادخل أى فصل فى المدارس الثانوية ، واسأل التلاميذ فى أى مادة من المواد الدراسية : الأدبية والعلمية والرياضية ـ تسمع الإجابات المضحكة المبكية ، فالضعف عام فى كل المواد ، وهذا الضعف له أسباب سياسية واجتماعية وتعليمية ، لا تغيب عن العارفين. هذه الأسباب تظاهرت وتعاونت حتى أدت بنا إلى ذلك التدهور فى كل النواحى ، فليس من العدالة إذاً فى شىء أن نغالى فى ضعف التلاميذ فى اللغة العربية فقط ، ونلتزم الصمت ـ وهو عين الرضا ـ إزاء ضعفهم فى بقية المواد .

على أنى أعيد القول موضحاً : إن التلاميذ ليسوا ضعافاً فى اللغة العربية ما دام المدرس أسير المنهج ، وظلاً للامتحان ؛ فالمدرس يدرس على ضوء المنهج ، مهتدياً بهدى الامتحان العام ، والتلاميذ ـ فى هذا الحيز ـ ليسوا ضعافاً ، بل يعدون

للامتحان خير إعداد ، ويجتازونه بدرجات فائقة . أما أن تلاميذنا أضعف فى لغتنا من نظرائهم فى الدول الكبرى ذات اللغات الحية فذلك أمر لا جدال فيه ولا مراء. وكان الجدير بالحملة أن تنصب عليه ، والجدير بكل منصف أن يسلم به أولاً ، ويسعى إلى علاجه ثانياً ، مسترشداً بما تسير عليه هذه الدول فى تدريس لغاتها ، مقتفياً كل خطواتها التى تلائمنا ، وحينئذ فتشخيص العلة يجب أن يكون هكذا : تلاميذ المدارس المصرية أضعف فى لغتهم الوطنية من نظرائهم فى البلاد الأجنبية ، فما أسباب هذا الضعف ؟ وما طرق العلاج ؟ ذلك هو القول الحق ، وعلى هديه سنسير فى استقصاء الضعف ، وتلمس وسائل العلاج .

اللغة العربية فى المدارس المصرية الحديثة :

منذ ستين سنة أو أكثر إلى أن نالت مصر استقلالها الذاتى سنة ١٩٢٣ ـ كانت العناية باللغة العربية فى المدارس مقصورة على القواعد فقط ، أما الأدبيات فكان نصيبها ضئيلاً جدًّا فى المناهج وفى الحصص ، وبالتالى فى مجهود المدرسين ، حتى إنهم تحدثوا أن المسابقات بين طلبة المدارس العالية فى ذلك الحين كانت تعقد فى اللغة العربية ، وكان موضوع المسابقة لا يتجاوز إعراب بيت من الشعر ، أو آية من القرآن الكريم . ولذلك نجد من تخرجوا فى ذلك الزمن على إلمام يكاد يكون تامًّا بقواعد النحو والبلاغة .

ولا شك أن السياسة كانت لها اليد الطولى فى هذا التوجيه ، فحاربت اللغة العربية ، وحجبت آدابها؛ حتى لا يتيقظ الشعب ، ويتنبه المصريون ، وعمدت إلى التوسع فى القواعد ـ وهى فلسفات بعيدة عن صميم اللغة ـ حتى يبغض الشباب لغتهم ،

ويمقتوها كل المقت ، لصعوبة القواعد من جهة ، وخلو المناهج من الآداب — وهى الغذاء الروحى للشباب ، والمظهر الجميل للغة — من جهة أخرى ، وبذلك ينبذون لغتهم وراءهم ظهريًّا ، ويتطلعون إلى اللغة الأجنبية ويعدونها لغة العلم والأدب والفن. فيشب الشاب مصرى الجسم ، أجنبى العقل والروح ، فتنجح السياسة السامية الخفية أكثر مما نجحت السياسة الحزبية المكشوفة ، كما أنه كان من آثار هذا العهد الماضى الإمعان فى تحقير مدرس اللغة العربية بنقص راتبه ، وحرمانه رزقه ، وعدم إسناد الوظائف الرئيسة إليه ، وعدم الاعتراف بمجهوده ولو أتى بالمعجزات .

على أنه حين نالت مصر استقلالها تنبه المسئولون فى وزارة المعارف إلى أن تلك الخطة فى دراسة اللغة لا تغنى فتيلا ، وأنها ليست من اللغة فى شىء ، وأن فى الإمعان فيها خطرا يتهدد اللغة ذاتها ؛ إذ أنه يصرف النابتة عنها ، فسرعان ما غيروا المناهج وعدلوها ، ومالوا بها إلى الناحية الأدبية ، وكان المدرسون أسرع الناس تلبية لهذه الرغبة المتزنة الحكيمة ، فأخذوا يتوسعون فى الدراسات الأدبية ، ويغذون التلاميذ بالنصوص الرائعة فى سائر الدروس ، حتى درس القواعد نفسه ؛ فكان من بين تلاميذ المدارس الثانوية الكتّاب ، والخطباء ، والشعراء الناشئون ، وحتى سالت أقلام كثير منهم بكتابة الرائع المعجب فى شتى النواحى — فى حدود ثقافتهم — وحتى كانت بعض الموضوعات التى ينشئها التلاميذ فى كراساتهم تكاد تكون نماذج تحتذى ، أو مقالات تنشر فى المجلات الأدبية . ولا يغض من قيمة هذا المجهود المشكور أن بعض التلاميذ تحصى عليه بعض الأخطاء فى النحو ؛ فأمر ذلك سهل هين ، ومتى كان الناس لا يخطئون ؟

إن العرب أنفسهم أيام الدولة الأموية العربية وفى عهد أشهر خلفائها عبد الملك ابن مروان أحصوا من لم يلحنوا منهم ، فلم يزيدوا على أربعة ، منهم عبد الملك ، والشعبى ، والحجاج ، ولم يطعن ذلك اللحن فى عربية العرب ، ولم يقل لهم أحد : أيها العرب ، إن لغتكم أصابها ضعف ، فهو من باب أولى لا يطعن فى عربية هؤلاء الناشئة . وليس معنى هذا أننا نهون من شأن اللحن أو نرتضيه ، ولكن معناه أن ما كسبناه من جراء السير على الخطة الأدبية ، من إطلاق الألسنة ، وتحرير الأقلام ، يفوق كثيرا هذا اللحن الذى كان أيضا قبل ذلك ، ويمكن تداركه بالإرشاد إليه مرة أو مرتين على الأكثر ما دام فى الكاتب الفطرة والاستعداد .

حياة اللغة العربية :

اللغة العربية تحيا حياة كريمة فى بطون الكتب ، وعلى أسنة الأقلام ، فيما يؤلفه العلماء فى فروع العلم المختلفة ، وينشئه الأدباء فى المناحى الأدبية الواسعة ، وفيما تدبجه يراعات الشعراء . فإذا ما تجاوزنا الكتابة إلى الحديث والمشافهة توارت الفصحى ، واختفت ، وحلت محلها العامية ، ذات السلطان القوى ، والتيار الجارف ؛ إذ تتسلط على ألسنة الناطقين بالضاد جميعهم ، صغارهم وكبارهم ، علمائهم وعامتهم ، فى كل ما ينطقون ، وفى كل ما يتحدثون . والخلاف شديد جدا بين العامية والفصحى ؛ إذ أن العامية غير معربة ، والكثير من كلماتها محرف ، أو مختل الاشتقاق ، أو مغير الدلالة عن أصله الفصيح ، كما أن طرق الأداء بها أضحت تخالف إلى حد كبير الأساليب الفصيحة . ولذلك نقول : إن للغة العربية ناحيتين : الناحية الكتابية وهى حية فيها قوية كما كانت فى أزهى عصورها ، والناحية اللسانية وهى عامية تقرب من العربية بين المثقفين ، وعامية عادية بين الأميين .

وطريق تعلم اللغات « اسمع وانطق » ، أى المحاكاة أمر مسلم به ، والطفل المصرى لا يسمع الفصحى ، بل يسمع العامية ، فهو — إذا — يتعلم أول ما يتعلم العامية التى يسمعها من أمه وأبيه وباقى أسرته ، ومن يطيفون به . ولذلك لا نعدو الحقيقة إذا صرحنا أن اللغة العربية لا تقل فى غرابتها علينا عن اللغة الفرنسية والإنجليزية مثلا. وكما يتعلم الناشئ هاتين اللغتين فى المدارس كذلك يتعلم العربية فى المدارس أيضا ، وكما يلاقى الطفل عنتا ومشقة فى تعلم هاتين اللغتين ، كذلك هو يلاقى عنتا ومشقة فى تعلم اللغة العربية . فإذا ما قدرنا ذلك حق قدره وعددنا الفصحى غريبة عن البيت والبيئة الاجتماعية ، وأن العامية تحاربها وتطاردها ، أمكننا أن نبحث فى هدوء وطمأنينة عن أسباب ضعف أبنائنا فى اللغة العربية .

اللغة العربية تحمل معها بعض الأدواء :

إن من أسباب ضعف التلاميذ فى اللغة العربية ما يكمن فى هذه اللغة نفسها ، ويتصل بطبيعتها ؛ إذ أنه جزء من ذاتيتها ، وذلك هو الإعراب ، وتعدد صوره ، وتنوع مقتضياته ، وكثرة علاماته ، الأمر الذى يحير التلاميذ كثيراً ، ثم بعض طرق الأداء العربية كالعدد مع تمييزه مثلا ، وكل ذلك يجسم الحمل على الناشئ ، ويثقل كاهله ، ويجعل عمل المدرس صعباً ، ومجهوده شاقًّا ، وعلاج ذلك بين يدى المجمع اللغوى ؛ فله أن يبسِّط هذه القواعد مشتركا مع فحول العلماء فى الأقطار التى تشاركنا لساننا ، وتقاسمنا لغتنا ، حتى يكون الإصلاح أعم ، والفائدة أشمل .

ثم الإملاء العربى عقبة كأداء فى بعض الأحيان أمام الكاتبين ، كبارهم قبل صغارهم ؛ فإن قواعده واهية الأساس ، والخلاف فيها كثير جدا ، حتى صارت

الهمزة ـ وخاصة المتوسطة ـ مصدر حيرة لا مخرج لنا منهـا ، والألف اللينة أعيت الجهود فى ضبط قواعـدها ، وما يزال الخلاف يحتـدم حول كلمة الموسـيقا : أياء تكتب أم ألفاً ؟ والعـلاج هنا سهل جدا وهين ، متى خلصت النيات ، وتظاهرت الجهود ، ونظرنا إلى المشكلة نظرة جدية. ثم هذا الوضع الغريب للغة العربية الفصحى؛ فقد مضت عليهـا قرون طويلة وهى فى المعجمات ، لا يطلع على فرائدها وكنوزها وثروتها إلا الخواص ، ومن حولها فى كل مكان وزمان العامية والتركية ، ثم الفرنسية والإنجليزية ، تغزوها وتنافسها ـ مستعينة بسلطانها أو مخترعاتها ـ فى كل ميدان ، وتطاردها على كل لسان ، ولا سيما ألسنة المثقفين . ولا ترتضى هاتان اللغتان إمداد الناس بأسمـاء المخترعات الحديثة فحسب ، بل تزيدان على ذلك المصادر والأفعال التى تناسب تلك المخترعات ، وما أسهل محاكاة المسموع ، فتكون النتيجة الحتمية أن تتوارى الفصحى ، ويحل محلها هذا الخليط . وتلك حال تسوء مغبتها إذا استمرت ، ولا بد من التفكير فى علاجها ، فهل لنا أن نعرب ؟ أم هل لنا أن نولد ؟ جواب ذلك عند المجمع اللغوى ، وهو الكفيل بحل هذا الإشكال . وهناك عقبات أخرى تقف فى سبيل اللغة العربية ، نذكر منها :

(١) المنزل :

إذا ما ذهب التلميذ إلى المدرسة ليتعلم العربية اصطلحت عليه عوامل كثيرة تهدم ما يبنيه المعلم من عقله ، وتفسد ما يقومه من لسانه ، ومن أهم هذه العوامل المنزل. فأى منزل هذا الذى يلتزم سكانه الفصحى ؛ حتى يحيوها على ألسنة أبنائهم ، وحتى يشدوا أزر المدرس فى جهاده ؟ الله يشهد أن اللغة السائدة هى العامية فى جميع المنازل. ثم من رب الأسرة الذى يطلب إلى بنيه و بناته أن يتحروا الفصحى فى حديثهم ،

ويتعمدوها فى خطابهم ، ويرفضوا العامية، ولا يرضوها لسانا لهم ؟ ومن هـذا الذى يحث بنيه و بناته على استذكار دروس الفصحى مثل استذكارهم غيرها من الدروس؟ ومن الذى إذا لمح ضعف أولاده فى اللغـة العربية ـ بناء على تقريرات المدرسة ـ أسرع والتمس لهم أسباب القوة ، كما يبادر فى غير اللغة العربية من الدروس ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك ؛ فجل الآباء والأمهات يجهلون اللغة العربية الفصحى . وفاقد الشىء لا يعطيه ، كما أن بعضهم ممن تلونت ثقافتهم بالفرنسية أو الإنجليزية يحيونها على ألسنة أولادهم ، ضاربين صفحا عن العربية . وقد يغلو بعضهم فى ذلك ، حتى يسخر بمن يتكلم العربية من أولاده . وإذا ما قالت المدرسة لوالد منهم : إن ابنك ضعيف فى اللغة العربية بدت منه أمارات التعجب والاستغراب ؛ كأنها ليست مادة تدرس ، ولم يزد على أن يقول : وكيف يكون ابنى كذلك ؟ ألا يعرف أن يتكلم ؟

(٢) البيئة العامة :

ونعنى بهـا الشارع ، والسوق ، والنادى ، والمقهى ، والقطار ، والترام ، ودور التمثيل ، والصور المتحركة ، إلى غيرها من الأماكن التى يرتادها التلميذ ، ويتصل بمن فيها ويحاورهم . وهى كلها لاشك معاول تهدم ما بناه المدرس ، وتفسد على التلميذ ما حفظ وما أجاد ، وتعوقه عن التعلق بالفصحى ، بل تغريه بالميل إلى العامية وإيثارها. وإذا كان سبيل اللغة « اسمع وقل » فإن التلميذ يسمع الكلمة الفصيحة مرة أو مرتين على الأكثر من مدرِّسه ، على حين يسمع العامية ألفا وألفين . أفبعد هذا نطالبه أن يلتزم العربية ؟ إنا إذا نكلفه شططا ، ونرهقه من أمره عسرا . ونرجو أن يأتى اليوم الذى ينتشر فيه التعليم ، ويحافظ فيه كل عربى على لغته العربية .

(٣) المدرسة :

وأعداء اللغة العربية فى المدرسة كثيرون جدا ، وأشدهم عداوة لها أولئك المدرسون الذين لا يلتزمون الفصحى فى حديثهم ومحاوراتهم، ولا يحملون عليها تلاميذهم، ولا يغرونهم بها ، كما لا يعنيهم - أحيانا - أن يصلحوا كتابات هؤلاء التلاميذ إصلاحا دقيقا .

والمدرسون جميعا فى هذا سواء ، إلا من عصم الله ، وحفظ لسانه ، فأبان بالفصحى، وقليل ما هم . وكيف يتعلم التلميذ الفصحى من مدرس لا يتكلمها ؟ ولو فرضنا أن أحد المدرسين يلتزمها فهل يلتزمها جميع إخوانه فى الحصص الأخرى ؟ الغالب أنه لا هذا ولا ذلك . ولذلك كانت المسألة مروعة ، ولابد من علاجها علاجا جماعيا ، ينهض به كل المدرسين على السواء ؛ إذ أنه لا يكفى أن نكلف مدرس اللغة العربية أن يلتزمها على حين يكون سائر المدرسين أحرارا فى استعمالهم العامية ، كما أنه ليس من المستساغ أن تفصل اللغة العربية ، وتستقل عن بقية المواد .

والطريقة المثلى أن يفرض على المدرسين جميعا التزام الفصحى ، وأن يتعاونوا على ذلك ؛ حتى لا يسمع التلميذ فى الجو المدرسى إلا اللغة الفصحى ، ولا يتحدث إلا الفصحى ، ولا يكتب إلا بالفصحى . وبذلك تثبت المدرسة أمام البيئة العامة تقاومها وتناهضها ، كما أنه لابد أن يؤاخذ كل مدرس يقصر فى مراعاة ذلك . ومن الواجب أن نعد معلمى غير اللغة العربية إعدادا تاما بحيث يستطيعون التكلم باللغة العربية الصحيحة . وأما معلمو اللغة العربية فلهم شأن آخر فى الإعداد والمؤاخذة . وعلى إدارة المدرسة أن تأخذ التلاميذ باللغة الفصحى فى كل ما يصلهم بها ، ولا ترضى بها بديلا.

(٤) الفتنة بكل ما هو أجنبي :

ومن الأدواء الدوية التى منى بها المصريون تعلقهم بكل ما هو أجنبى ، فى اللغة وغير اللغة ، ويفضلونه على ما عندهم من ندٍّ ونظير . وقد أورثهم ذلك عدم الثقة بالنفس ، وفقدان الكرامة ، وانطفاء نيران الغيرة ، حتى إن بعض المفتونين ممن استهوتهم مدنية الغرب وحضارته يسول لهم هذا الداء أن كل ما هو أجنبى عظيم ، وكل مصرى بجانبه حقير ، فى اللغة والعلم والصناعة والتجارة . . . فمن الكمال عندهم والجلال أن يصطنعوا الفرنسية أو الإنجليزية فى حديثهم و بيعهم وشرائهم . ومن السخف والتأخر أن يتكلموا العامية العادية ، وأسخف السخف أن يتكلموا أو يخاطبوا بالفصحى . فهؤلاء وأمثالهم حرب على اللغة ، ولا ينتظر منهم خير لها مهما تعلموها ، بل عقوق وكفران ، واحتقار وازدراء ، وينشأ الناشئة بينهم على غرارهم ، فأولى بنا أن نتجه إلى هؤلاء ، ونرد إليهم عازب صوابهم ؛ حتى يفهموا أن لهم قومية وكرامة ، وخير مقومات هذه القومية والكرامة اللغة ، فإذا أرادوا أن يحتفظوا بكرامتهم فعليهم أن يحيوا لغتهم ، وينهضوا بها ، ولا يتخاطبوا بغيرها إلا عند الضرورة .

(٥) مزاحمة اللغة الأجنبية للعربية فى المدارس :

ولعل من أسباب ضعف اللغة العربية مزاحمة اللغة الأجنبية لها فى المدارس الابتدائية ، والطفل لما يتمكن من لغته القومية ، ولم يحسن الأداء بها ، فتدهمه لغة أجنبية تخالف لغته فى الصوت ، وفى كثير من وجوه الأداء ، وتكوين الجمل ، فيصير الطفل حائرا بينهما ، وهو فى سن مبكرة ، فلم ينضج له عقل ، ولم يسدد منه رأى ،

وقد تسول له نفسه أن لغته العربية ما هى إلا اللغة العامية ، فيهملها اغتراراً بأن البيئة ستغذيه بهـا ، ويلتفت إلى اللغة الأجنبية بكل عزمه ، تغريه بجـدتها من ناحية ، وسمو أهلها وجلالهم من ناحية أخرى ، ثم بالعناية بكتبها ونظامها وإتقانها من ناحية ثالثة ، وفوق ذلك كله الامتحانات القاسية فيها كل عام ، تلك الامتحانات التى تروع التلاميذ فى غدوهم ورواحهم ، وتلزمهم أن يبذلوا فى اللغة الأجنبية مجهودا سخيا حتى يجوزوها ، فتكون النتيجة إهمالاً للغة العربية ، يقابله عناية واجتهاد وجد فى اللغة الأجنبية . ويزيد الطين بلة إقحام اللغة الأجنبية الثانية فى مناهج المدارس الثانوية ، مع ما يصحب ذلك من تقليل فى عدد حصص اللغة العربيـة ، حتى لـكأن اللغة الأجنبية الثانية تدرس على حساب اللغة العربية .

وقد أحست وزارة المعارف هذا الخطر ، فشرعت تتأخر باللغة الأجنبية فى المدارس الابتدائية ، وكذلك فعلت باللغة الثانية فى المدارس الثانوية ، ونعم ما صنعت .

(٦) قلة عدد الحصص فى المدارس الثانوية :

وفوق المزاحمة السابقة من لغتين أجنبيتين تمنى اللغة العربية بنقص عدد حصصها من جهة ، وزيادة عدد فروعها من جهة أخرى ، فيصير للمطالعة حصتان ، وللنصوص حصة ، وللأدب وتاريخه حصة ، وللإنشاء الشفهى والتحريرى حصة ، وللقواعد والتطبيق حصتان فى مدارس البنين ، وحصة واحدة فى مدارس البنات .

وقد كان يمكن أن يكون ذلك التضييق مقبولا لو أننا نسير فى تعليم اللغة العربية

على أسس قويمة ، ولكن الأمر على العكس ، فنحن ننظر إلى القواعد نظرتنا إلى الحساب مثلا ، وننظر إلى الأدب وتاريخه كما ننظر إلى التاريخ العام ؛ أى أنها علوم مستقلة ، وهكذا تضعف الصلة جدا بين فروع اللغة ، ويضمحل الإعداد اللغوى الصحيح ، ويحل محله استظهار المعلومات فى فروع اللغة العربية ، وما أبعدها عن صميم اللغة العربية .

ويجمل بنا أن نعد اللغة سلسلة متماسكة الحلقات ، فيجب أن تنسجم تلك الحلقات وتتماسك ؛ حتى تكون السلسلة المؤتلفة منها قوية ومتينة .

(٧) تاريخ الأدب :

ويعد تاريخ الأدب أجنى الجناة على التلاميذ أولاً ، وعلى الأدب ثانيا ؛ إذ كيف يعرف طالب السنة الأولى الثانوية معنى الأدب ، وصفات الكلام الجيد والردىء ، والعصور الأدبية ، والأساس الذى عليه قسمت ، والعوامل المؤثرة فى حياة الأدب . يلزم الطالب المبتدئ بمعرفة ذلك كله قبل أن يعرف شيئا عن الأدب نفسه ، وبعد ذلك يسترسل المنهج فى تاريخ الأدب ضاربا صفحا عن الأدب نفسه ، حتى صار درس تاريخ الأدب من أصعب الدروس على التلاميذ وأثقلها ؛ إذ يلزمهم حفظ مصطلحات ، واستظهار قواعد ومستنبطات ليس لها أساس - فى عقل التلاميذ - يسندها ، ولا دعائم تثبتها . وكان من الواجب أن يدرس تلاميذ المدارس الثانوية الأدب ونصوصه لا تاريخ الأدب ؛ حتى يتكون لديهم ذوق أدبى .

(٨) درجات فروع اللغة العربية :

وتتجمع درجات الفروع كلها لتكون درجة اللغة العربية ، ومتى نال الطالب خمسا وعشرين منها فقد فاز ، ولو كان نصيبه فى أحد هذه الفروع صفرا ، وفى ذلك

من الشذوذ والغرابة الشيء الكثير ؛ إذ كيف يستساغ هذا الوضع مع قولنا : إن فروع اللغة حلقات تؤلف سلسلة واحدة ، إن مقتضى كلامنا هذا أن يرسب الطالب فى اللغة كلها إذا رسب فى فرع من فروعها ؛ لأن السلسلة المتصلة إذا فقدت حلقة واحدة من حلقاتها انفصلت وانقطعت ، ولكن هذا الطالب الذى ينال صفرا فى الأدب مثلا قد ينجح ، فشتان ما بين نظرياتنا وتطبيقنا لتلك النظريات . وقد عرف الطلاب هذا الخطأ واستمرءوه ، فأخذوا يهملون بعض الفروع اتكالا على قوتهم فى بعض آخر ، فأهملوا الخط والإملاء فى المدارس الابتدائية اعتمادا على قوتهم فى الإنشاء ، وأهملوا الإنشاء حيناً اتكالا على إلمامهم بالقواعد والأدب فى المدارس الثانوية.

ولو أننا حددنا لكل فرع نهاية صغرى كما فى مجموعة الآداب أو الرياضة مثلا لوجدنا التلاميذ يصرفون جهدا ملائما فى الفروع كلها ، فلا يطغى أحدها على الآخر.

(٩) المكتبات المدرسية :

حقًّا إن مكتبات المدارس مليئة بالكتب العربية القديمة ، وتلك الكتب فى موضوعاتها وأساليبها وطريقة طبعها ربما لا تفيد التلاميذ كثيراً ؛ فما أحوجها إلى التهذيب والتنقيح ، والتبويب والتنسيق ، ثم الطبع الجميل ، حتى تتم بها الفائدة ، فإذا ما تركنا هذه الكتب القديمة ، واتجهنا صوب الكتب الحديثة وجدنا الأعداد القليلة التى لا تروى من جمهور التلاميذ ظمأ ، ولا تنقع غليلاً ، وبناء على ذلك تكون المطالعة الحرة فى المدرسة ـ وخاصة الابتدائية ـ نادرة أو معدومة ، مهما تتحدث عنها المناهج ، ومهما يوص بها المفتشون . ومما يحول بين المكتبات والانتفاع بها قلة أثاثها ، وعدم الاتساع فى حجرها ، ثم عدم وجود الموظفين المختصين بها .

وينبغى أن تحظى مكتبة المدرسة بعناية خاصة ، حتى تؤتى الثمر المرجو منها ، وتؤدى الرسالة التى خلقت لها ، فنختار لها الكتب التى تناسب الفرق المختلفة ، ونفرض زيارتها على كل الفرق فى حصص خاصة داخل الجدول أو خارجه ، ويجب أن تخصص أوقات واسعة للمطالعة الحرة بها ، وتسهل الاستعارة منها ، ويقتضى ذلك تعيين أمين لكل مكتبة ليس له عمل غيرها ، أو تكون الجزء الرئيسى من عمله ، كما يقتضى إيجاد الأماكن المناسبة ، والأثاث المريح ، وإنفاق الأموال للتغذية بالكتب الجديدة المفيدة ، وما ذلك على الوزارة بعزيز متى صدق العزم ، وصحت النية .

حقائق لا تنكر

من الحقائق المرة أن اللغة العربية مهملة فى البيت والمجتمع ، والعناية بها أقل من العناية باللغة الأجنبية فى المدرسة ؛ فحصص اللغة العربية قليلة ، ومدرس اللغة العربية مرهق لأنه يجاهد وحده فى سبيل النهوض بها ، فى حين أن مدرسى المواد الأخرى يدرِّسون باللغة العامية . والطالب المصرى مرهق بكثرة المواد ، وطول المقررات ، وهو مكلف أن يدرس فى الثانوى ثلاث لغات ، فهل نعجب إذا انتهى من المرحلة الثانوية ، وهو لا يجيد لغة من اللغات ؟ فبدلاً من دراسة لغتين أجنبيتين ينبغى أن يدرس لغة أجنبية واحدة يختارها ، ونعمل على أن يجيدها ، ويجيد اللغة القومية فينتفع بهما معاً .

واجبنا نحو النهوض باللغة العربية

إن اللغة العربية ليست مادة عادية من المواد الدراسية ، ولكنها اللغة القومية ؛ لغة القرآن الكريم والدين ، لغة الوطن والعروبة ففى إحيائها إحياء للدين ، ومحافظة على القرآن الكريم ، وتمجيد للوطن والعروبة . وفى إهمالها إهمال لهذه الشعائر المقدسة ، وتهاون فى شأنها .

فاللغة العربية أهم مادة أساسية فى جدول الدروس ، وهى المادة التى يجب أن تنال كل عناية من كل مدرسة ، وكل مدرس . وتعليمها يجب أن يكون أهم الأغراض التى نرمى إليها ، وأساتذتها يجب أن يوضعوا فى المراكز التى تلائم ما يبذلون من جهد عظيم فى إعلاء منار الدين ، ولغة الدين ، وفى خدمة الوطن ، ولغة الوطن .

فاللغة العربية لدينا وسيلة لدراسة المواد وفهمها ، وبغيرها لا يمكن درس ولا تعليم . وإن التلميذ المبرز فيها يستطيع بسهولة أن يفهم كل مادة من المواد الدراسية الأخرى ، ولا يجد صعوبة فى دراسة كتاب جغرافى ، أو تاريخى ، أو صحى ، أوأدبى . فالتقدم فيهايساعد من غير شك على التقدم فى غيرها ، والنهوض بها نهوض بغيرها من المواد ؛ فهى اللغة التى نعبر بها عن آرائنا وأفكارنا ، وهى الوسيلة التى نشرح بها كل علم من العلوم، أو فن من الفنون . وبها نفكر ونفهم ، وبها نحاول تفهيم غيرنا ما نشاء .

ويجب أن نصرح بأن من الواجب أن يعنى كل مدرس باللغة العربية - مهما تكن المادة التى يقوم بتدريسها - ويعمل للنهوض بها ؛ بحيث لا يَسمع التلميذ فى أى درس من الدروس إلا اللغة العربية ، ولا يناقَش ولا يُسأل ولا يُشرح له شىء

إلا باللغة العربية[1] . ولهذا يجب أن يجيدها كل مدرس ، بحيث يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة ، ويكتب بلغة سليمة ، ويتحادث ويشرح ويسأل بلغة خالية من الخطأ ، بعيدة كل البعد عن اللغة العامية ، قريبة ما أمكن القرب من اللغة الفصحى. فإذا سمع التلميذ لغة عربية فى كل درس ، ووجد عناية بها من كل مدرس ـ سواء أكان مدرساً للآداب أم للعلوم أم للفنون، أم للغة العربية ـ تقدم التلميذ تقدماً واضحاً ، وشعر بمالها فى الحياة من أثر بالغ ، وأهمية عظيمة .

وبهذه الطريقة غير المباشرة تستطيع المدرسة أن تقوم بما يجب عليها نحو لغة الوطن ، ويستطيع المدرسون القيام بواجبهم نحو أمتهم . ولسنا ننكر أثر العناية باللغة العربية وطرق تدريسها ، فى الأوقات المعينة لها ، ولكننا ننكر أن هذه هى الوسيلة الوحدة للنهوض بها ؛ فالأوقات التى خصصت لتعليمها محدودة ، وهى لا تكفى للوصول بها إلى الغاية المنشودة .

ولا نستطيع أن ننسى أن اللغة العامية التى يتحدث بها التلميذ فى المنزل والمجتمع عقبة كأداء فى سبيل اللغة العربية ، وأن البيت قد يهدم ما تبنيه المدرسة ، وإذا كنا لا نملك وسيلة لمحاربة هذه العامية فى البيوت والمجتمعات ، فإن المدرسة تستطيع أن تعيد مجد العربية ، وترفع شأنها ، وأن تحارب العامية ، وتخضد شوكتها ، فى فصول الدراسة ، وفى فناء المدرسة كما تفعل المدارس الأمريكية والفرنسية ، للنهوض باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وكان من أثره ما يظهره التلاميذ من نجاح كبير فى اللغة الفرنسية بمدارس الليسيه ، وفى اللغة الإنجليزية بالمدارس الإنجليزية والأمريكية،

---

(١) يستثنى من هذا طبعاً تدريس اللغة الأجنبية ، فللنهوض بها يجب أن تكون الأسئلة باللغة الأجنبية ، والأجوبة والشرح والنقاش بها أيضاً .

ولا نرى له مثيلا من تلاميذنا المصريين فى دراسة اللغة العربية مع الأسف الشديد . وليس السبب تقصير مدرسى اللغة العربية أو إهمالهم ، ولكن السبب ضعف مدرسى المواد المختلفة فى اللغة العربية ، واعتمادهم على العامية فى الشرح والمناقشة .

ولا شك أنه إذا تعاون المنزل مع المدرسة على النهوض باللغة العربية ، وتعاون مدرسو المواد الأدبية والعلمية والفنية مع مدرسى اللغة العربية ، فاعتمدوا عليها فى دروسهم ، تقدمت تقدماً كبيراً من حيث لا نشعر ، وظهر أثر هذا التقدم فى حب التلاميذ للقراءة والاطلاع ، وفى صحة أسلوبهم فى الكتابة والمحادثة ، وفى التفكير والتعبير .

ولذلك يعد كل مدرس فى المدارس المصرية مسئولا عن اللغة العربية ، ويجب أن يتحمل نصيبه من التبعة فى تعليمها ، والنهوض بها فى دروسه عرضاً أو قصداً ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . ولا يعد المدرس قائماً بواجبه ، ناجحا فى عمله ، إلا إذا أدى للغة العربية حقها من العناية والرعاية ، فإن إجادة اللغة العربية شرط أساسى للنجاح فى تدريس أى مادة من المواد .

وعلى كل مدرس ألا يقبل خطأ فى اللغة ، أو لحناً فى النطق ، أو ركة فى التعبير . بل يعمل على إصلاح كل خطأ ، وتقويم كل لسان ، وتهذيب كل عبارة ركيكة . ولن يستطيع المدرس أداء هذه الرسالة إلا إذا عرف اللغة العربية حق المعرفة مهما تكن المادة التى يقوم بتدريسها ، فلن يمكنه أن يقوِّم ألسنة التلاميذ ، ويهذب لغتهم ، ويصقل عبارتهم ، إذا كان جاهلاً باللغة ؛ فإن فاقد الشىء لا يعطيه . وعلم المدرس بدقائق الجغرافية ، وحقائق التاريخ ، ومسائل الرياضة والعلوم لا يكفى ، بل لا بد أن يعززه علم تام باللغة العربية ؛ ليستطيع التعبير الصحيح عما يريد شرحه من هذه الحقائق .

والحق أننا إذا عنينا باللغة العربيـة فى كل درس ، وشعر التلميذ بهذه العناية والغيرة من كل مدرس ، تقدم فى لغته من حيث لا يدرى ، ونهضنا بلغتنا من أقرب السبل ، وتخرج الطالب من مدرسته الثانوية ، وهو مجيد للغة القومية قراءة وكتابة وحديثاً ، واستطاع أن يقرأ أى كتاب عربى ، حديث أو قديم ، وأن يفهمه حق الفهم ، ويشعر بما فى قراءته من لذة ومتعة وجمال .

ولتشجيع التلاميذ على التكلم باللغة العربيـة ، يجب ألا نكتفى بالأجوبة الموجزة عن الأسئلة التى نلقيها عليهم ، وأن نشجعهم على التعبير عن أفكارهم بعبارات مختلفة ؛ حتى يعتـادوا التعبير السليم . وإذا قرءوا قطعة من القطع كلفناهم ذكر معناها بعبارة من إنشائهم ، من غير تقيد بعبارة الكتاب ، أو أسلوب المؤلف ، حتى يرسخ المعنى فى أذهـانهم ، ويشجعوا على التعبير الشفهى حينـاً ، والكتابى حيناً آخر .

وكثيراً ما يكون خطأ التلاميذ فى الإجابة ناشئاً عن الخطأ فى التعبير ، أو عدم فهم العبارة ، أو الغموض فى الفـكرة ، أما إذا كانت العبارة واضحة ، والفـكرة جلية لدى التلميذ ، كان من السهل عليه أن يعبر عنها تعبيراً صحيحاً .

وهناك تعبيرات كثيرة فى كتب مدرسية كتبت خاصة للأطفال ، لا يستطيع الأطفال أن يدركوها ؛ لأن اللغة التى كتبت بها تختلف كل الاختـلاف عن اللغة التى اعتادوها ، أو التى تدخل فى حيز إدراكهم ، وهناك تعبيرات اصطلاحيـة لا يمكنهم أن يفهموها إلا إذا شرحت لهم ، ووضحت بطريقة حسية .

ولـكى نصل إلى الغرض الذى ننشده ، والمثل الأعلى الذى نطمح إليه فى تدريس

اللغة العربيـة، يجب أن يكون التعاون تامًّا ـ بين مدرسيها ومدرسى المواد الأخرى ـ على إحياء لغة البلاد . ويجب أن يعنى كل مدرس بترغيب التلاميذ فى اللغة العربية وتشويقهم إلى الاستمرار فى دراستها ؛ حتى ينتفعوا بما فيها من ذخائر أدبية ، شعرية أو نثرية ، ويتكون لديهم الذوق الأدبى ، والأسلوب الفنى ، ويستطيعوا الحكم على اللغة وأساليبها ، ويقدروا ما فيها من روعة وتأثير وجمال .

ولا مانع من أن يقرأ المدرس لتلاميذه رحلة جغرافية فى كتاب أدبى ، أو قطعة أدبيـة فى كتاب تاريخى ، أو يقرأ لهم قصصاً لبعض العظماء والأبطال ، أو روايات تاريخية ، أو موضوعات أدبية أو اجتماعية أو خلقية .

وليس من العسير أن تـكتب العلوم بلغة أدبية ؛ لتسير العلوم والفنون والآداب مع اللغة العربية جنبا لجنب ، فـكتاب الحيوان للجاحظ مثلا يعد كتابا أدبيا مع أنه يبحث عن الحيوان، ومميزات كل نوع منه. وكتب الحسن بن الهيثم كتب علمية ألفت بلغة أدبية ، ومقدمة ابن خلدون وتاريخ الطبرى وابن الأثير كتب تاريخية، ولـكنها تعد فى مقدمة الـكتب الأدبية .

ومن السهل تشجيع تلاميذ السنة الرابعة الابتدائية ، وتلاميذ المدارس الثانوية، على بحث موضوع تاريخى، كسيرة سيدنا أبى بكر، أو عمر، أو عثمان، أو على، أو خالد بن الوليد، أو عمر بن عبد العزيز، أو صلاح الدين الأيوبى، أو محمد على باشا، أو مصطفى كامل، أو محمد فريد، أو سعد زغلول أو غيرهم من العظماء ، بأن تذكر لهم المراجع والفصول التى يقرءونها باللغة العربية ، والـكتب التى يطلعون عليها ، للبحث عن عناصر الموضوع المطلوب ، فإذا قرأ التلميذ الموضوع فى عدة كتب ، استطاع أن يختار مادته ويرتبها ،

ويكتبها منظمة منسقة ، بإرشاد مدرس اللغة العربية ومدرس التاريخ ؛ حتى يستطيع فى النهاية أن يعد محاضرة صغيرة عن أحد العظماء والأبطال ، تستغرق ربع ساعة إن كان فى السنة الرابعة الابتدائية ، أو ثلث ساعة إن كان فى السنوات الأولى والثانية والثالثة الثانوية ، أو نصف ساعة إن كان من طلبة الثقافة أو التوجيهية .

بهذه الوسيلة نعود التلاميذ البحث والاطلاع فى أوقات الفراغ ، والترجمة والتأليف من الصغر ، فإذا شبوا استطاعوا أن يعتمدوا على أنفسهم فى البحث والتنقيب ، والكتابة والتأليف ، وأن يعبروا عن أفكارهم باللغة العربية أصح التعبير ، وصاروا كتابا بارعين ، وأدباء ممتازين ، أو علماء باحثين ، أو مؤرخين مدققين .

وكما نشجع التلاميذ على إلقاء محاضرات صغيرة باللغة العربية ، يجب أن نشجعهم على الاشتراك فى مناظرات فى موضوعات اجتماعية أو خلقية أو وطنية ؛ لنعودهم التعبير الشفهى والكتابى ، ونمرنهم على الجدل والنقاش ، والبحث والمناظرة ، والإلقاء والتمثيل .

ويجب ألا ننسى تمثيل بعض الروايات المناسبة فى المدرسة ، فهذه أحسن وسيلة لتمرين الطلبة على حسن الإلقاء ، وإجادة التعبير والحفظ ، والشجاعة فى الظهور أمام المجتمع ، بتمثيل كل طالب دوره فى القطعة التمثيلية ، والقيام بنصيبه فى إعداد المسرح ، واختيار الملابس ، بالاشتراك مع زملائه ، والتعاون معهم على إخراج الرواية بدقة ومهارة .

ولتقويم ألسنة التلاميذ يجب أن نشجعهم على أن يحفظوا أكبر مقدار ممكن

من القرآن الكريم . ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر القرآن الكريم فى تقويم اللسان واللغة ؛ فهو المثل الأعلى الذى يقتدى به الكتّاب فى كتابتهم ، والأدباء فى أسلوبهم ، ويجب أن نجعله دائما نصب أعين التلاميذ ، ونختار لهم منه ما يلائمهم ، حتى يتذوقوا جمال اللغة ، ونصاعة الأسلوب ، ودقة العبارة ، وروعة التأثير ، وعذوبة التعبير ؛ فحفظ كثير من الآيات القرآنية يساعد التلاميذ فى المستقبل على الاقتباس من القرآن ، والانتفاع بما فيه من حكم وعبر ومواعظ ؛ فأسلوبه غير عادى ، وجماله لا يقدر ، ولا يمكن أن يمل مهما يكرر . فإذا أردنا النهوض باللغة العربية و إصلاح لغة التلاميذ ، وترقيـة مستواها ، وجب أن نشجعهم على حفظ كثير من الآيات القرآنية ، وقراءة كثير من قصص الأنبياء المكتوبة بأسلوب عربى جميل .

ولا يكفى أن يحفظ التلاميذ هذه الآيات ، بل يجب أن يفهموها حق الفهم ، ويتذوقوا ما فيها من جمال وروعة وتأثير . وفى أثناء التلاوة يجب أن نعنى بحسن الإلقاء ، وتمثيل المعنى ، و إخراج الحروف من مخارجها ، والوقف حيث يجب الوقف ، والوصل حيث يجب الوصل .

بهذه الوسيلة نخدم اللغة العربية ، ونقوم ألسنة التلاميذ ، ونبث فيهم الروح الدينى ، ونحبب إليهم اللغة القوميـة ، لغة القرآن والدين ، لغة العرب والإسلام .

وعلى المدرس أن يعد عقول تلاميذه للتعمق فى مادته ، فتزداد أفكارهم ومعلوماتهم ، ويقوى أسلوبهم بكثرة القراءة ، وطول المرانة .

ومن الواضح أن كل درس من دروس اللغة العربيـة لا بد أن يعتمد على

موضوع علمى ، أو تاريخى ، أو فنى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى كما يشاهد فى دروس المطالعة ، وموضوعات الإنشاء ، وقطع الإملاء والمحفوظات ، وأمثلة القواعد . وهكذا يستطيع التلاميذ فى كل درس من دروس اللغة العربية أن يقفوا على بعض الحقائق والمعلومات النافعة فى كل ناحية من نواحى الحياة .

هذا ما يجب أن نقوم به لنشد أزر اللغة العربية فى حجرة الدرس ، والعمل على وصلها بالحياة .

ولكى ننهض بها نهوضا قويا يعيد إليها عُصورها الذهبية يجب علينا أن نرجع إلى تاريخ نهضتها فى العصر العباسى ، فإذا نحن قلبنا صحائف هذا التاريخ وجدنا أن من أسباب نهضتها الترجمة والنقل . فاللغة العربية الغنية بألفاظها ، ومجهودها العلمى القديم — لا تزال فقيرة فى مجهودها الثقافى الحديث ، ولا تزال جامعتنا الكبيرة تعتمد على المراجع الأجنبية فى كثير من أبواب المعرفة ، وألوان الثقافات . وما تزال المكتبة العربية فى أشد الحاجة إلى كثير من المؤلفات . وإلا فأين المكتبة العربية التى تضم مجموعة فى الكتب الطبية بهذه اللغة ، أو مجموعة فى علم النفس ، أو مجموعة فى الفنون الجميلة ؟

فإذا أردنا لهذه اللغة نهوضا سريعا تشارك فيه أعظم اللغات الحية فى هذا العصر فما علينا إلا أن نتخذ الترجمة سبيلا إلى ذلك . وقد وصلت اللغة العربية إلى سيادتها العلمية والأدبية فى أيام العباسيين ، حين وعت حضارةَ الفرس ، وحكمةَ الهند ، وفلسفةَ اليونان . فعوامل النهوض باللغة العربية ترجع إلى أسباب داخلية — وقد أشرنا إليها فى صدر هذا البحث — وإلى أسباب خارجية ؛ وهى نقل مقومات المدنية الحديثة ،

ومشخصاتها إلى اللغة العربية . فإن نحن فعلنا ذلك قمنا بخدمة جليلة للغتنا ، واستطاع تلاميذنا وعامة المثقفين فى مصر أن يجدوا أمامهم فيضاً زاخراً من المؤلفات الحديثة ، التى تشبع نهمهم العلمى، وتلبى ذوقهم الأدبى ، ورغبتهم فى الاطلاع والبحث .وحين نوفق إلى تحقيق ذلك سنجد طلبة الجامعة يعتمدون على المراجع العربية فى دراستهم ، ونجد العلم الأوروبى فى كتبنا العربيـة . وهنالك نـكون قد حققنا كل ما ترجوه اللغة العربية من أبنائها من عناية بها ، ونهوض بشأنها؛ حتى تسترد عظمتها ، وتتبوأ مكانها اللائق بها بين أرقى اللغات الحية الناهضة .

وخلاصة القول أن نهضة اللغة العربية نهضة للأمة ، وإحياءها إحياء للعروبة. ومن الواجب التعاون على النهوض بها وبرجالها . وكل مدرس يجب أن يعنى باللغة العربية ـ مهما تكن المادة التى يقوم بتدريسها ـ ويحرص على التـكلم بها ، والعمل على إنهاضها ؛ فالنهوض بهـا نهوض بغيرها من المواد . وبغيرها لا يمكن درس ولا فهم ولا تعليم .

وفى الختام نسأل الله الهداية والتوفيق ؟

(ا) المراجع العربيـــة

(١) المفصل ، فى قواعد اللغة السريانية وآدابها ، والموازنة بين اللغات السامية . تأليف محمد عطية الإبراشى .

(٢) الأساس ، فى الأمم السامية ولغاتها ، وقواعد اللغة العبرية وآدابهـا . تأليف المرحوم الدكتور على العنانى ، وليون محرز ، ومحمد عطية الإبراشى .

(٣) كتاب العهد القديم ، باللغات العبرية والعربية والإنجليزية .

(٤) معجم البلدان ، لياقوت .

(٥) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى .

(٦) المزهر ، لجلال الدين السيوطى .

(٧) الصاحبى ، لأحمد بن فارس .

(٨) فقه اللغة ، لأحمد بن فارس

(٩) نهاية الأرب ، للنويرى .

(١٠) البُلغة فى أصول اللغة ، للسيد محمـــد صديق حسن ، طبعة القسطنطينية سنة ١٢٩٦ هـ .

(١١) نجعة الرائد وشرعة الوارد ، لليازجى .

(١٢) الخصائص ، لابن جنى .

(١٣) تاريخ التمدن الإسلامى ، لجورجى زيدان .

(١٤) الفهرست ، لابن النديم .

(١٥) وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

(١٦) تاريخ آداب اللغة العربية ، لجورجى زيدان .

(١٧) تاريخ حياة اللغة العربية ، للمرحوم حفنى ناصف بك .

(١٨) فهرس خريطة الممالك الإسلامية، للمرحوم أمين واصف بك.

(١٩) مجلة المقتطف ، أكتوبر ١٩٣٨ ، نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية .

(٢٠) تراث العرب العلمى ، تأليف قدرى حافظ طوقان ، هدية المقتطف سنة ١٩٤١.

(٢١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، تأليف آدم متز ، وترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريدة .

(٢٢) حضارة الإسلام فى دار السلام ، تأليف الأستاذ جميل نخلة المدور .

(٢٣) تراث الإسلام ، ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم .

(ب) المراجع الإنجليزية

(1) The Jewish Religion, by Friedlander, Pub. Shapiro, Vallentine & Co.
(2) Text - Book of The Jewish Religion, by M. Friedlander.
(3) Elements of Comparative Philology, by R. G. Lathan.
(4) Jewish Encyclopedia, Vol. xl. P. 184 - 192
(5) Arabia The Cradle of Islam, by S.M. Zwemer.
(6) Arabia Before Muhammad, by O' Leary.
(7) Characteristics of The Hamitic Languages, by O' Leary.
(8) Encyclopaedia of Islam, Ed. by Arnold, Basset & Hartmann.
(9) A Dictionary of Islam, by Hughes. 1885.
(10) Sketches from Eastern History, by Nöldeke. Black.
(11) Lectures on The Comparative Grammar of The Semitic Languages, by William Wright, Cambridge.
(12) Dictionary of The Koran, by Penrice.
(13) The Story of The Jewish People, by Jack M. Myers.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

اللغات الساميـــــة

الصفحة	الموضوع
٥	نشأة اللغات السامية .
٦	ارتباط اللغات السامية بعضها ببعض .
٧	خواص اللغات السامية .
٩	اللغة السامية الأولى .
١٢	العقلية السامية .
١٣	الصلة بين اللغات السامية وغيرها من اللغات .
١٤	المهد الأول للساميين .
١٧	الصلة بين اللغات السامية .
١٨	تقسيم اللغات السامية .

الفصل الثانى

اللغـــــة العبرية

الصفحة	الموضوع
١٩	اللغة العبرية .
١٩	كنعان .
٢٣	أسفار الكتاب المقدس :
٢٣	(ا) التوراة .
٢٥	(ب) الأنبياء .
٢٦	(ح) المكتوبات .
٢٦	التلمود .
٢٦	المِشنا .
٢٦	الجمارا .
٢٧	عناصر المِشْنا .
٢٧	قوانين التلمود .
٢٨	عصر نفى بنى إسرائيل فى بابل .
٢٩	حلول اللغة الآرامية محل اللغة العبرية .
٣٠	اختلاف اللغة العبرية القديمة عن الحديثة .
٣١	المقّابيون .
٣٣	اللغة العبرية فى القرون الوسطى ، واللغة العبرية الحديثة .

الفصل الثالث

اللغـــة الفينيقية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٥	اللغة الفينيقية .	٣٩	تشبه اللغة الفينيقية اللغة العبرية .
٣٥	فينيقية .	٤١	أهمية اللغة الفينيقية .

الفصل الرابع

اللغة الآراميـــة

٤٢	اللغة الآرامية .	٥٠	اللهجة السامرية .
٤٥	تقسيم اللغة الآرامية .	٥٣	اللهجات البابلية المشرقية .
٤٦	الآرامية القديمة .	٥٤	خواص اللغة الآرامية .
٤٨	اللغة الآرامية فى الترجوم وغيره .	٥٦	اللغة السبئية .
٤٩	اللهجة الآرامية المسيحية فى فلسطين .		

الفصل الخامس

اللغـــة السريانية

٥٧	اللغة السريانية .	٦٣	أهمية اللغة السريانية .
٥٧	اللغة السريانية فى الرُّها .	٦٦	السريانيون .
٥٩	تغير المعانى بتغير الحركات .	٦٩	الترجمة إلى السريانية .
٦٠	خواص اللغة السريانية .	٧١	الترجمة إلى العربية .
٦١	آداب اللغة السريانية .	٧٢	المترجمون من السريانيين والفلسفة .
٦٢	طريقتا ضبط الكلمات .	٧٨	قضاء اللغة العربية على اللغة السريانية .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨١	اعتناق المسيحيين السريانيين الدين الإسلامى .	٨٣	اللغة السريانية وما فيها من الدخيل .
٨٢	اللغة السريانيـة الحديثة .	٨٣	الخطوط السريانية .

الفصل السادس

العـــرب

٨٥	العرب .	١٠٠	الحياة العربية .
٨٨	أقسام العرب .	١٠٠	الطفل العربى .
٩٠	أخلاق العرب وصفاتهم .	١٠٣	التربية عند العرب .
٩٧	علامات قبائل العرب .	١٠٤	أثر العرب فى الرياضـيات والعلوم .
٩٨	فضل العرب .		

الفصل السابع

اللغة العربيـــة

١٠٦	اللغة العربية .	١١٤	خصائص اللغة العربية ومميزاتها .
١٠٨	اللغة العربية القديمة .	١٢٢	سنن العرب .
١١١	لهجة قريش التى نزل بها القرآن .	١٢٩	معرفة الألفاظ الإسلامية .

الفصل الثامن

ثروة اللغة العربيـــــة

الصفحة	الموضوع
١٣١	ثروة اللغة العربية .
١٣٦	لسان حال اللغة العربية .
١٣٧	اللغة العربية غنية .
١٤٠	فصول صغيرة فى العلم والعلماء .
١٤٢	فى الأدب .
١٤٣	فى الحفظ .
١٤٣	فى التأليف .
١٤٤	فى الفصاحة .
١٤٦	فى البلاغة .
١٤٨	فى الخطابة .
١٤٩	فى الكتابة والإنشاء .
١٥٠	فى الشعر .
١٥٣	فى النقد .
١٥٤	فى الجدَل .
١٥٥	فى حسن المنظر وقبحه .
١٥٦	فى الكِبْر والتواضع .
١٥٦	فى الذكاء والبلادة .
١٥٧	فى الصبر والجزع .
١٥٨	فى السموِّ إلى المعالى والقعود عنها .
١٥٨	فى الكَيْس والحمق وذكر الجنون والخرف .
١٦٠	فى الشجاعة والجبن .
١٦٠	فى الرقة والقسوة .
١٦١	فى سهولة الخلُق وتوعّره .
١٦٢	فى الحلم والسَّفَه .
١٦٢	فى الغضب وإطفائه .
١٦٣	فى الطمع والقناعة .
١٦٣	فى تقدم الرجل على أقرانه .
١٦٤	فى القدوة والاحتذاء .
١٦٤	فى العِزة والذلة .

الفصل التاسع

جمال اللغة العربية وميراثها العلمى والأدبى

الصفحة	الموضوع
١٦٥	جمال اللغة العربية وميراثها العلمى والأدبى .
١٦٦	عناصر جمال اللغة العربية .
١٦٧	أسرار جمال اللغة العربية .
١٦٨	مآثر العرب فى العلم والفلسفة .
١٧٠	أمثلة تدل على جمال اللغة العربية .
١٧٠	أبيات لبشامة بن حسن النَّهشَلىّ .
١٧١	أبيات لمعن بن أوس .
١٧٢	أبيات لابن الجَهم فى الفراق والشوق .
١٧٢	من قصيدة للبحترىّ فى المدح .
١٧٣	أبيات للمتنبى فى المدح .
١٧٣	أبيات لابن المعتز فى الكرَم .
١٧٦	مركز اللغة العربية .
١٧٧	الأدب العرب أدب عالمى .
١٧٩	أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية .
١٧٩	أثر اللغة العربية فى اللغات الأخرى .
١٨٢	أثر الأدب العربى فى الآداب الغربية .
١٨٣	مقامات الهمذانى والحريرى .
١٨٣	بديع الزمان الهمذانى .
١٨٣	ترجمته .
١٨٣	نسبه ونشأته .
١٨٤	مساجلته للخوارزمى .
١٨٥	أخلاقه ومواهبه .
١٨٦	نثره وشعره .
١٨٧	مقامات بديع الزمان .
١٨٧	موازنة بين مقامات البديع ومقامات الحريرى .
١٨٨	مقامات الحريرى .
١٩٢	اللهجات العربية الصغيرة .

الفصل العاشر

الخط العربى وتاريخـــــه

الصفحة	الموضوع
١٩٥	الخط العربى وتاريخه .
١٩٨	عدد الأقلام العربية .
٢٠١	الإعجام .
٢٠٣	أدوات الكتابة .
٢٠٤	سلسلة الخط العربى على رأى الإفرنج .
٢٠٤	سلسلة الخط العربى على رأى العرب .
٢٠٤	سلسلة الخط العربى على رأى المرحوم حفنى ناصف بك .
٢٠٥	سلسلة الخط العربى والمصرى والفينيقى .
٢٠٦	سلسلة النسخ واليونانى والحميرى والآرامى .
٢٠٧	حروف أبجدية شرقية متنوعة .
٢٠٨	نسخ وحميرى ونبطى وأنبارى .
٢٠٩	نسخ وفينيقى وصفوى وثمودى ولحيانى .
٢١٠	نسخ وحميرى وحبشى وجعزى وبربرى .
٢١١	عربى ومصرى وفينيقى ومسند وآرامى ونبطى أو كندى وحيرى أو أنبارى .

الفصل الحادى عشر

كيف ننهض باللغة العربيـــة ؟

الصفحة	الموضوع
٢١٢	كيف ننهض باللغة العربية ؟
٢١٢	اللغة من مقومات الأمة .
٢١٤	اللغة العربية فى حاضرها وماضيها .
٢١٥	هل اللغة العربيـة فى المدارس ضعيفة ؟
٢١٧	اللغة العربية فى المدارس المصرية الحديثة .
٢١٩	حياة اللغة العربية .
٢٢٠	اللغة العربيـة تحمل معها بعض الأدواء .

الصفحة	الموضوع
٢٢١	العقبات فى سبيل اللغة العربية :
٢٢١	(١) المنزل .
٢٢٢	(٢) البيئة العامة .
٢٢٣	(٣) المدرسة .
٢٢٤	(٤) الفتنة بكل ماهو أجنبى .
٢٢٤	(٥) مزاحمة اللغة الأجنبية للغة العربية .
٢٢٥	(٦) قلة عدد الحصص فى المدارس الثانوية .
٢٢٦	(٧) تاريخ الأدب .
٢٢٦	(٨) درجات فروع اللغة العربية .
٢٢٧	(٩) المكتبات المدرسية .
٢٢٨	حقائق لا تنكر .
٢٢٩	واجبنا نحو النهوض باللغة العربية .
٢٣٨	المراجع العربية .
٢٤٠	المراجع الإنجليزية .
٢٤١	فهرس الموضوعات .
٢٤٨	فهرس الأعلام .

فهرس الأعلام

(ا)

آدم ، الرسول : ٢٣ ، ٣٧ ، ٣٨

آرام : ٥ ، ٤٢ ، ٥٨

إبان بن سعيد : ١٩٧

إبراهيم ، الرسول : ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٦ ، ٩٠

ابن الأثير : ١٩٠ ، ٢٣٤

ابن باجة : ٧٤

ابن الجهم : ١٧٢

ابن حِزام العُقْلِيّ : ١٢٠

ابن خالويه الهمذانى ، أبو عبد الله : ١١٩ ، ١٢٨

ابن خلدون : ٧٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٩٥ ، ٢٣٤

ابن خلكان : ٢٠١

ابن رشد : ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠٣

ابن سيدة ، أبو الحسن على : ١١٦

ابن سينا : ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

ابن الصليبى : ٦٥

ابن العبرى ، أبو الفرج : ٦٥ ، ٦٦

ابن العربى : ٧٨ ، ١٠٣

ابن فارس : ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠

ابن الفارض : ١٩٠

ابن مسكويه : ١٠٣

ابن المعتز : ١٥٢ ، ١٧٣

ابن المقفع ، عبد الله : ٧١ ، ٧٤ ، ٩٨ ، ١٠٣

ابن مقلة : ١٩٨ ، ١٩٩

ابن ناعمة الحمصى : ٧٥

ابن النبيه ، الشاعر المصرى : ٦٦

ابن الهيثم ، الحسن : ١٠٥ ، ٢٣٤

أبو الأسود الدؤلى : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

أبو الحسين بن فارس : ١٨٤

أبو العتاهية : ١٥٢

أبو بكر : ٢٣٤
أبو بكر بن دريد : ١١٥
أبو تمام : ١١٨
أبو حنيفة الدينورى ، أحمد : ١٠٥
أبو زكريا ، يحيى : ٦
أبو زيد الأنصارى : ١١٥
أبو زيد البوهيمى : ١٨٩
أبو زيد السروجى : ١٨٩
أبو سعيد محمد بن منصور : ١٨٤
أبو سفيان : ١٩٦ ، ١٩٧
أبو سلمة بن عبد الأشهل : ١٩٧
أبو عبشان المسلكانى : ٩١
أبو عبيدة بن الجراح : ٦٧
أبو على الفارسى : ١١٥
أبو على عيسى بن إسحق : ٧٢
أبو عمرو بن العلاء : ١١٣ ، ١٤٠
أبو نواس : ١٥٢
أبيائيل : ٥
أتاتوس الآمدى : ٦٨
أثناسيوس جورجيوس : ٦٧
أحمد الإسكندرى ، المرحوم الشيخ : ١١٥
إديسون كلارك : ٨٨
أرسطو : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٦٨
أرشميدس : ٧٣
أرْفَكْسَاد : ٥
أرميا : ٢٢ ، ٢٦
إستر : ٢٩
إسحق ، أسقف نينوى : ٦٦
إسحق ، الرسول : ٢٣
إسحق بن حماد : ١٩٨
إسحق بن حنين : ٧١
أسد : ١١٣
أسطفان البيزنطى : ٣٧
الإسفرائينى ، أبو العباس الفضل بن أحمد : ١٨٤
الإسكندر المقدونى : ٢٩ ، ٥١ ، ٦٤
أسلم بن سِدرة : ١٩٥
إسماعيل ، الرسول : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٩٥
أشعيا : ٢٢ ، ٢٥
أشور : ٥
الأصمعى : ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٨

الأعشى : ١٧٨
إفرايم ، مار : ٢٢ ، ٣١ ، ٦٥
أفلاطون : ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٦٨
أقليدس : ٧٣
أكيدر بن عبد الملك : ١٩٦
الألوسى ، محمود شكرى البغدادى : ٩٨ ، ١٣٩
إلياس برشنابة : ٧٩
أمبدقليس : ٧٨
امرؤ القيس : ١٠٨ ، ١١٨ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٧٨
أمون : ٨٦
أنطون بُومسترك : ٦٣
أَنْطيُوكس : ٣٢
أنكلوس : ٤٨
أنو شروان بن خالد : ١٨٩
أوزال : ٥
أوفير : ٥
إيدوم : ٨٦
أيوب ، الرسول : ٢٦
إيُون كِيث فالكُونَر : ١٧٠

(ب)

باباى ، الكبير : ٦٦
البارون دى شِلين : ١٧٨ ، ١٩٠
البحترى : ١٧٢ ، ١٧٣
البخارى : ١١٦
بختنصر ، ملك بابل : ٢٥ ، ٢٦
بِدْرودِى ألكالا : ١٩٣
برثلوت : ٦٦
بردقلوس : ٧٦
البرديصانى : ٦٨
برِسْتون : ١٨٨
برَوْنِى ، المستشرق الإنجليزى : ١٧٦
بشامة بن حسن النَّهشَلىّ : ١٧٠
بِشر بن عبد الملك الكندى : ١٩٦
بطرس ، القديس : ٦٥
بطليموس : ٧٣
بقراط : ٧٣
بلوتارك : ٧٠
بلوتس : ٤٠
بِنْرِيس : ١٧٩

بوكارت : ٧
بول ، ستانلى لين : ١٨٩
بولس ، القديس : ٦٥
بيرك هاردت : ١٠١

(ت)

تَيْتَس : ٣٠
تميم : ١١٣

(ث)

ثابت بن قرة : ٧٢ ، ١٠٥
الثعالبى : ١٨٦
ثقيف : ١١٣
ثيُودوسيس ، البطريرك : ٦٨
ثيوفيل الرهاوى : ٦٨

(ج)

الجاحظ : ٧٤ ، ١٤٧ ، ٢٣٤
جالوت : ٨٩
جالينوس ، الطبيب : ٦٨ ، ٧٣
جرجيس ، الكبير : ٧١
جريجوريوس ، الأسقف : ٦٨
جِزِنيُس ، المستشرق الألمانى : ١٦٥
جشم بن بكر : ١١٣
جعفر بن يحيى البرمكى : ٢٠٣
جعفر المتوكل . ٢٠٢
جهيم بن الصلت : ١٩٧
جورجى زيدان : ٦٦ ، ١٩٥ ، ٢٠٣
الجوهرى ، الإمام أبو نصر إسماعيل ابن حماد : ١١٦
جويدى ، إجناز : ٩ ، ١٦

(ح)

حاتم الطائى : ٩١
الحارث بن حلزة اليشكرى : ١٧٨
الحارث بن عباد : ١٢٣
الحارث بن هجان الشيبانى : ١١٨
حاطب بن عمرو بن عبد شمس : ١٩٧
حافظ إبراهيم بك ، المرحوم : ١٣٥
الحافظ ، أبو القاسم : ٨٤
حام : ٥ ، ١٩
حاماث : ٤٣
حامد عبد القادر ، الأستاذ : ٦٩
حبيش بن الأعسم : ٧١
حَبَقوق : ٢٥

الحجاج : ٢٠١ ، ٢١٩
حَجِّى : ٢٥
الحريرى : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ — ١٩١
حِزَقيال : ٢٦
حسان بن ثابت : ١٢٩
حماد الراوية : ١٣٩ ، ١٤٠
حمزة الأصبهانى : ١١٩
حنانيا الحديانى : ٦٥
حنين بن إسحق : ٧١ ، ٨١
حواء : ٢٣
حويطب بن عبد العزى : ١٩٧
حُوَيلة : ٥

(خ)

خالد البرمكى : ٢٠٣
خالد بن سدوس : ١١٨
خالد بن عبد الله : ٩١
خالد بن الوليد : ٩٠ ، ٢٣٤
خالد بن يزيد بن معاوية : ٧١
الخشنانى ، أبو على الحسين بن محمد : ١٨٥
خلَف الأحمر : ١٣٩
الخليل بن أحمد : ١١٥
الخنساء : ٩٠
الخوارزمى ، أبو عبد الله : ١٠٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥
الخوارزمى ، محمد بن موسى : ١٠٤
الخيّام ، عمر : ١٠٥

(د)

دَابُورَا : ٢٠
دانيال : ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٦
داود ، البيت ربانى : ٦٨
داود ، الرسول : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٨٩
دِرْوِى ، وزير المعارف الفرنسى : ١٣٩
دِقْلة : ٥
دى جوج : ١٠
دى ساس : ١٨٨
دى ديُو ، المستشرق : ١٦٥
دى هامَر بيرجْستُول : ١٣٣
ديشاتو بريان : ٥١

(ذ)

ذو الرياستين الفضل بن سهل : ١٩٨

(ر)

الرازى ، فخر الدين : ١٠٥

راعوث : ٢٦

رَايت، وليام ، المستشرق الإنجليزى : ١٠ ، ٦٣ ، ١٧٠

الرشيد . ٧١ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ٢٠٣

رُو بِنْز دوفال : ٦٣ ، ٦٦

رينـان ، المستشرق الفرنسى : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٦٥ ، ١٨٠ ، ١٩١

(ز)

زكريا . الرسول : ٢٥

الزمخشرى : ١١٨

زهير بن أبى سلمى : ١٧٨

(س)

سام بن نوح : ٥ ، ٨ ، ٥٧ ، ٥٨

سِبرِنجر : ٩ ، ١٠

السبكتى : ٦٨

سَبَيْك : ١٨٠

ستانلِى : ١٨٠

سحبان وائل : ١٤٦

سرجيوس ، الرأس عينى ، الطبيب : ٦٨ ، ٧٠ ، ٨١

سعد بن أبى وقاص : ٩٠

سعد زغلول ، المرحوم : ٢٣٤

سـعيد بن يوسف الفيومى المعروف بسعدّيا : ٢٢

السفاح ، أبو العباس : ٢٠٣

سفيان بن أمية : ١٩٧

سقراط : ٧٠ ، ٧٧

سكِرِيدَر : ٩ ، ١٦٥

سكَلتِنْز المستشرق الهولندى : ١٦٥

سكِيت : ١٨٠

سكِيد ، المستشرق الهولندى : ١٦٥

سليمان ، الرسول : ٢٥ ، ٢٦

سمعان الطيبوتى : ٦٨

سنكن يتن الكنعانى : ٣٨

سهل بن نوبخت : ٧١

سويرس ، الأسقف : ٦٧

السيد محمد صديق حسن : ١٣٠
سِيرَاك : ٣٠
سِيس : ٩
سيمون : ٣٢
السيوطى : ١١٦ ، ١٢١ ، ١٩٥

(ش)

شالف : ٥
شـــبا : ٥
الشعبى : ٢١٩
شلوزر : ٥
الشنقيطى : ١١٨ ، ١١٩

(ص)

الصاحب بن عباد : ١١٥ ، ١٨٤
صِفَنْيا : ٢٥
صلاح الدين الأيوبى : ٢٣٤
صموئيل : ٢٥
الصنوبرىّ : ١٥٢
الصهباء بنت حرب بن أُمية : ١٩٦
صول : ٢٥

(ض)

الضحاك بن عجلان : ١٩٨

(ط)

طاليس : ٧٧
الطبرى : ٢٣٤
طرفة بن العبد : ١٧٨
طلحة بن عبد الله : ١٩٧
طموطيمس الأول : ٥٢

(ع)

عامر بن جَدرة : ١٩٥
عاموس : ٢٥
عبد الله بن الزبير : ٩٠
عبد الله بن سعد بن أبى سرح : ١٩٧
عبد الله بن طاهر : ٢٠٢
عبد الله بن مسعود : ١١٣
عبد شمس بن يشجب : ٥٦
عبد الملك بن مروان : ٢٠١ ، ٢١٩
عبد يشوع ، الأسقف : ٦٦
عِبَر : ١٩
عبيد بن الأبرص : ١٧٨
عثمان بن سعيد : ١٩٧
عثمان بن عفان : ١١٣ ، ٢٣٤
عدنان : ٨٩

عِزْرا : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٦
العلاء بن الحضرمى : ١٩٧
على بن أبى طالب : ٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٤
عمانويل الرشهارى : ٦٨
عمر بن الخطاب : ٦٧ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٤
عمر بن عبد العزيز : ٢٣٤
عمرة بنت علقمة : ٩٠
عمرو بن العاص : ٢٠٠
عمرو بن كلثوم : ١٧٨
عنترة بن شداد : ٩٥ ، ١٧٨
عُوبَال : ٥
عُوبَديا : ٢٥
عيسى ، الرسول : ٢٣
عيلام بن سام : ٥ ، ٦ ، ٦٣

(غ)

الغزالى : ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠٣
غليوم ، ولهلم ، إمبراطور ألمانيا السابق : ٢١٣

(ف)

الفارابى ، أبو نصر : ٧٣ ، ٧٨ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ٢٠٣
الفرّاء : ١١٥
فرعون : ٢٣
فرفريوس : ٧٣
فلوطين : ٧٥
فون كريمر : ٩ ، ١٨٨
فيثاغورس : ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٧
الفيروزابادى : ١١٦ ، ١٣٣

(ق)

قاش : ٨٦
قحطان : ٨٩
قدرى حافظ طوقان : ١٠٥
قس بن ساعدة : ١٤٧
قسطا بن لوقا : ٧١
قصى بن كلاب : ٩١
قطبة الخطاط : ١٩٨

(ك)

كاسْطِل : ٧
كامل شجاع بن أسلم : ١٠٥
كسرى أنو شروان : ٧٠
كشاجم : ١٥٢
كعب بن مامة : ٩١

كلثوم بن عمرو العتابى : ٦٧
الكُمَيت : ١٥٢
الكندى ، أبو إسحق : ١٢٨
الكندى ، يعقوب بن إسحق : ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٣
كِنَرى : ١٨٨
كنعان : ١٩

(ل)

لبيد بن ربيعة : ١٢٩
لِفِنْجستون : ١٨٠
لَنْزِنج : ١٦٦
لود : ٦
لودولف : ٧

(م)

مارو : ٨٤
ماكيل : ١٨٢
المأمون : ٧٤ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١٩٨
المبرد ، أبو العباس : ٢٨
متاثْيَاس : ٣١ ، ٣٢
المتنبى : ٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٠
المتوكل : ٧٤
متى بن يونس : ٧٢
محمد بن عبدالله ، الرسول : ٢٣ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٥
محمد بن على بن عيسى القُمِّى : ١٧٢
محمد عبده ، المرحوم الشيخ الإمام : ٢١٤
محمد على الهندى : ١٧٦
محمد على باشا : ٢٣٤
محمد فريد ، المرحوم : ٢٣٤
المختار بن أبى عبيد الثقفى : ١٤٠
مدين : ٨٦
مرامر بن مرة : ١٩٥
مرتضى ، السيد محمد : ١١٦
مريم العذراء : ٦٥
المسيح ، عليه السلام : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧
مصطفى كامل ، المرحوم : ٢٣٤
مصطفى كمال باشا ، المرحوم : ١٨٠
معاوية بن أبى سفيان : ١٩٧
المعتصم : ٧٤
المعرى ، أبو العلاء : ٧٤

معن بن أوس : ١٧١
المقتدر : ١٩٨
مَلَاخى : ٢٥
المنصور : ١٠٤
موأب : ٨٦
موسى ، الرسول : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٥٠ ، ٨٩
موسى بن خالد : ٦٨
موسى بن كيڤا : ٦٥ ، ٦٨
ميخا : ٢٥

(ن)

النابغة الجعدى : ١٢٩
النابغة الذبيانى : ١٧٨
ناحوم : ٢٥
نِحِمْيَا : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩
نسطور ، بطريرك القسطنطينية : ٨٣
نِسِل : ٦٤
نصر بن عاصم : ٢٠١
نوبخت : ٧١
نوح ، الرسول : ٥ ، ١٩ ، ٢٣
نولدكه ، العالم الألمانى : ٦ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨

(هـ)

هدورام : ٥
هرم بن سنان : ٩١
هسيود : ٤٢
الهمذانى : ١٣٩ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩
هُوتِنْجَر : ٧ ، ١٦٥
هوجو ، فيكتور : ١٨٢
هوشع : ٢٢
هولا كو : ٧٤
هُومِل : ٩
هومير : ٤٢

(و)

الواثق : ٧٤
وَارْتُون : ١٨٢
الوليد ، الخليفة : ١٣٩

(ى)

يارح : ٥

اليازجى : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٧
يافث : ٥
ياقوت الحموى : ٨٢ ، ٨٤
يزيد بن أبى سفيان : ١٩٧
يسوع : ٤٩
يشوع : ٢٥
يعقوب ، أسقف سروج : ٦٥
يعقوب ، الإيدسّى أو الرهاوى : ٥٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٢٠٠
يعقوب ، الرسول : ٢٣
يقطان : ٥
يهودا : ٣٢
يهودا بن قريش : ٧
يوئيل : ٢٥
يوباب : ٥
يوسف ، الرسول : ٢٣
يوناثان : ٣٨
يونس ، الرسول : ٢٥

كتب للمؤلف

	ص
(١) روح التربية والتعليم	٥٠
(٢) الاتجاهات الحديثة فى التربية	٥٠
(٣) التربية والحياة ، أو كيف نصلح التعليم ؟	٥٠
(٤) التربية الإنجليزية	٣٠
(٥) جان جاك روسو وآراؤه فى التربية والتعليم	٥٠
(٦) جان جاك روسو المصلح الاجتماعى	١٥
(٧) الشخصية	١٥
(٨) فى علم النفس (ج١) بالاشتراك مع الأستاذين : عبد القادر ومظهر	٤٠
(٩) فى علم النفس (ج٢) « مع الأستاذ حامد عبد القادر	٥٠
(١٠) فى علم النفس (ج٣) « « « « «	٦٠
(١١) أروع القصص لشارلز دكنز	١٥
(١٢) قصص فى البطولة والوطنية	١٥
(١٣) الآداب السامية ، مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وآدابها	٣٥
(١٤) المفصل ، فى اللغة السريانية وآدابها . (طبعة الوزارة) .	
(١٥) الأساس ، فى اللغة العبرية وآدابها بالاشتراك مع المرحوم الدكتور على العنانى ، والأستاذ ليون محرز . (طبعة الوزارة)	
(١٦) أحسن القصص ، فى سبيل الوطن .	بالاشتراك مع ٧
(١٧) « « ، خليفة فى الخيال .	الأستاذين عبد اللطيف ٦
(١٨) « « ، الحصان المسحور .	وحسن جوهر ٦

ظهر حديثا للمؤلف

(١) جان جاك روسو وآراؤه فى التربية والتعليم

(٢) جان جاك روسو المصلح الاجتماعى

ظهر اليوم

كتاب الآداب السامية مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وثروتها وأسرار جمالها ، وكيف ننهض بها .

يظهر قريبا

(١) كيف نعالج الجهل والفقر والمرض ؟

(٢) الطرق الحديثة فى تدريس اللغة العربية .

AUC - LIBRARY

DATE DUE

OCT 1

25 FEB 1993

AUC

15 OCT 1996

A.U.C

4 - NOV 1998

PJ
6074
I 2
1946

1000004918 9

B12090001
I 13378491



JUN 30 1975

SE 30 75

JUN 30 1975

75